دراسات إسلامية معاصرة
«٣»

الإسلام والإيمان

منظومة القيم

الدكتور
محمد شحرور

الأهالي

الإسلام والإيمان

منظومة القيم

* الإسلام والإيمان
* د. محمد شحرور
* الطبعة الأولى - ٨ / ١٩٩٦
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس : ٤١٢٤١٦
فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع :
قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق - هاتف : ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب : ٩٢٢٣ - تلكس : ٤١٢٤١٦
فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧

دراسات إسلامية معاصرة

٣

الإسلام والإيمان

منظومة القيم

الدكتور

محمد شحرور

إهداء

إلى والدي العزيز ديب .

إلى والدتي العزيزة المرحومة صدّيقة فليون

التي سمعت أفكار هذا الكتاب

قبل وفاتها .

إلى زوجتي الوفيّة عزيزة .

إلى أولادي : طارق وزوجته رحاب

والليث وزوجته أولغا

وباسل ومصون وريما وزوجها لؤي .

وإلى من أُحب .

أُهدي هذا الجهد المتواضع

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ

« الأنعام »

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

« الروم »

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

« البقرة »

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾

«القلم»

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

«هود»

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ

شكر

إلى كل من ساهم في دفع هذا الكتاب إلى دائرة النور ، وإلى كل من شارك في التدقيق والمراجعة وتحقيق المراجع والتنضيد ، وحمل على عاتقه أعباء خطوات لابد منها لكل كتاب ، وإلى كل من زودني مشكوراً بآرائه وتوجيهاته ، وفي مقدمتهم الأستاذ حسين العودات لقراءته الكتاب مخطوطاً ، وللملاحظاته القيمة التي أعطت الكتاب حلته هذه ، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم عني بما هو أهل له .

المؤلف

توطئــــة

دعتني مجلة " مقدمات " المغربية إلى محاضرة في ندوة أقامتهـا المجلة بتـاريخ ١٩٩٥/١٢/٧ في الدار البيضاء، تحـت عنـوان "الثقافـة والأخـلاق والديموقراطية في ضوء الحداثة ".

واخترت أن أجعل من محاضرتي تلك توطئة وتمهيدا، وجزءا من القسم الأول لكتابي هذا.

يعتبر هذا الموضوع من أعقد وأهم مايطرح الآن على السـاحة العالميـة والعربيـة، وبخاصة بعد التحولات التي شـهدها القـرن العشـرين في ثمانيناتـه وتسـعيناته، وأدت إلى خلل كبير في موازين القوى العالمية، وإلى خلل أكبر في الطروحات الثقافيـة والسياسـية، وعلى رأسها الأخلاق والديموقراطية، من حيث ارتباطها بالثقافات من جهـة، وبالحداثـة من جهة أخرى.

ماهي الثقافة .. وماهي الأخلاق .. وماهي الديموقراطية ؟ وما المقصود بتحديث الثقافة والأخلاق ؟ وهل ثمة ثقافة تراثية وأخلاق تراثية لم تعد تعمل وتحـدي في عصرنـا هذا، والمطلوب تحديثها ؟ .. وكيف؟ .. وهل المقصود بتحديث الثقافة إعادة صياغتهـا؟ أم نبذ الموروث وبناء ثقافة حديثة على هذا النهج أو ذاك؟ وإذا حـاز هـذا في عصـر مـن العصور، عند أمة من الأمم، فهل يجوز اليوم؟ وعند الأمة العربية ؟

لعلنا في سطورنا هذه، لن ندعي الاجابة على هذه الأسئلة كلها، ولن نعود إلى ترديد التعاريف التنظيرية، التي اعتاد كل من يكتب في الثقافة والأخلاق والديموقراطية أن يكررها، فربط الثقافة والأخلاق بالديموقراطية من جهة، وبالحداثة من جهة أخرى، يحتاج إلى إبداع واقعي، أكثر مما يحتاج إلى تنظير طوباوي، يجري خلف جمهورية أفلاطون، أو مدينة الفارابي الفاضلة.

قلنا إن خللا كبيراً حدث في القرن العشرين وتسعيناته خاصة، قاد كثيراً من المفكرين في مختلف أنحاء العالم، إلى إعادة النظر في العديد من المنطلقات السائدة، فأخذت شكل تيارات يمكن تصنيفها كما يلي :

١ - تيار يدعم سيطرة الثقافة الغربية بكل أبعادها، ويزعم أنها الثقافة النهائية التي يتمحور حولها سير التاريخ، وعلى رأس هذا التيار الكاتب الأمريكي "فوكو ياما" في كتابه "نهاية التاريخ".

٢ - تيار ماركسي ينقسم في اتجاهين:

أ - اتجاه يعتبر تجربة الاتحاد السوفياتي فاشلة لعدد من الأسباب، لكن الفكر الماركسي يبقى عنده فكراً جديراً بالاعتبار والتبني.

ب - اتجاه مثالي طوباوي، لم يستفد من تجربة الاتحاد السوفياتي، يعتبر أن ماحصل ليس أكثر من مؤامرة امبريالية أمريكية صهيونية نجحت، وأن الطروحات اللينينية صحيحة، صحة تكاد تكون مطلقة.

٣ - تيار سلفي ديني، ليس مقتصراً على عالمنا العربي والاسلامي كما يحلو للبعض أن يتصور ويصور، بل هو عالمي شامل أيضاً (السيخ في الهند ، والأصولية الأرثوذكسية في روسيا..)[١] .

---

(١) انظر كتاب (يوم الله ـ الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث) لمؤلفه جيل كيبل ، طبعة ١٩٩٢ دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث.

ومايهمنا هنا بالذات، هو هذا التيار في الوطن العربي حصراً، وماهو المطلوب منا تجاه الأحداث العالمية، التي تؤثر فينا سلباً أو ايجاباً، وأين هو موقع الحداثة في الوطن العربي، وبخاصة حين ينظر الكثيرون إلى مشروع الحداثة نظرتهم إلى مشروع خان وعوده !!

فإذا ما نظرنا إلى ماطرحته هذه التيارات في الوطن العربي من مشاريع حداثة، نجد أنه ينقسم إلى قسمين :

١ - قسم مجدد بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، حاول دفع الاسلام إلى ما اعتقد أنه مواكبة للوضع الحضاري العالمي السائد آنذاك ، لكنه انطلق من مسلمات وردت في التراث الديني، وتم ترسيخها كشكل وحيد مطلق من أشكال فهم الأصلين العظيمين في الاسلام : التنزيل و السيرة النبوية الشريفة.

٢ - قسم طرح الحداثة والتجديد تحت شعارات قومية وماركسية، واستعار منطلقاته من ثقافات شعوب قائمة بأنظمتها، بغض النظر عن بنيتها الثقافية والاقتصادية والسياسية.

ونشم بوضوح روائح الاستبداد تعبق في طروحات القسمين سواء بسواء، فكل منهما يزعم أنه يملك الحقيقة المطلقة، لامجال لديه للحوار، ولامكان عنده للرأي الآخر. الثورة عند كليهما جاءت لتقضي على الآخر وليس للاعتراف به، وجاءت لتستبدل مستبداً بمستبد آخر، وبخاصة بعد أن تم القضاء، بالكامل، على الليبرالية البورجوازية الوطنية، التي نشأت مع بدايات القرن العشرين، حيث حل محلها بورجوازية ريعية غير وطنية في بعض الأقطار العربية .

لقد استبعد أصحاب القسم الثاني الدين من مشروعات الحداثة باعتباره تراثا رجعيا، يعرقل بل ويناقض مسيرة التحديث. لكنهم لم ينتبهوا إلى أنهم باستبعاد الدين،

استبعدوا الأخلاق. وغفلوا عن أن القانون الأخلاقي جزء لايتجزأ من الدين، وأن الأخلاق قوانين كونية لاعلاقة لها بعرب أو عجم.

والتقى أصحاب القسم الأول مع أصحاب القسم الثاني، بالمحصلة، في استبعاد الأخلاق من مشاريع التجديد والتحديث لديهم، بل مضوا إلى أكثر من ذلك، فاستبعدوا الاحسان والعمل الصالح من أركان الاسلام وأركان الايمان التي تم تأسيسها كما يلي:

أركان الاسلام : يبنى الاسلام عند أصحاب التيار السلفي، على خمس :

١ - شهادة أن لاإله إلا ا لله، وأن محمدا رسول ا لله.

٢ - إقامة الصلاة.

٣ - إيتاء الزكاة.

٤ - صوم رمضان.

٥ - حج البيت من استطاع إليه سبيلا. (وقد يتقدم الحج على الصوم في كتب أو يتأخر عنه في كتب أخرى.)

أركان الايمان : ويبنى الايمان عندهم على خمس :

١ - الايمان با لله.

٢ - وملائكته.

٣ - وكتبه ورسله.

٤ - واليوم الآخر.

٥ - والقضاء والقدر خيره وشره.

وإذا كنا لانعجب من عمل أصحاب القسم الثاني، ولانستنكره، ونرى طبيعياً أن يدعوا إلى فصل الدين عن الدولة بل وعن الحياة ، وأن يروا في الدين أفيوناً ، وتراثاً متخلفاً يستوجب الخجل منه، طالما أنهم ينطلقون في مشروعات التحديث من خارج

الثقافة العربية الاسلامية، ويفترضون أن العربي المسلم إنسان بلا ثقافة ولاأرضية، وعليه أن يقبل ما يقدم له مباشرة، وإلا فهو رجعي أصولي متخلف، ومتدين متشنج حاقد.

نقول إذا كنا لانعجب أو نستنكر فعل هؤلاء ، ونحن نرى ونعي منطلقهم وأرضيتهم، فنحن نعجب ونستنكر مافعله أصحاب القسم الأول ، باسم الدين وباسم التنزيل الحكيم وباسم السيرة النبوية، التي يزعمون أنهم ملكوا الحقيقة المطلقة فيها فهماً وتطبيقا.

لقد قامت الطروحات السلفية عند أصحاب القسم الأول، على الاختزالات التالية :

- اختزال التاريخ.
- اختزال الجغرافيا.
- اختزال سكان العالم.
- اختزال مشاكل سكان العالم وحلولها.

فما تم في شبه جزيرة العرب بالقرن السابع الميلادي هو الاسلام إلى أن تقوم الساعة. وعليه يقاس كل شيء حتى الأخلاق والأعراف.

وما تم تاريخياً في يثرب خلال عشر سنوات، ينسحب على كل قارات الكرة الأرضية من القطب إلى القطب.

والبشر منذ أن بعث الرسول (ص) إلى أن تقوم الساعة هم سكان شبه جزيرة العرب في فترة البعثة النبوية.

ومشاكل البشر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية هي ذاتها مشاكل أهل شبه جزيرة العرب في فترة البعثة النبوية ، والحل في هذه هو ذات الحل في تلك، باعتباره الحل الشرعي الاسلامي الأوحد.

الأمر الذي تحول معه اللباس ومعيار النظافة في ذلك الوقت إلى شرع، واندمجت الأعراف والتقاليد بالحرام والحلال، وتحولت الثقافة برمتها إلى دين !!

هذه الاختزالات عكسها محمد بن ادريس الشافعي في كتابه "الرسالة"، الذي حدد فيه أصول الفقه الاسلامي، ومازالت هذه الأصول هي المعتمدة عندنا. وإلغاء هذه الاختزالات يجعل أصول الفقه التي وضعها الشافعي بحاجة إلى إعادة نظر. ولكن مادامت هذه الأصول قائمة، فستبقى أطروحة "باب الاجتهاد المفتوح" شعاراً وهمياً، يطلق على المنابر للتسويق والدعاية الجماهيرية، دون أي مجال تطبيقي.

وارتبطت هذه الاختزالات كلها عندهم بتقديس النص التراثي(١) ، وبتقديس أصحاب النصوص التراثية، منطلقين من أن أهل القرون الأولى، لم يتركوا للناس حتى قيام الساعة مايقولونه، فهم الأتقى والأفقه إطلاقاً. ومن هنا فهم يعتبرون المرجعية الأساس الوحيد لكل من يريد أن يقول شيئاً. حتى أن المرء لايحق له عندهم أن يقول، إلا إذا كان أحد "المقدسين" سبقه إليه، وإلا فهو مبتدع عميل مرتد يحاول كذا ويستهدف كذا.

ولكن إذا كان يحق لأبي الهول أن يسأل الداخلين إلى المدينة، ويلتهمهم إن لم يجيبوا، كما تقول الأسطورة، أفلا يحق لنا نحن أن نسأل أبا الفقه (الشافعي)، من أين جاء بما جاء به ؟ علماً بأننا لانضع تحت التساؤل حسن النوايا والتقوى والعبقرية.

إذا كانت خطورة الطروحات الماركسية، عند أصحاب القسم الثاني، تنبع من أنها جاءت مستعارة من خارج الثقافة العربية الاسلامية، ومن أنها استبعدت الدين، بما فيه جانبه الأخلاقي، فإن الطروحات المرجعية السلفية أشد خطراً على الفكر العربي

---

(١) ـ أينما وردت كلمة التراث عندنا، فنحن لانعني بها التنزيل الحكيم، لأن التنزيل عندنا وحي وليس نصا تراثيا، فالتراث صنع إنساني بشري أما التنزيل فمن عند الله.

الاسلامي، لزعمها أنها تأتي من داخل ثقافة هـذا الفكـر، ولأنهـا حـافظت علـى الديـن بشـكله، وبشـعائره، فاسـتبعدت بجبريتهـا المتطرفـة العمـل الصـالح، ووضعـت القـانون الأخلاقي في مرتبة ثانوية من سلم الأولويات.

نحن لانجد مبرراً لنسأل أصحاب القسم الثاني عـن سبب فعلهـم هـذا، طالمـا أن أصول الثقافـة ليسـت موحـدة بيننـا وبينهـم، علمـاً بأننـا لانشـكك إطلاقـاً في نوايـاهم المخلصة ووطنيتهم الصادقة، ولانقول بأن كل ماطرحوه يقع في هامش الخطأ والبـاطل. فهناك الكثير من الايجابيات في طروحـاتهم، ومـع ذلـك لم تـأت أكلهـا وثمارهـا، لأنهـا جاءت من خارج الثقافة العربية الاسلامية.

فمن الواضح المسلم به، أن الطروحات القومية مازالت أساسية لنا نحـن العـرب، وأنـا واحـد مـن المتمسـكين بعروبتهـم، إلا أن الطروحـات القوميـة بحاجـة إلى تجديـد، فنظرياتها الغائبـة عـن السـاحة أقـرب إلى الرومانسـية منهـا إلى العلميـة. نحـن نقـول إن الوحدة العربية هدف سياسي أساسي لكل عربي، ولكننا نضيف إن الإطـار الرومانسـي الذي طرحت من خلاله في الخمسينات من هذا القرن، يحتاج إلى تأسيس نظـري أعمـق وأشمل.

أما بالنسبة لأصحاب القسم الأول، فإن لدينا أكـثر مـن مـبرر لنسـألهم مـن أيـن جاؤوا بما جاؤوا به، طالما أننا وأنهم ننطلق من أساس الأسس، وأصل الأصـول، التـنزيل الحكيم والسيرة النبوية.

الأصول بيننا وبين أصحاب القسم الأول واحدة، لكننا نختلف عنهم بأننـا نزعنـا عن عيوننا نظارة الشافعي، وسمحنا لأنفسنا بأن ننظر إلى التنزيل الحكيم بعيون معاصرة، لابعيون مستعارة، دون مساعدة أحد أو تأطير مسبق من أحد.

لقد حاولنـا في القسـم الأول مـن هـذا الكتـاب أن نلقـي الضـوء علـى الإسـلام والإيمـان، كمـا وردا في آيـات التـنزيل الحكيـم، وعلاقتهمـا بـالأخلاق والديموقراطيـة.

فأفردنا الفصل الأول منه لشرح أركان الاسلام وأركان الإيمان، وللتفريق بين المسلمين والمؤمنين، كما فرقت بينهم آيات التنزيل الحكيم، ولتعريف الاحسان والعمل الصالح، وتوصلنا إلى منظومة القيم والمثل العليا (القانون الأخلاقي) وعلاقتها بالديموقراطية والثقافة. واكتشفنا خلال ذلك كله، أن ماتم تقديمه لنا على أنه أركان الاسلام غير صحيح، ولايتطابق البتة مع التنزيل الحكيم. وأن الركن الصحيح من بينها هو ركن الشهادة الأولى (شهادة أن لاإله إلا ا لله)، أما الشهادة بأن محمداً رسول ا لله، وأما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فهي من أركان الإيمان وليس من أركان الاسلام. إن إعادة تسمية الأشياء بأسمائها، وتبيان أركان الاسلام وأركان الايمان كما أوردها التنزيل الحكيم، جعلنا نفهم بوضوح كيف أن الاسلام بدأ بنوح وختم بمحمد (ص)، مرورا بإبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى. وأنه هو الدين السماوي الوحيد الذي عرفته البشرية وجاء به الرسل على اختلاف رسالاتهم. فالمسلمون من عهد نوح، هم من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فمن آمن منهم بعد ذلك بملة إبراهيم كان حنيفاً، ومن آمن بموسى كان من الذين هادوا، ومن آمن بعيسى كان من النصارى، ومن آمن بمحمد (ص) كان من المؤمنين.

من هنا نفهم كما قلنا، كيف أن الاسلام بدأ بنوح وختم بالرسول الكريم (ص)، وخضع للتطور والتراكم المعرفي والانتاجي عند الانسان، فبدأ التوحيد مشخصاً ليتطور إلى مجرد. وبدأت القيم العليا الأخلاقية بـ " رب اغفر لي ولوالدي" لتشمل مع خاتم الأنبياء والرسل جميع مناحي الحياة، وتوصلنا إلى القول بأن الاسلام فطرة، والايمان تكليف.

لقد قادنا النظر في أركان الاسلام، كما وردت في التنزيل الحكيم، إلى أن نرى بوضوح كيف تم استبعاد العمل الصالح منها، وقادنا النظر في أركان الايمان، إلى أن نرى بوضوح كيف تم إغفال الاحسان فيها. وتبين لنا أن هناك تكاليف للايمان غير

واردة في أركان الايمان التي سميت خطأ أركان الاسلام، وهي الشورى والقتال في سبيل الحرية والوطن، لأنها أيضا تكليف مخالف للفطرة.

ثم شرحنا مفهوم المجرمين، وتبين لنا أن معظم أهل الأرض مسلمين، وأن الدين الاسلامي لاعلاقة له بالقومية، وإنما بالانسانية ككل، بغض النظر عن التسميات التي نطلقها على المجموعات الانسانية ذات الملل المختلفة. فالاسلام دين عالمي ينسجم مع العرب والعجم، بغض النظر عن القومية والعرق، أو أي تصنيف آخر. والعرب معظمهم مسلمون مؤمنون، من أتباع محمد (ص)، ومنهم نصارى، من أتباع عيسى، ومنهم يهود، من أتباع موسى، وكلهم عرب. وهناك مسلمون مؤمنون من غير العرب، لايضرهم ذلك في شيء، ويعيشون في دول أخرى غير الدول العربية، ذلك لأن الاسلام ميثاق الانسانية (المثل العليا)، وأبرز أساساته حقوق الانسان وعلى رأسها الحرية.

ثم شرحنا مفهوم الكتاب والوصية والفريضة والموعظة، وأضفنا إلى موضوع الارث بعض التفصيلات، واقترحنا فقها جديدا للإرث، وتم جدولة أركان الاسلام وأركان الايمان في نهاية هذا القسم، وتبين لنا أن (فعل الخير) من أركان الاسلام، وأن الزكاة من أركان الايمان، وهناك تقاطعات فيما بينها.

جاء الفصل الاول من القسم الثاني تحت عنوان "العباد والعبيد"، بحثا مستفيضا حول الحرية الإنسانية، والحرية والرق، والثواب والعقاب، واستنتجنا أن التنزيل الحكيم لم يعترف بالرق، بل سخر منه ووضع من شأنه، وأن الحرية الانسانية في التنزيل تكمن في "عبادية" الانسان لله، أما الرق فهو "العبودية" لغير الله في الحياة الدنيا. وشرحنا مفهوم الميثاق، وميزناه عن الدستور والقانون، وأن كلمة الله التي سبقت لكل الناس هي الحرية. وأن الإسلام ميثاق بين الله والناس، ومثل عليا لكل مجتمع إنساني متحضر وعلى رأسها الحرية. واستنتجنا أن العبادات من أركان الاسلام، وأن إقامة الصلاة وصوم رمضان وحج البيت هي شعائر من أركان الايمان لاعلاقة لها بالعبادات.

ثم بينا تحت عنوان "أين يعبد الله"، أن العبادات لاتكون في المساجد والكنائس والبيع، فهذه بيوت لذكر الله، وإقامة الصلوات، أما عبادة الله فلا تكون إلا خارجها.

بحثنا في الفصل الثاني مفهوم الشاهد والشهيد، وتبين لنا أن هذا المفهوم له علاقة بنظرية المعرفة الانسانية، وبمناهج المعرفة ونظمها، وأن مصطلح الشهيد لاعلاقة له بالأصل، بالذين يقتلون في الحرب في سبيل الله أو في سبيل غير الله، وأن هذا المصطلح استعمل كشعار سياسي لسوق الناس إلى القتال، ولاعلاقة لذلك بالتنزيل الحكيم.

أما الفصل الثالث فقد خصصناه لبحث مفهوم الأبوين والوالدين، طبقا لما جاء في التنزيل الحكيم، وطبقا لمعارفنا المعاصرة، وتبين لنا أن التبني مباح، وأن التنزيل الحكيم حدد شروط صحته وبطلانه، مما يؤثر على مابين أيدينا مطبقا من قوانين الارث والتبني، ويفتح المجال لوضع تشريعات جديدة في الارث والتبني.

وشرحنا في الفصل الرابع الذنب والسيئة، وفرقنا بينهما من واقع فهمنا لقوله تعالى ﴿ **إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ..** ﴾ النساء ١١٦ وقوله تعالى ﴿ **وما يؤمن أكثرهم با لله إلا وهم مشركون** ﴾ يوسف ١٠٦. وتم في هذا الفصل شرح تطور التوحيد على مر التاريخ من المشخص إلى المجرد. وأن إبراهيم أبو المسلمين لأنه أول من توصل إلى الإله الواحد المجرد غير المجسد (خالق السموات والأرض) وأن ماعداه متغير غير ثابت (حنيف) وأنه الباقي وحده وليس كمثله شيء.

وقدمنا في الفصل الخامس مفهوم الاسلام والسياسة،وهل الاسلام قابل للتسييس، وتبين لنا أن الاسلام غير قابل للتسييس، وعندما نفعل ذلك، نضيع الاسلام و السياسة معا.

لذا فإني أرجو القارىء الكريم، أن لايتسرع في الحكم على هذا الكتاب،إلا بعد قراءته، آملا أن يأتي الكتاب مساهمة متواضعة في فهم التنزيل الحكيم،ونحن شهداء العقد الأخير من القرن العشرين، شاهدي المعلومات التي توصلت إليها الإنسانية.

وأرجو أن أكون قد وضحت بشكل أفضل، مشكلة المعرفة والأخلاق والحرية والحداثة، كي يتسنى لنا نحن العرب دخول القرن الحادي والعشرين، مالكين لوعي معرفي واجتماعي وسياسي أفضل. وأن يكون القرن القادم قرن حرية العرب ووحدتهم، كي يشغلوا موقعا أفضل في صنع الحضارة الإنسانية، ويشاركوا في صنع القرار السياسي العالمي.

والحمد لله رب العالمين.

دمشق ـ ١١ نيسان ١٩٩٦ م.

٢٣ ذي القعدة ١٤١٦ هـ.

القسم الأول

الاسـلام والايمـان

القسم الأول:الاسلام والايمان

١_ الاسلام والمسلمون.

الاجرام و المجرمون.

٢_ الايمان و المؤمنون.

٣_ الاحسان و العمل الصالح.

٤_ الكتاب ، الفريضة ، الوصية ، الموعظة.

٥_ أركان الاسلام .

٦_ أركان الايمان .

ثمة العديد العديد من آيات التنزيل الحكيم، تجدنا فيها أمام مصطلحات هي: الإسلام / المسلمون، و الايمان / المؤمنون، والتقوى / المتقون، تقابلها في جانب آخر مصطلحات هي : الاجرام / المجرمون ، و الكفار / الكافرون، والشرك / المشركون.

ونفتح المعاجم والتفاسير وكتب الأصول، فتجدنا أمام خلط واضح بين الشرك والكفر والاجرام، وأمام ثنائية غائمة لاتفرق بين المسلم والمؤمن ، والاسلام والايمان ، وتجعل المسلمين مؤمنين والمؤمنين مسلمين والجميع أتباع محمد (ص).

١- الاسلام والمسلمون

نعود إلى التنزيل الحكيم، ونحن متفقون على أنه صادق خال من الحشو، لنقرأ فيه:

- ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ..** ﴾ الأحزاب ٣٥.
- ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات ..**﴾ التحريم ٥.
- ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ..** ﴾ الحجرات ١٤.

ونفهم من الآيات أمرين، الأول أن المسلمين والمسلمات شيء والمؤمنين والمؤمنات شيء آخر، والثاني أن الاسلام يتقدم دائماً على الايمان ويسبقه.

ونقرأ قوله تعالى :

الجن - ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ الجن ١٤.

إبراهيم - ﴿ ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما.. ﴾ آل عمران ٦٧.

يعقوب - ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ البقرة ١٣٢.

يوسف - ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ يوسف ١٠١.

سحرة فرعون - ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ الأعراف ١٢٦.

فرعون - ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ يونس ٩٠.

الحواريون - ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون﴾ آل عمران ٥٢.

نوح - ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلا على الله، و أمرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك .. ﴾ يونس ٧٢، ٧٣.

لوط - ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ الذاريات ٣٥، ٣٦.

ونفهم من الآيات، في تسلسلها أعلاه، أن الجن وإبراهيم ويعقوب والأسباط ويوسف وسحرة فرعون والحواريين ونوحا ولوطا، كانوا من المسلمين، وأن فرعون حين أدركه الغرق نادى بأنه منهم. وهؤلاء جميعا لم يكونوا من أتباع محمد (ص)، فالحواريون من أتباع عيسى (ع) وسحرة فرعون من أتباع موسى (ع).

ونفهم من هذا كله أن الاسلام شيء والايمان شيء آخر، وأن الاسلام متقدم على الايمان سابق له، وأن المسلمين ليسوا أتباع محمد (ص) حصرا. ونصل أخيرا إلى السؤال الكبير: إن كانت الشهادة برسالة محمد (ص)، والشعائر من أركان الاسلام، فكيف يصح إسلام فرعون وهو لم يلتق إلا بموسى (ع)، وإسلام الحواريين وهم لم يعرفوا سوى المسيح عيسى بن مريم، وإسلام غيرهم ممن أثبت التنزيل الحكيم إسلامهم فيما ذكرنا من آيات، وهم جميعا لم يسمعوا بالرسول الأعظم، ولم يصوموا رمضان، ولم يحجوا البيت ؟

لقد أقامت كتب الأصول والأدبيات الاسلامية أركانا للاسلام من عندها، حصرتها في خمس، هي التوحيد والتصديق برسالة محمد (ص) والشعائر، مستبعدة العمل الصالح والاحسان والأخلاق من هذه الأركان. فالتقت، دون أن تقصد، بالعلمانيين والماركسيين من أصحاب مشاريع الحداثة والتجديد، كما أسلفنا، ووقعت دون أن تقصد أيضا، فيما وقع فيه اليهود والنصارى !!

يقول تعالى في محكم تنزيله :

- ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ البقرة ١١١، ١١٢.

فاليهود يحصرون الجنة باليهود، وماعداهم في النار، والنصارى يحصرون الجنة

بالنصارى وماعداهم في النار، والتنزيل يعتبر ذلك كله أوهاماً منهم لابرهان عليها، ويصحح لهم أوهامهم بصراحة لالبس فيها، قائلاً إن الجنة يدخلها كل من (أسلم وجهه لله وهو محسن) .

وتأتي أركان الاسلام الموضوعة لتقول : لايقوم إسلام إلا على التصديق برسالة محمد (ص)، وعلى الصلاة والزكاة والصيام والحج . وهذا هو الاسلام الذي لايقبل الله، في زعمهم ، غيره، ولايدخل الجنة إلا أصحابه. ونسأل نحن : أليس هذا بالضبط ماقالته اليهود والنصارى، فتصدى لهم سبحانه في التنزيل ؟

لقد تم اعتبار الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت من أركان الاسلام. فإذا ما فتحنا التنزيل الحكيم، وجدناه يكلف المؤمنين بهذه الشعائر، وليس المسلمين. واقرأ معي قوله تعالى :

- ﴿ .. **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ النساء ١٠٣.
- ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، إن الله بما تعملون بصير** ﴾ البقرة ١١٠.
- ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** ﴾ النور ٥٦.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ..** ﴾ البقرة ١٨٣

إلى قوله تعالى :

- ﴿ .. **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ..** ﴾ البقرة ١٨٥.

ونجد أنفسنا أمام سؤال كبير : لماذا تم استبعاد الجهاد، والقتال، والقصاص، والشورى، والوفاء بالعقود والعهود، والعديد العديد من الأوامر والتكاليف، من أركان الاسلام، مع أن حكمها واحد في الآيات كحكم الصلاة والزكاة والصيام والحج ؟

ونقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل ا لله والذيـن آووا ونصـروا أولئـك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ الأنفال ٧٤.
- ﴿ **إنما المؤمنـون الذيـن آمنـوا بـا لله ورسـوله ثـم لم يرتـابوا وجـاهدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيل ا لله أولئك هم الصادقون** ﴾ الحجرات ١٥.
- ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. وا لله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ البقرة ٢١٦.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ..** ﴾ البقرة ١٧٨.
- ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شـورى بينهـم ومما رزقنـاهم ينفقون** ﴾ الشورى ٣٨.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ..** ﴾ المائدة ١.
- ﴿ **.. وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** ﴾ الاسراء ٣٤.
- ﴿ **ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ..** ﴾ الاسراء ٣٤.
- ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ..** ﴾ الاسراء ٣٥.
- ﴿ **ولاتقف ماليس لك به علم ..** ﴾ الاسراء ٣٦.
- ﴿ **ولاتمش في الأرض مرحاً ..** ﴾ الاسراء ٣٧.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا علـى أهلها ..** ﴾ النور ٢٧.

كما نجد أنفسنا، مع أركان الاسلام المزعومـــة الـتي تضـم الشـعائر فقـط، أمـام تحريف خطير لما ورد في التنزيل الحكيم. فالدين عنـد ا لله الاسـلام، لايقبل دينا غـيره .. ولكن الدين الاسلامي عند ا لله دين الفطرة الانسـانية الـتي فطـر سـبحانه الخلـق عليهـا، بدليل قوله تعالى :

- ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت ا لله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلـق ا لله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ الروم ٣٠.

ولابد أن تكون أركان هذا الاسلام، بدليل قوله تعالى، فطرية مقبولة، تتماشى بشكل طبيعي مع ميول الخلق. فهل الشعائر (إقامة الصلاة ـ الصوم ـ حج البيت ـ الزكاة) التي افترضوا أنها من أركان الاسلام، فطرية ؟ تتجه إليها النفوس والأرواح والعقول مدفوعة بفطرة الخلق ؟

لنأخذ الزكاة مثلاً، لنجدها ضد الفطرة الانسانية تماماً !! فالزكاة إخراج للمال وإنفاق له، بينما جبل الله خلقه على كنز المال وحبه، كجزء من أجزاء غريزة حب البقاء، يقول تعالى :

- ﴿ **وتحبون المال حبا جما** ﴾ الفجر ٢٠.
- ﴿ **.. ولكن البر من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه..**﴾ البقرة ١٧٧.
- ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد..**﴾ الحديد ٢٠.
- ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا** ﴾ المعارج ١٩ ـ ٢١.

ولننظر إلى الصوم كمثل آخر، لنجده يتعارض مع الفطرة، ومع غريزة حب البقاء، تعارضاً عمودياً !! فالأصل في الفطرة أن يأكل المرء حين يجوع، ويشرب حين يعطش، ويطلق للسانه العنان سباً وشتماً حين يغضب. أما الصوم فهو تهذيب لهذه الوجوه الوحشية البهيمية من الفطرة، وقمع لهذه الغرائز التي أوجدها الخالق في الخلق لحماية النوع والحفاظ على البقاء.

ثمة مثال ثالث، لم يرد عند واضعي أركان الاسلام،رغم أنه تكليف أمر الله به المؤمنين، هو القتال، في هذا المثال يوضح سبحانه ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ..** ﴾ البقرة ٢١٦، أن القتال كتب على المؤمنين كما كتب على الذين من قبلهم،

مما يذكرنا بآية الصوم (البقرة ١٨٣) التي تنص على أن الصيام كتب على المؤمنين كما كتب على الذين من قبلهم، ويذكرنا بأن الصلاة (كتاباً موقوتاً)، لكن البقرة ٢١٦ تزيد فتوضح بما لايقبل الشك بأن ا لله يأمر المؤمنين بالقتال وهو كره لهم.

صدق ا لله العظيم، فالقتال ضد الفطرة، والزكاة ضد الفطرة، والصيام ضد الفطرة .. وباختصار، الشعائر كلها ضد الفطرة .. ولو كانت من الفطرة لما أنزلها تعالى في محكم كتابه، وكلف المؤمنين بها تكليفاً، ولترك الخلق يؤدونها بفطرتهم دون أمر منه، تماما كما تمتنع البقرة عن أكل اللحم ، بفطرتها التي فطرها ا لله عليها.

لقد اقتصرنا حتى هذه السطور ، على دحض مزاعم واضعي أركان الاسلام الخمس، وعلى تنبيه القائلين بها إلى مخالفة ذلك للتنزيل الحكيم .. ولكن هل وضع التنزيل أركاناً للاسلام؟ .. وماهي ؟

ونقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ البقرة ٦٢.
- ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى ا لله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ فصلت ٣٣.
- ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره ..** ﴾ البقرة ١١٢.
- ﴿ **قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون** ﴾ الأنبياء ١٠٨.
- ﴿ **.. قال آمنت أنه لاإله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ يونس ٩٠.
- ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ..** ﴾ البقرة ١٢٨.
- ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ..** ﴾ النساء ١٢٥.

- ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هـدى ونـور يحكـم بهـا النبيـون الذيـن أسـلموا ....** ﴾ المائدة ٤٤.

من هذه الآيات وغيرها كثير، نفهم أن الاسلام هو التسليم بوجود الله ، وباليوم الآخر . فإذا اقترن هذا التسليم بالاحسان والعمل الصالح، كـان صاحبـه مسـلماً، سـواء أكان من أتباع محمد (الذين آمنوا) أو من أتبـاع موسـى (الذيـن هـادوا) أو مـن أنصـار عيسى (النصارى) أو من أي ملـة أخرى غير هـذه الملـل الثـلاث كالمجوسـية والشـيفية والبوذية (الصابئين).

فإذا قرأنا في ضوء مـا تقـدم قولـه تعـالى في أول سـورة البقـرة : ﴿ **الم * ذلـك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذيـن يؤمنـون بـالغيب ويقيمـون الصـلاة وممـا رزقناهم ينفقـون** ﴾ نفهـم أن الغيـب هنـا هـو الله واليـوم الآخـر، وأن العمـل الصـالح والاحسان هو أركان الاسلام.

فإذا فهمنا ذلك كله، رأينا منطقياً وطبيعياً أن يقول سبحانه إن الديـن عنـده هـو الاسلام، وأنه لايقبل ديناً غيره، إذ كيف يقبل الخالق من عباده ديناً هو غير موجود فيـه بالأصل.

وإذا فهمنا ذلك، ورأينـا هـذا، انتبهنـا إلى أن التـنزيل الحكيـم حـين يتكلـم عـن الايمان، وعن الذين آمنوا، فهو يتحدث عن نوعين من الناس، أو لنقل نوعين من الايمان، أولهما الايمان بالله واليوم الآخر، وهو الاسلام، ثانيهما الايمـان بمحمـد (ص) ورسـالته. ويدلنا على ذلك بشكل لايقبل اللبس ماورد في التنزيل الحكيم، وما سنعود إليه تفصيـلاً مع القول في الايمان.

رأينا حتى الآن أن التنزيل يضع للاسلام أركاناً ثلاثة هي:

- الايمان تسليماً بوجود الله.
- الايمان تسليماً باليوم الآخر (ولاحظ معي هنا أن التسليم باليوم الآخر

يعني ضمناً التسليم بالبعث). أي أن الإيمان با لله واليوم الآخر هي المسلمة التي لاتقبل النقاش عند المسلم.

وهذه هي تذكرة الدخول إلى الاسلام .

- العمل الصالح والاحسان. (انظر فصل الذنوب والسيئات).

ونتبين في هذه الأركان الثلاثة جانبين: جانب نظري بحت هو الايمان با لله واليوم الآخر، وجانب منطقي عملي هو العمل الصالح والاحسان. إذ لامعنى للايمان النظري دون سلوك عملي ينعكس فيه ويتجلى من خلاله، ومن هنا نفهم قول الرسول الأعظم، إن صح، : الخلق عيال ا لله، أحبهم إلى ا لله أنفعهم لعياله.

-الاجرام و المجرمون

فإذا أردنا تعميق فهمنا للاسلام والمسلمين في التنزيل الحكيم، فما علينا إلا أن ننظر في تعريف المصطلح المضاد للاسلام وهو الاجرام، والمصطلح المضاد للمسلمين وهو المجرمين في قوله تعالى :

- ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون** ﴾ القلم ٣٥، ٣٦.

لقد ورد الأصل "جرم" ومشتقاته ٦٨ مرة في التنزيل الحكيم. وهو أصل واحد في اللسان العربي يعني القطع . ومنه سميت الأجرام السماوية أجراماً لأنها منفصلة مقطوع بعضها عن بعض. ومنه جاء قوله تعالى : ﴿ **لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون** ﴾ النحل ١٠٩، أي أن خسارتهم في الآخرة أمر مقطوع مبتوت به.

وإذا كان المصطلح القانوني المتداول اليوم، يسمي السارق والقاتل والغاصب مجرماً، فإن الأصل في ذلك أن المجرم هو الذي قطع صلته بالمجتمع وقوانينه وانطلق يجري على هواه. تماما كالمجرم في التنزيل الحكيم، الذي قطع صلته با لله، فأنكر وجوده، وكفر باليوم الآخر، وكذب بالبعث والحساب. وهو مانطلق عليه بمصطلحنا المعاصر اسم "الملحد".

ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ .. ولايسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ القصص ٧٨.
- ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ يس ٥٩.
- ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ الروم ١٢.
- ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ الرحمن ٤١، ٤٢، ٤٣.
- ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ النمل ٦٩.
- ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين ﴾ المرسلات ١٨، ١٩.

ونحن هنا مع الآيات أمام صور تصف مجرمين ينكرون البعث، ويكفرون بوجود الله، ويكذبون باليوم الآخر، قاموا من أجداثهم بعد نفخة الصور الثانية، فرأوا رأي العين ماكانوا يكذبون بوجوده، فبهتوا دهشة، وبان ذلك على وجوههم، إلى حد لايحتاجون معه إلى سؤال وجواب، فهم يؤخذون بدلالة ما ارتسم على وجوههم، ليصلوا النار التي كانوا بها يكذبون.

أما لماذا لايسأل المجرمون عن ذنوبهم ، فسببه واضح تماما. أولاً لأن المجرم إنسان ملحد لايؤمن بوجود الله، وهذا وحده كاف لأن يعطيه تذكرة مرور إلى جهنم دونما حاجة إلى ميزان أو حساب ، إذ ليس له بالأصل أي حساب مفتوح عند الله بحكم قطعه لصلته به . ثانياً لأن الذنوب مع الله كترك الصلاة و إفطار رمضان و إخسار الكيل وتطفيف الميزان، ذنوب قابلة للأخذ والرد والتكفير والمغفرة، لو أن صاحبها آمن مبدئيا بالله واليوم الآخر. أما مع المجرم فلا حاجة للسؤال عن الذنوب، وقد تحقق الاجرام بالكفر بالله والتكذيب بيوم الدين، وقطع الصلة مع الله واليوم الآخر.

ومن هنا .. من قولنا بقطع الصلة .. نفهم قوله تعالى:

- ﴿ **إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ماسلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين** ﴾ المدثر ٣٩ ـ ٤٦.

الصورة هنا لأصحاب اليمين في الجنة، يسألون المجرمين ماذا أوصلكم إلى النار؟ فيجيب المجرمون : لأننا لم نعتنق الاسلام نظرياً وعملياً. لم نسلّم بوجود الله فقطعنا صلتنا به ﴿**لم نك من المصلين**﴾ ولم نسلّم باليوم الآخر ﴿**وكنا نكذب بيوم الدين**﴾، ولم نقدم عملاً ينفع الخلق ﴿**لم نك نطعم المسكين**﴾ بل عملنا مايسيء ويضر ﴿**وكنا نخوض مع الخائضين**﴾ ، إلى أن رأينا يقيناً كل ذلك حاضراً، فانتهينا إلى ماترون.

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المصلين في الآية هم مقيمو الصلاة. إلا أننا حين رجعنا إلى آيات التنزيل الحكيم، لم نجده يطلق اسم المصلين على القائمين بالصلاة. هذا من جهة، من جهة أخرى ترك الصلاة أو الصيام لاعلاقة له بالايمان بالله واليوم الآخر، ومرتكبوها ليسوا مجرمين، بحيث ينطبق عليهم وصف التنزيل الحكيم. نقول هذا ونحن نستذكر قوله تعالى : ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدعّ اليتيم * ولايحضّ على طعام المسكين * فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون * ويمنعون الماعون** ﴾ سورة الماعون. فالشبه كبير بين سورة المدثر وسورة الماعون، لأن التكذيب بيوم الدين كالكفر بوجود الله، يخرج الانسان من دائرة الاسلام إلى دائرة الاجرام، ولهذا فنحن أميل إلى أن المقصود في السورتين بالمصلين، هو الصلة وليس الصلوة، وأميل في فهم الآيات على النحو الذي أسلفناه، لأن لنا في الصلاة (بالألف) والصلوة (بالواو) قولاً نفصله ثم نعود إلى ماكنا فيه(١) .

---

(١) لقد رأينا أن من الضروري توضيح معنى الصلاة، جرياً وراء التوفيق ورفع اللبس بين قوله تعالى في سورة الماعون ﴿ **فويلٌ للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ واعتبار هذا القول موجهاً للمتقاعس عن أداء =

الصلاة بأوقاتها، كما ترى كتب التفسير، وبين قوله تعالى في سورة المرسلات **﴿ويل يومئذ للمكذبين * .. * كذلك نفعل بالمجرمين﴾**.

واللبس يتلخص في أن الله سبحانه يتوعد المؤمن المتقاعس عن الصلاة بالويل (وهو واد سحيق من وديان جهنم) ، ويتوعد به في ذات الوقت المجرمين المكذبين. ومن المستحيل أن يستوي في عدل الله سبحانه المسلم المؤمن المقصر في أداء الشعائر، والمكذب المجرم الكافر بوجود الله والمنكر للبعث ولليوم الآخر، وهو الذي يقول في محكم تنزيله:

- **﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون ﴾** القلم ٣٥، ٣٦.

والحل في رأينا، يكمن في مفهوم الصلاة ذاتها. فقد وردت الصلاة في التنزيل الحكيم بمعنيين محددين يختلف أحدهما عن الآخر في الشكل، ويلتقي معه في المضمون، فالصلاة في الحالتين صلة بين العبد وربه أساسها الدعاء. ولكن هذه الصلة أخذت منذ ابراهيم شكلين هما:

١ ـ صلة بين العبد وربه قالبها الدعاء، لاتحتاج إلى إقامة وطقوس، يؤديها كل إنسان له بالله صلة على طريقته الخاصة. (وقد وردت في التنزيل الحكيم "الصلاة" بالألف).

٢ ـ صلة بين العبد وربه، لها طقوس وحركات محددة خاصة بها، كالقيام والركوع والسجود والقراءة، وتحتاج إلى إقامة، أي على الانسان أن يقوم ليؤديها. (وقد وردت في التنزيل الحكيم "الصلوة" بالواو). وهي من شعائر الإيمان.

فإذا أردنا أن نفرق بين كل من هذين المعنيين في التنزيل الحكيم، فما علينا إلا أن ننظر في قوله تعالى :

- **﴿رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾** النور ٣٧. هنا الصلوة (بالواو).

وفي قوله تعالى :

- **﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون ﴾** النور ٤١. هنا الصلاة (بالألف).

ونلاحظ أن الصلوة وردت في الآية الأولى بالواو، وبعد فعل الإقامة، ونفهم هنا أنها بمعنى القيام والركوع والسجود، أما في الآية الثانية، فقد وردت الصلاة بالألف (صلاته)، والحديث فيها عن الطيور. ولما كنا نعلم أن الطيور لاتقيم الصلوة الطقسية المحددة بالركوع والسجود والقيام والقعود، فإننا نفهم أنها هنا بمعنى الصلة مع الله. وهي صلة تسبيح ودعاء يعلمها الطير ولانعلمها نحن، لولا أن أخبرنا تعالى بها وبوجودها. =

نخلص إلى أن التنزيل الحكيم قد ميز في النطق سماعاً من جبريل وفي الخط كتابة بعد التدوين، بين الصلوة والصلاة. ليدلنا على وجوب تمييز المعنى المقصود من الأولى وأنها القيام والقعود والركوع والسجود، والمعنى المقصود من الثانية وأنها صلة تسبيح ودعاء تنبع من إقرار بوجود صلة بين العبد وربه.

فإذا وقفنا أمام قوله تعالى :

-﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ الأحزاب ٥٦.

وفهمنا أن فعل " يصلون " وفعل " صلوا " هو من الصلوة ، يصير معنى الآية أن الله وملائكته يقومون ويقعدون ويركعون ويسجدون على النبي، سبحانه وتعالى علواً كبيراً. وأن على الذين آمنوا أن يركعوا ويسجدوا أيضاً على النبي .

ولكن الفعلين في الآية من الصلاة، أي الصلة، فيصبح معنى الآية أن هناك صلة بين الله وملائكته من جهة، وبين النبي من جهة ثانية، وأن الله يطلب من المؤمنين أن يقيموا صلة بينهم وبين النبي، قال بعضهم إنها الدعاء. وأنا أرى أنها أكثر من ذلك، ففي أذان الصلوة ذكر لله والرسول، وفي القعود الأوسط والأخير ذكر للنبي ولإبراهيم. ذكر النبي لأنه أبو المؤمنين، وذكر إبراهيم لأنه أبو المسلمين.

وأرى أن الله وملائكته يصلون على النبي، والمطلوب منا نحن أن نصلي عليه ونسلم. ومن هنا فإن من الخطأ الفاحش أن نقول " اللهم صل وسلم على محمد " أو أن نقول " صلى الله عليه وسلم " لأن الله يصلي على النبي ولايسلم، والمطلوب منا نحن أن نصلي ونسلم.

فالقاسم المشترك بين الله وملائكته من جهة، والمؤمنين من جهة أخرى هو الصلاة على النبي، إلا أن ثمة خصوصية للمؤمنين فقط هي التسليم، ولهذا قال **﴿..وسلموا تسليما ﴾** و لم يقل (وسلموا سلاما).

أي أن علينا نحن المؤمنين أن نسلم بوجود هذه الصلة بين الله وملائكته والنبي، وبيننا نحن وبين النبي. فالتسليم هو الإذعان والقبول بلا قيد ولا شرط، كما في قوله تعالى :

-﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ النساء ٦٥.

ولما كان لايليق بجلال الله أن يسلم تسليماً بالمعنى الذي ذهبت إليه آية النساء، فالصحيح كما أسلفنا أن نقول عند ذكر النبي " صلى الله وملائكته عليه " وليس "صلى الله عليه وسلم".

ولكي نفهم بوضوح أكثر، كيف أن فعل (يصلون) وفعل (صلوا) أتى من الصلاة وليس من الصلوة، علينا أن نعود لسباق آية الأحزاب وسياقها، ونقرأ قوله تعالى:

-﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ الأحزاب ٤١، ٤٢، ٤٣

الله وملائكته هنا يصلون على المؤمنين .. فهي ليست صلوة، بل صلة وصلاة عمودها الهدى وقائمها الرحمة.

ونتابع قوله تعالى :

-﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ الأحزاب ٥٦.

الله وملائكته هنا يصلون على النبي، باعتبار النبي من المؤمنين الذين خاطبتهم الآية ٤٣، ثم يأتي أمر الله للذين آمنوا أن يصلوا هم أيضا عليه ويسلموا تسليما.

ويقف المؤمنون حائرين .. لأن صلاة الله وملائكته على النبي هدى ورحمة، وهم لايملكون للنبي هدى ولايملكون له رحمة .. فكيف يصلون عليه ؟ .. وتتنزل الآيتان بعدها مباشرة :

-﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا** ﴾ الأحزاب ٥٧، ٥٨.

هنا اتضحت الصورة وتلاشت الحيرة وانكشف اللبس. فالله وملائكته يصلون على المؤمنين رحمة وهدى، ويصلون على النبي باعتباره من المؤمنين أيضا رحمة وهدى، وهذا كله منسوبا إلى الله ومن زاويته. أما من زاوية المؤمنين، فهم مأمورون بالصلاة على النبي. لكن النبي بالنسبة إليهم رسول، وإذا ما أمرت الآية ٥٨ بكف الأذى مطلقا وبكل أنواعه عن المؤمنين والمؤمنات والنبي من بينهم، فإن الآية ٥٧ تشير إلى أن إيذاءه كرسول أبلغ أثرا، وأشد عند الله عقابا، فالذي يؤذي الرسول يطرد من الرحمة (التي وردت في الآية ٤٣) في الدنيا والآخرة، ويتعرض لما أعده الله له من عذاب مهين. أما ماتورده كتب الأخبار من أن بعض الصحابة سأل رسول الله (ص) حين نزلت الآية، وتوهم أن المؤمنين مأمورون بصلوة الركوع والسجود على النبي، فليس عندنا بشيء.

لقد ورد الأصل (صلو) ومشتقاته في التنزيل الحكيم ٩٩ مرة، جاء لفظ (الصلوة) بالواو في ٦٧ موضعا منها. ونلاحظ في هذه المواضع أن الصلوة ارتبطت بالاقامة حينا وبالزكاة حينا أو دل سياق الآية بمعناها العام أن المقصود هو القيام والقعود والركوع والسجود، وليس الصلة. واقرأ معي قوله تعالى :

-﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ البقرة ٣.

-﴿ **وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلوة والزكاة مادمت حيا** ﴾ مريم ٣١.

-﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أنتم منتهون** ﴾ المائدة ٩١.

أما حين تأتي مضافة فنجدها حينا بالواو وحينا بالألف :

-﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم، إن صلوتك سكن لهم، والله سميع عليم** ﴾ = التوبة ١٠٣.

-﴿ **قل ادعوا ا لله أو ادعوا الرحمن، أيا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى، ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ الاسراء ١١٠.

لكنها في الحالتين لاتخرج عما ذكرنا . فالصلوة في التوبة، والصلاة في الاسراء هي الصلة بالدعاء ، كما هو واضح.

وكما أن فعل الصلاة والصلوة واحد، صلى / يصلي / صل / يصلون ، فكذلك الجمع منهما واحد. فالصلوات جمع الصلاة بمعنى الصلة، والصلوات جمع الصلوة بمعنى الركوع والسجود. يقول تعالى :

-﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون** ﴾ البقرة ١٥٧.

-﴿**ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند ا لله وصلوات الرسول ..** ﴾ التوبة ٩٩.

وهي هنا جمع الصلاة بمعنى الصلة.

-﴿ **حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾ البقرة ٢٣٨.

وهي هنا جمع الصلوة وهي الركوع والسجود. ومن المفيد أن نشير استطرادا إلى أن المقصود بالصلوة الوسطى في الآية، هي الصلوة المعتدلة الخاشعة المطمئنة التي تكاملت أركانها بلا إفراط ولاتفريط، وليست صلوة العصر كما يحلو لبعض المفسرين أن يزعموا.

فإذا سأل سائل عن قوله تعالى :

-﴿ **قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ..** ﴾ هود ٨٧.

-﴿ **الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق، إن ربي لسميع الدعاء * رب اجعلني مقيم الصلوة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء** ﴾ ابراهيم ٣٩، ٤٠.

وهذا يعني أن الصلوة بركوعها وسجودها وقيامها وقعودها كانت معروفة منذ ابراهيم .. فأين ضاعت هذه الصلوة و لم تصل إلى عهد النبي (ص) ؟ نقول ، لقد جاء جواب ذلك في سورة مريم بقوله تعالى :

-﴿ **أولئك الذين أنعم ا لله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا** ﴾ مريم ٥٨، ٥٩.

ونفهم هنا أن صلوة الركوع والسجود التي كانت عند ابراهيم واسماعيل وشعيب وعيسى وزكريا قد ضاعت عند الخلف من بعدهم، لكن صلاة الصلة با لله بقيت موجودة و لم تنقطع ، بدليل قوله تعالى عن مشركي العرب :

=

ونعود إلى سورة المدثر وإلى قوله تعالى ﴿ **قالوا لم نك من المصلين** ﴾.

لقد قلنا إننا نميل إلى اعتبار المصلين في الآية من الصلاة الصلة وليس من الصلوة الركوع والسجود، وذلك بدلالة ماسلف قوله، مضافا إليه أمرين:

١ - يقول تعالى في سورة المدثر الآية ٢٦ : (سأصليه سقر) . والمقصود هو الوليد ابن المغيرة، الذي أدبر واستكبر حين سمع التنزيل الحكيم، وقال إنه سحر من قول البشر.

والوليد بن المغيرة بحسب المصطلح القرآني مجرم كافر بوجود الله منكر ليوم القيامة مكذب بالبعث، والله سبحانه سيصليه سقر لهذا السبب. فحين يسأل أصحاب اليمين المجرمين ماسلككم في سقر .. فإن الوليد من بين هؤلاء المجرمين الكافرين بوجود الله المكذبين بيوم الدين !! ونرى من السطحية بمكان أن يجيب الوليد بأن سبب دخوله النار، هو أنه لم يكن من مقيمي الصلوة .. إذ لاتعد الصلوة بجانب الإجرام شيئا مذكوراً.

٢ - لاخلاف في أن سورة المدثر وسورة الماعون من السور المكية، بينما نزلت الصلوة في المدينة المنورة. فكيف يعقل أن يعتبر الوليد نفسه تاركاً لأمر لم يعاصر التكليف به، بل والأكثر من ذلك، أن يعتبرها أحد أسباب دخوله النار. علما أن في ذلك الوقت لم يكن الصحابة أنفسهم قد أقاموا الصلوة.

إن للمجرمين في التنزيل الحكيم صفات مميزة يعرفون بها :

﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ..** ﴾ لقمان ٢٥.

فالمشركون يعرفون أن الخالق هو الله، وعلى هذا فقد سماهم التنزيل مشركين و لم يسمهم مجرمين،

... عبادتهم للأصنام نوعا من الصلة مع الله في زعمهم، لقوله تعالى:

﴿ **الذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ..** ﴾ الزمر ٣.

١ - فهم لايخفون أنفسهم ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم ..** ﴾ الرحمن ٤١.

٢ - ويضحكون من المسلمين المؤمنين با لله واليوم الآخر ويستهزئون بهم ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ المطففين ٢٩.

٣ - وقطعوا كل صلة لهم با لله ، بدلالة تسميتهم مجرمين.

٤ - ليس لهم وقفة أمام ا لله في الآخرة، وليس لهم حساب مفتوح عنده، إذ ليس مع الاجرام ذنب ﴿ **.. ولايسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ القصص ٧٨.

٥ - المجرمون المكذبون المستهزئون حصة ا لله تعالى في الحياة الدنيا ، لقوله :

- ﴿ **فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لايعلمون**﴾ **القلم ٤٤**.

- ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ الحجر ٩٥.

وهذه الصفات التي اختاروها لأنفسهم، هي التي تدخل بهم إلى أعمق وديان جهنم، وتميزهم عن المسلمين المؤمنين الذين شاب صلوتهم المكتوبة سهو أو غفلة لسبب أو لآخر.

ونختم مقالنا بقولنا إن الاسلام لايتم إلا بالصلة با لله (الايمان با لله واليوم الآخر) وقد ورد ذلك في قوله تعالى ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لاشريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ الأنعام ١٦٢، ١٦٣.

نلاحظ في آيتي الأنعام أن الصلاة جاءت من الصلة وجاء في آخر الآية ذكر المسلمين. أما قوله ﴿ **.. وأنا أول المسلمين** ﴾ فتعني أن الإسلام الذي بدأ بنوح آل إلي أي انتهى بي وإلا فكيف يكون نوح من المسلمين وإبراهيم أبا المسلمين ثم يصبح محمد أول المسلمين؟ هنا الأول بمعنى النهاية والمآل. وهذا ينطبق مع قوله تعالى :

وأنا أول المسلمين ← اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا.

وأنا أول المسلمين ← ولكن رسول ا لله وخاتم النبيين.

كما ورد في سورة المعارج وهي مكية قوله تعالى :

- ﴿ **إن الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ المعارج ١٩ - ٢٣. وكذلك قوله تعالى:

- ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون** ﴾ المعارج ٣٣ - ٣٥. ونلاحظ أن الصلاة جاءت في الحالتين من الصلة وليس من الصلوة، لأن سورة المعارج من السور المكية.

نعود لنختم قولنا في الاسلام وأركانه، بوقفة لابد منها، تبين أسباب اختلاف ماوصلنا إليه من أركان للاسلام، عما هي عليه في كتب الأصول والأدبيات الاسلامية التراثية.

فلقد انطلقنا منذ كتابنا الأول(١) ، من منطلق إنكار الترادف في اللغة، فإذا كان الكتاب عندنا غير القرآن، والبعد غير النأي، والذهاب غير المضي، فالأحرى أن يكون الاسلام غير الايمان. ورغم أن الناقدين اللغويين - غفر الله لهم - وهموا فيما ذهبنا إليه، وبالغوا في سحب ماقلناه سحبا فاحشاً على مالم نقله، وحسبوا أننا حين ننكر الترادف ونفرق بين الكذب والافك والافتراء، فنحن نقول ضمناً بالتعارض العمودي بين هذه الألفاظ، وفاتهم أن نفي الترادف يقوم على الفروقات بين الألفاظ وليس على تعارضها وتضادها. فالجزم والجرم، والجز والحز، والبت والقط، والبتر والشطر، ألفاظ من خندق واحد، هو القطع، إلا أن بينها فروقات، إذا جاز لنا أن نغفلها أو نتغافل عنها في صحفنا ومجلاتنا فلا يجوز ذلك البتة ونحن نتدبر التنزيل الحكيم، وإذا كان غادر وبارح وترك، في مقام واحد متماثل .. وكان أنبأ مثل أخبر، فلماذا نسمي محمداً (ص) نبياً ولانسميه مخبراً ؟.

---

(١) - "الكتاب و القرآن / قراءة معاصرة " . دار الاهالي . دمشق ١٩٩٠ .

لكن كتب الأصول كلها ترسخ الترادف وتنطلق منه. فالامام البخاري يستهل "كتاب الايمان" في صحيحه بقوله :

١ - باب الايمان ، و قول النبي صلى الله عليه وسلم (بني الاسلام على خمس).

وتابعه من جعل للاسلام خمسة أركان، معتمداً على ماورد في هذا الحديث بالذات (رقم ٨ عند البخاري و ١٦ عند مسلم)، تاركا جملة من أركان أخرى، وردت في أحاديث أخرى نسوق أمثلة منها.

- إطعام الطعام خير أعمال الاسلام (رقم ١٢ البخاري).
- إفشاء السلام خير أعمال الاسلام (رقم ٢٨ البخاري).
- النصح من الاسلام (رقم ٥٨ البخاري).

وليس هذا فقط، بل تم ترك جملة من الأحاديث، تباينت فيها أركان الاسلام فزادت في أحاديث ونقصت في أحاديث، نسوق أمثلة منها :

- بايع جرير بن عبد الله الرسول (ص) على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم. (رقم ٥٧ البخاري).
- الاسلام أن تعبد الله ولاتشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. (رقم ٥٠ البخاري).
- دنا رجل يسأل عن الاسلام، فقال رسول الله (ص): خمس صلوات في اليوم والليلة .. وصيام رمضان .. وذكر له الزكاة. (رقم ٤٦ البخاري) (رقم ٨ مسلم).
- قال رسول الله (ص) : بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان. (رقم ٢١ مسلم).

ثم تابعه من جعل للايمان خمسة أركان معتمدا على ماورد في الحديث (رقم ٧ مسلم):

- قال رسول الله ما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، وتؤمن بالقدر كله. قال: صدقت.

تاركا جملة من الأحاديث التي زادت في الأركان حينا وأنقصت منها حينا آخر، وفي مقدمتها الحديث (رقم ٥ مسلم) :

- قال رسول الله ما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر.

وليس هذا فقط، بل ترك جملة من أركان الايمان الأخرى وردت في أحاديث أخرى، نسوق أمثلة منها :

- الايمان بضع وستون شعبة. (رقم ٩ البخاري).
- حب الرسول من الايمان. (رقم ١٤ البخاري).
- الحياء من الايمان. (رقم ٢٤ البخاري).
- الايمان هو العمل. وأفضل العمل : إيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وحج مبرور. (رقم ٢٦ البخاري) وانظر (رقم ٣٦ البخاري).
- صوم رمضان من الايمان. (رقم ٣٨ البخاري).
- قيام رمضان من الايمان. (رقم ٣٧ البخاري).
- الصلاة من الايمان. (رقم ٤٠ البخاري).
- اتباع الجنائز من الايمان. (رقم ٤٧ البخاري).
- أداء الخمس من الإيمان. (رقم ٧٣ البخاري).

وانطلقنا في كتابنا المشار اليه ، من منطلق أن التراث البشري الانساني يبقى تراثاً خاضعاً لما يخضع لـه التراث من عاديات التلف والضياع، واحتمال الغلط والسهو

والنقص، والتأثر بالأهواء السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن منطلق أن التنزيل الحكيم ليس تراثا، ولايخضع لما يخضع له التراث. فهو باق ثابت على مدار العصور، يحمل في داخله مايجعله صالحا لكل زمان ومكان.

لكن القائلين بتقديس التراث وأصحاب التراث، يصرون على أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويصرون على أن ينظروا في قصص الأنبياء والكتب التوراتية ليعرفوا كيف بدأ الخلق، بدلا من أن يسيروا في الأرض كما أمرهم التنزيل الحكيم.

وانطلقنا من منطلق أن التنزيل الحكيم هو أساس الأسس، وأصل الأصول، وأنه المحك المعياري الذي يجب أن تقاس عليه كل النصوص الأخرى. ودعونا إلى إعادة قراءته وتدبره وفهمه، قراءة معاصرة حديثة بعيدة عن كل قراءة مسبقة، ومرة أخرى وهم ناقدونا، فحسبوا أننا ندعو إلى نبذ التراث، وإلى رفض السيرة النبوية، وإلى الاقلال من قدر الأئمة السابقين. و لم يفهموا ـ غفر الله لهم ـ أن مجرد دعوتنا إلى التمسك بالتنزيل وفهمه وإعادة قراءته، تعظيم وتمجيد للرسول الأعظم الذي جاء به، صلى الله عليه وعلى آله وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- الايمان و المؤمنون

نبدأ القول في الايمان، فنقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **يأأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ..** ﴾ النساء ١٣٦.
- ﴿ **يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ....** ﴾ الحديد ٢٨.
- ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ..** ﴾ محمد ٢.

- ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم .. ﴾ الفتح ٤.
- ﴿ .. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ التوبة ١٢٤، ١٢٥.

ونلاحظ في الآيات الثلاث الأولى أن فعل آمنوا يتكرر مرتين في كل آية. فلماذا؟ ما معنى أن يخاطب تعالى الذين آمنوا، فيأمرهم بأن يؤمنوا با لله ورسوله .. إلا إذا كان هؤلاء لم يؤمنوا بعد برسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله ؟ وما معنى أن يأمر تعالى الذين آمنوا بأن يتقوا ا لله ويؤمنوا برسوله .. إلا إذا كان المخاطبون ليسوا من المتقين ، و لم يؤمنوا بعد برسوله ؟ وما معنى أن يأمر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يؤمنوا بما نزل على محمد .. إلا إذا كان هؤلاء لم يصدقوا بالرسالة المحمدية بعد؟

ولانحتاج مع هذه الآيات إلى تأمل كثير، لربط دلالاتها مع ما قلناه عن الاسلام والمسلمين، فإذا فهمنا أن الاسلام هو الايمان با لله واليوم الآخر والعمل الصالح، فهمنا أن المقصود بالذين آمنوا في الآيات الثلاث هم الذين آمنوا بـا لله واليوم الآخر والعمل الصالح، وأن ا لله يطلب منهم أن يؤمنوا برسوله محمد وما نزل على محمد.

هنا يتضح ما قلناه من أن في التنزيل ايمانين، ونوعين من المؤمنين. وأن في التنزيل كفرين مقابلين لهما وردا في قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن ا لله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ النساء ١٣٧. ونفهم أن المسلم قد يكون مؤمنا وقد لايكون، أي أن المؤمن با لله واليوم الآخر والعمل الصالح، قد يكون مؤمنا بالرسالة المحمدية وقد لايكون، لكن لابد للمؤمن من أن يكون مسلما أولا.

ونأتي إلى الآيتين الرابعة والخامسة، لنجد أنهما تتحدثان أيضا عن إيمانين، وليس عن إيمان واحد يزيد و ينقص كما وهم البعض ، حين فهموا من (فزادتهم إيمانا)

و (فزادتهم رجسا) أنها زيادة انصبت في إناء واحد هو الايمان، و لم يروا بأسا لتدعيم فهمهم هذا، بالاستشهاد بقول هرقل ملك الروم يرويه ابن عباس (رقم ٥١ البخاري). أما نحن فنرى الايمان إناءين، لايحتمل كل منهما بذاته الزيادة أو النقص، وشاهدنا في ذلك الآية الخامسة، التي تشبه الكفر بالمرض والايمان بالصحة، والصحة كالمرض لاتتجزأ ولا تزيد ولا تنقص. ونفهم من الآية الرابعة أن السكينة هي التنزيل الحكيم، وأن المومنين هم المؤمنون با لله واليوم الآخر والعمل الصالح الذين امتلأ إناؤهم الأول بهذا الايمان، ثم نزلت هذه السكينة لتضيف (مع) إنائهم الأول إناء مترعاً آخر بإيمان آخر هو الايمان بمحمد (ص) وكتابه.

فإذا ما عدنا إلى قوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ..**﴾ الحجرات ١٤، وإلى قوله تعالى ﴿**يمنون عليك أن أسلموا، قل لاتمنوا علي إسلامكم، بل ا لله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين**﴾ الحجرات ١٧. رأينا الربط واضحاً في الآية الأولى بين الاسلام والايمان، ورأينا الربط واضحاً في الآية الثانية بين الاسلام كإيمان أولي با لله واليوم الآخر والعمل الصالح، والايمان كايمان ثان بالهدى والحق والرسل والكتب السماوية.

في الآية الثانية يمن الأعراب على الرسول الأعظم أن أسلموا، فيأمره ربه أن يقول لهم : لاتمنوا علي إسلامكم . لماذا ؟

لأن الاسلام هو الفطرة، والفطرة هي الاسلام. فالفطرة التي توحي للنمل أن يدخل مساكنه كيلا تدوسه الأقدام، وتوحي للسلاحف أن تحفر على السواحل لتضع بيوضها، هي ذاتها التي توحي للانسان أنما إلهه إله واحد. ونقرؤ قوله تعالى:

- ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ الكهف ١١٠.
- ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ..** ﴾ النحل ٦٨.

ولما كانت الفطرة من صنع الله الذي فطر الناس عليها، فلا منة لأحد غيره فيها. وذلك واضح في قوله تعالى :

- ﴿ **ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك مايوحى** ﴾ طه ٣٧، ٣٨.

والفطرة لاتحتاج إلى رسالة سماوية ولا إلى تعليم، لكن الايمان من حيث هو شعائر، ومن حيث هو سلوك وعمل ، يحتاج إلى هداية وتعليم، والفضل فيه لله الذي أرسل الرسل بالهدى ونور الحق، يعلمون الناس الشعائر التي تقرب العباد من ربهم.

وهكذا نفهم أيضاً قوله تعالى عن الذين كفروا بمحمد (ص) بأن الإسلام هو الحد الأدنى المطلوب من الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ الحجر ٢.

من هنا نرى أن أركان الايمان لاتتضمن التسليم بوجود الله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فتلك أركان الاسلام كما أسلفنا التي يجب أن تتوفر في الانسان المتقدم من دائرة الاسلام إلى دائرة الايمان. يقول تعالى :

- ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين** ﴾ الأحقاف ١٥.

ونرى أن الانسان يتجه بفطرته بادىء ذي بدء إلى وجود الله الخالق، فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بأن لهذا الكون المخلوق نهاية، بعد ذلك يبحث عن الطريق إلى الله، للتعرف على مايريده ربه منه، فيصدق بكتبه ورسله التي ترسم له هذا الطريق، ويبدأ بتطبيق الوارد فيها.

وعلى هذا تصبح أركان الايمان بمحمد (ص) ورسالته تقوم على محاور، نلاحظ أنها توجهت جميعاً في التنزيل الحكيم إلى المؤمنين بالله واليوم الآخر والعمل الصالح :

- الايمان بمحمد (ص) وبما أنزل عليه.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد .. ﴾ محمد ٢.

- إقام الصلاة.

﴿ .. إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ النساء ١٠٣.

- إيتاء الزكاة.

﴿ قد أفلح المؤمنون * .. * والذين هم للزكوة فاعلون ﴾ المؤمنون ١، ٤.

- صوم رمضان.

﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام .. ﴾ البقرة ١٨٣.

- حج البيت.

﴿ .. و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .. ﴾ آل عمران ٩٧.

- الشورى

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم .. ﴾ الشورى ٣٨.

- القتال في سبيل الحرية ورفع الظلم ولاإكراه في الدين.

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. ﴾ البقرة ٢١٦.

بعد هذا كله نخلص إلى أن الاسلام أعم من الايمان، فهو دين عام انساني لكل أهل الأرض، ولهذا سمي الدين الاسلامي وليس الدين الإيماني. و لهذا أيضاً قال تعالى : (إن الدين عند ا لله الاسلام) وقال : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) . أما الايمان فخاص بأتباع محمد (ص)، ولهذا سماهم التنزيل المؤمنين، ولهذا أيضاً سمي عمر بن الخطاب أمير المؤمنين و لم يسم أمير المسلمين، وسميت زوجات الرسول أمهات المؤمنين وليس أمهات المسلمين، ونخلص إلى أن أركان الاسلام هي الايمان با لله واليوم الآخر والعمل الصالح (الأخلاق والمعاملات) وأن أركان الايمان هي التصديق بالرسل والرسالات والشعائر والشورى والقتال.

وأن الله أخبر رسوله في التنزيل الحكيم بأن كل أهل الأرض لن يكونوا مؤمنين، أي من أتباعه، ولايجوز إكراههم على ذلك بقوله تعالى ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ يونس ٩٩. ومن هنا نفهم الآية التي زعموا أنها تحوي أركان الإيمان وهي قوله تعالى ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن با لله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ البقرة ٢٨٥. هنا نلاحظ قوله المؤمنون جاءت بعد الرسول، وبما أن أتباع محمد (ص) هم المؤمنون قال (والمؤمنون كل آمن ..) وبما أن أركان الإيمان تكاليف ضد الفطرة جاءت الآية التي تليها تقول ﴿ **لايكلف ا لله نفسا إلا وسعها ..** ﴾ البقرة ٢٨٦.

وننتقل بعد أن تبين أمامنا الفرق بين الاسلام والايمان، لإزالة التناقض بين قوله تعالى : اتقوا ا لله حق تقاته، وقوله تعالى : واتقوا ا لله ماستطعتم. يقول تعالى:

- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا ا لله حق تقاته و لاتموتن إلا و أنتم مسلمون** ﴾ آل عمران ١٠٢.
- ﴿ **فاتقوا ا لله ما استطعتم و اسمعوا و أطيعوا و أنفقوا خيراً لأنفسكم ..** ﴾ التغابن ١٦.
- ﴿ **لايكلف ا لله نفساً إلا وسعها ..** ﴾ البقرة ٢٨٦.

ونفهم أن التقوى تكليف، ونفهم أن التكليف يتناسب مع الوسع والاستطاعة. ولكن بما أن الاستطاعات تتفاوت من انسان لآخر، فستأتي التقوى متفاوتة من إنسان إلى آخر، وهذا يتعارض مع الآية الأولى التي تأمر الذين آمنوا بأن يتقوا ا لله حق تقاته، أي بغض النظر عن الوسع والاستطاعة .. فما المخرج هنا ؟

والحل ببساطة يكمن في نهاية الآية الأولى وفي أولها. فهي تبدأ الخطاب موجهاً إلى الذين آمنوا، ولما كنا قد أسلفنا بوجود إيمانين في التنزيل، فأيهما المقصود هنا ؟

وتأتي نهاية الآية لتوضح أن المقصود هم المؤمنون با لله واليوم الآخر والعمل الصالح، أي المسلمون. أما الآية الثانية فموجهة إلى المؤمنين بمحمد (ص) ورسالته بما فيها من تكاليف.

إن المطلوب في تعاليم الاسلام أن تطبق حق تطبيقها كاملة :

أ - فليس هناك ايمان بوجود ا لله ما استطعنا ..

ب - وليس هناك ايمان نبذل فيه كل جهدنا بأن الساعة آتية ..

جـ - وليس هناك اجتناب لشهادة الزور وللغش في المواصفات على قدر الاستطاعة والوسع . كأن يأتينا من يقول إنه بذل جهده بألا يزني فلم يستطع .. أو أنه حاول وسعه بألا يقتل فلم يقدر .. فنقول له نحن أحسنت ، لأن ا لله لايكلف نفساً إلا وسعها.

من هنا نفهم أننا في القانون الفطري الأخلاقي (أركان الاسلام) ، نتقي ا لله حق تقاته، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله (ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون).

أما في أركان الايمان، فنتقي ا لله ما استطعنا **﴿لايكلف ا لله نفساً إلا وسعها..﴾**، لاحظ الآية قبلها كيف ذكرت (المؤمنون) **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .. ﴾**. فالمريض يعفى من الصوم لأنه لايستطيعه، والحج مربوط أساساً بالاستطاعة (من استطاع إليه سبيلا)، والقتال يسقط عمن لايستطيعه، والزكاة تسقط عمن لامال لديه، والشورى تطبق بحسب الامكانيات والتطور التاريخي الموجود إذ ليس ثمة شورى مطلقة، إنما هناك شورى الايمان بها مطلق والقتال من أجلها نسبي تاريخي، لأن أركان الإيمان تكاليف غير فطرية، لذا فهي تؤدى حسب الاستطاعة والوسع[1] .

---

(١) لعل من المفيد أن نشير إلى أمر قد يقف قارىء التنزيل الحكيم عنده، يخص الاستطاعة، هو هذه التاء التي نجدها أحيانا في فعل استطاع، ولانجدها أحيانا أخرى في فعل اسطاع. =

إذا نظرنا في كتب تدريس اللغة العربية لأطفالنا في المرحلة الابتدائية والاعدادية والثانوية، وجدناها تتحدث عن أحرف زائدة. فهناك (من) زائدة، و (لا) زائدة، و (ما) زائدة، و (باء) زائدة. ووجدناها تطلب من الطالب في بحثه عن الكلمة بالمعاجم أن يجردها أولا من أحرف الزيادة.

وإذا نظرنا في المعاجم، رأيناها تقول مثلا : استطاع الشيء واسطاعه : أطاقه وقدر عليه وأمكنه. أي أنها تعطي الفعلين معنى واحدا إلا أن علماء فقه اللغة قالوا بأن الألف والسين والتاء تعني الطلب (طلب الشيء).

ويفتح الطالب التنزيل الحكيم ليقرأ .. وهو يحمل في رأسه سلفا قاعدة تقول إن ثمة حروفا زائدة في العربية، لايتغير معنى الكلمة بوجودها أو بحذفها. وأن استطاع واسطاع فعلان، لهما دلالة واحدة .. فلا يستطيع أن يتصور كيف يكون التنزيل الحكيم خاليا من الحشوية، وفيه هذه الحروف الزائدة !!

يقول تعالى :

-﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه ومااستطاعوا له نقبا** ﴾ الكهف ٩٧.

-﴿ .. **ومافعلته عن أمري، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا** ﴾ الكهف ٨٢.

-﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا** ﴾ الكهف ٧٥.

فما هو حكم التاء هنا ؟ وإذا كانت ثمة حروف زائدة في علم التقعيد، فهل هي زائدة في علم الدلالة وعلم المعاني ؟ وهل هناك فرق بين اسطاعوا واستطاعوا، وبين تسطع وتستطيع، في الآيات الثلاث، يمكننا أن نقول معه : صدق الله وكذبت المعاجم؟ فإذا عرفنا الفرق أيقنا بعد أن نتبينه أن التنزيل خال من الحشو فعلا وحقا ؟

ونعود إلى الآية الأولى ، لنرى أن قوم ذي القرنين، بعد أن بنى لهم السد، لم يتمكنوا من اعتلاء ظهره (يظهروه)، و لم يقدروا على خرقه (نقبا). وننظر في الفرق بين عملية اعتلاء ظهر جبل أو سد، وعملية نقبه وخرقه، فنجد أن القدرة التي يجب بذلها في النقب أكثر كثيرا من تلك التي تبذل في التسلق. فالتسلق على ظهر جبل هملايا مثلا أهون كثيرا من حفر نفق فيه لنقبه من طرف إلى طرف. ونفهم أن التاء في استطاعوا، إنما جاءت للدلالة على الجهد والطاقة المبذولة في هذا الفعل، التي هي أكثر من الطاقة المبذولة في فعل اسطاعوا.

بهذا الفهم، وعلى هذا الأساس نعود لنقرأ الحوار بين موسى والعبد الصالح، كما ورد في سورة الكهف.

يقابل موسى العبد الصالح عند الصخرة، ويطلب مرافقته ليتعلم، فيجيب العبد الصالح : إنك لن تستطيع معي صبرا، أي مهما بذلت من جهد وعناء، فلن تقدر على احتمال مرافقتي. ثم يمضي الاثنان .. وبعد أن يخرق العبد الصالح السفينة ويقتل الغلام ويقيم الجدار .. وموسى يحتج في كل مرة ، يحسم العبد الصالح الصحبة قائلا : ﴿ **هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا** ﴾. أي بتفسير مالم تقدر =

على احتماله رغم مابذلت من جهد. ويمضي العبد الصالح في تبيين أسباب خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وأن مافعله كان بأمر الله. ثم يختم حديثه مودعا : ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا !! فما الذي حدث ؟

لقد قرر العبد الصالح في الآية ٧٨، أن موسى لم يستطع الصبر رغم كل مابذله من جهد في مغالبة نفسه، بدليل ثبوت التاء في الفعل .. ثم عاد في الآية ٨٢ ليقول إنه لم يبذل أي جهد، أو على الأقل بذل جهدا متواضعا، في توطين نفسه على الصبر، بدليل حذف التاء من الفعل، وكأن ثمة تعارضا في القولين.

ونحن نقول. ليس ثمة أي تعارض أو تضاد. فموسى بذل كل ما بوسعه فعلا وحقا في الصبر على مايرى من أفعال العبد الصالح قبل أن يعرف تأويلها. أما بعد أن عرف، فقد بدا وكأنه كان متسرعا بالاحتجاج، ولو أنه بذل مزيدا من الجهد في الصبر، لجاءه التأويل. والأمر كما نراه أشبه بمتسابق معصوب العينين، طلب منه السير في ممر لايعرف طوله، ينتهي بجائزة قيمة، فيبذل المتسابق مابوسعه وهو يمشي ويمشي ثم يسقط إعياء، ليكتشف بعد أن يرفع العصابة عن عينيه أنه على بعد خطوة واحدة من النهاية والجائزة فيصيح آسفا : لو أنني بذلت من الجهد شعرة إضافية لفزت !! ولكن السؤال الأبدي الخالد يبقى قائما : كان بوسع وباستطاعة وبمقدور هذا المتسابق أن يخطو خطوته الأخيرة، وهو لايعرف أنها الأخيرة ؟

نستعرض الآن بعض الأمثلة من الأفعال في اللغة، وندخل عليها هذه التاء التي سميناها تاء الجهد و تاء الاستطاعة، ونرى إن كانت تؤدي المعنى الذي أشرنا إليه.

١- خرج .. تخرج واستخرج، فنحن نقول خرج زيد من الجامعة ونعني غادرها. أما قولنا تخرج من الجامعة، فهذا يعني أنه درس فيها وأدى الامتحانات ونال الشهادة.
ونقول أخرجت الأرض غلتها، فالجهد في الاخراج عادي، أما حين نقول استخرجنا المعدن من المنجم، فالجهد المبذول في الاستخراج أكبر لأنه يحتاج إلى حفارات ومكاسر وأفران ووسائط ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿..**وتستخرجون حلية تلبسونها** ..﴾ فاطر ١٢. فنحن نحتاج لنحصل على اللؤلؤ وعلى الأحجار الكريمة من البحر إلى شباك ومعدات وأجهزة غوص وسفن وقوارب

٢ - عرف .. تعرف . فالمجرمون يعرفون يوم الساعة بسيماهم دون جهد، أو بجهد قليل، لكن السلطات تتعرف على المجرمين في الدنيا بكثير من الجهد، الذي تحتاج معه إلى أرشيف وبصمات وإلى مخابر تحليل.

٣ - يقول الرسول الأعظم : اختلاف أمتي رحمة. صدق رسول الله، إذ لم يقل خلاف أمتي رحمة والفرق بين الخلاف والاختلاف واضح. فالخلاف انفعال عاطفي فوري، يصدر دون تفكر ... أما الاختلاف فهو عدم التقاء في الرأي قائم على الدراسة والتدبر وتقليب الأمور على كل =

٣- الاحسان والعمل الصالح

نعود إلى ثالث أركان الاسلام، العمل الصالح، الذي أغفلته كتب الأصول، وأدبيات التراث، فلا هو عندها في أركان الاسلام، ولاهو عندها في أركان الايمان. ونبدأ بقوله تعالى:

- ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ الشورى ١٣.

ونفهم أن الدين هنا هو دين الاسلام، المعتمد عند الله، والذي لايقبل ديناً غيره، وهو دين الهدى ودين الحق ودين القيمة، الموحى إلى محمد (ص)، والذي بدأ بنوح وتراكم وتطور حتى آل إليه (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). ونفهم أن هذا الدين هو الدين الذي وصى الله به نوحاً، وابراهيم وموسى وعيسى، وطلب منهم إقامته، ونفهم أن ثمة وصية أو وصايا مشتركة، ابتدأت من نوح وابراهيم وموسى وعيسى وحتى محمد

وجوهها، يتم بعدها تقديم رأي مختلف وليس بالمخالف. فما أروع وأسمى الاختلاف، وما أسوأ الخلاف.

٤ - وكذلك حمل .. تحمل ، بعد .. ابتعد ، حل .. احتل ، ذكر .. تذكر ، سل .. استل.

٥ - هنا نفهم أن التاء حين تدخل على الفعل ، تعني أن جهداً اضافياً بذل فيه، ومن هنا أيضا نفهم فعل تجر. فهو بالأساس جر، والجر نقل الشيء من مكان إلى آخر، فإذا أضفنا إليه التاء دلت على جهد اضافي بذل في الجر، وهذه هي التجارة والمتاجرة.

فالتاجر هو الذي ينقل البضائع من مكان إلى آخر (يجرها)، ثم يفتح دكانا، وينظم حملات دعاية، ويستخدم البائعين والكتبة فيه، ويرصد لذلك كله رؤوس أموال، وكلما زاد الجهد المبذول في التجارة زاد مردودها.

وأخذت صيغة التراكم والتطور التاريخي ، بدلالة قوله في مطلع الآية **﴿شرع لكم﴾**.

فما هي هذه الوصايا ؟

لقد شرحت في كتابي[1] هذه الوصايا ، وأطلقت عليها اسم الفرقان (الأخلاق)، وأشرت إلى تراكمها حتى أصبحت عشر وصايا من نوح إلى موسى وسميتها الفرقان العام، وهي أسس الإسلام، ثم أشرت إلى مازاد عليها في رسالة محمد (ص) وسميتها الفرقان الخاص. لعل البعض بعد أن يقرأ كتابنا هذا ، يميل إلى تسميتها بالفرقان الاسلامي الايماني. ونوجز ما كتبناه فيما يلي، مستهلين بقوله تعالى :

- **﴿ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن، ولاتقتلوا النفس التي حرم ا لله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾** الأنعام ١٥١.
- **﴿ ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لانكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد ا لله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾** الأنعام ١٥٢.
- **﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** الأنعام ١٥٣.

١ ـ**التوحيد ← لا إله إلا ا لله** : وهو أهم ركن من أركان الاسلام ، لأن الانسان قد يؤمن با لله وباليوم الآخر، ومع ذلك يقع في الشرك **﴿ ومايؤمن أكثرهم با لله إلا وهم مشركون ﴾** يوسف ١٠٦. وهذا الركن الذي يبدأ بنوح، هو الذي وصى به إبراهيم بنيه ووصى به يعقوب بنيه في قوله تعالى **﴿ووصى بها إبراهيم بنيه**

---

(١) ـ " الكتاب والقرآن / قراءة معاصرة " ص ٤٩١ ـ ٥٢٣.

ويعقوب يابني إن ا لله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ البقرة ١٣٢. والكفر بهذا الركن ذنب لايغتفر، ويجعل من الانسان مجرماً كافراً با لله وبالبعث وبالحساب وبالعمل الصالح. والاشراك با لله في هذا الركن أيضاً ذنب لايغتفر لقوله تعالى ﴿ **إن ا لله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ..** ﴾ النساء ٤٨ و ١١٦. ونفهم أن كل ذنوب من آمن با لله واليوم الآخر قابلة للمغفرة إلا الشرك بالألوهية (التجسيد) فغير قابل للمغفرة. وهذا الركن هو الذي بدأ بنوح واشترك فيه جميع الرسل حتى محمد (ص)، وهو الذي لاإكراه فيه.

٢ - **وبالوالدين إحسانا** : وهو القانون الأخلاقي الفطري رقم (١) ، الذي وصى ا لله به نوحاً في قوله تعالى : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً..** ﴾ نوح ٢٨. ثم زاد عليه في الرسالة المحمدية بند التبني(١) بقوله تعالى: ﴿**ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير** ﴾ لقمان ١٤. ﴿**ووصينا الانسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين** ﴾ الأحقاف ١٥. ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولاً كريما** ﴾ الاسراء ٢٣. ونلاحظ أن الخطاب في لقمان والأحقاف ، موجه للانسان عموماً ، بفطرته الانسانية.

---

(١) - انظر " الفصل الثالث :الوالدان والأبوان ".

٣ - **ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم** : وهو القانون الأخلاقي الفطري رقم (٢) . وهو قتل الأولاد لأسباب اقتصادية ، وقد كرر هذه الوصية كفرقان ايماني أخلاقي خاص بمحمد (ص) في الاسراء ٣١ بقوله تعالى ﴿**ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيرا**﴾ ونرى الفرق واضحاً بين الفرقانين العام والخاص، وبين مكارم الأخلاق قبل الرسول الأعظم وبعده، فالنهي عن قتل الأولاد جاء في حالة الضائقة فعلاً (من إملاق)، ثم جاء النهي شاملاً حتى حالات العسر والخوف من ضائقة قادمة (خشية إملاق). واقتصر تطمين الوالدين أولاً بأن أخذ الله على عاتقه رزق الأولاد، إضافة إلى رزق الوالدين الأساسي. ثم جاء التطمين فجعل رزق الأولاد هو الأساس، وأن الله سيرزق الوالدين كرامة للأولاد، وأن قتل الأولاد سيقطع عنهم هذا الرزق ويعرضهم للوقوع في خطيئة كبيرة. ويجب أن لانفهم من هذا أن الله يأمر بعدم تحديد النسل وعدم تنظيم الاسرة، لأن الله لم يشترط على الناس عدد الأولاد حتى يرزقهم، أي لم يربط الرزق بعدد الأولاد.

٤ - **ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٣). ولعل هذا القانون من أهم مايبرز التطور التراكمي في المثل العليا والأخلاق.فقد بدأ بتحريم اللواط عند لوط، تلاه بتحريم الزنا عند موسى، وختمه بتحريم السحاق عند محمد (ص). وتطورت عقوبته من الاعدام إلى الجلد، وتغلب الشكل على المضمون في الزنا والسحاق، وترك الشكل والمضمون مفتوحين في اللواط. ونفهم هنا أن العفة من المثل العليا والأخلاق، وأن الأصل في فطرة الانسان العفة.

٥- **ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٤). ولعلنا نلاحظ أن الفطرة بالأساس تنفر من القتل وتعافه، وهذا سر العقد النفسية التي يعود بها المحاربون إلى حياتهم اليومية بعد انتهاء الحروب.

٦ - **ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٥)، الذي أضيفت إليه تعليمات كثيرة في سورة النساء، منها السماح بتعدد الزوجات بغرض رعاية الأيتام.

٧ - **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٦)، ويهدف إلى التقيد بالمواصفات والأوزان والأحجام، وزاد عليها تهديد المخالفين لهذه الوصية في قوله تعالى ﴿**ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾ المطففين ١، ٢، ٣.

٨ - **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٧)، ويعني الشهادة الصادقة. ولقد جاءت الرسالة المحمدية في سورة النساء بخير منها في قوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين..** ﴾ النساء ١٣٥. ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ..** ﴾ المائدة ٨.

٩ - **وبعهد الله أوفوا** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٨)، ويعني عدم الحنث بالعهود والأيمان (المواثيق). ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾ الرعد ٢٠.

١٠ - **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل** : وهو القانون الأخلاقي رقم (٩)،ويعني الأخذ بما سبق كوحدة واحدة غير منقوصة، والاشتراك مع باقي الناس يداً واحدة في اتباعها، لأنها قوانين فطرية تحكم أساس التعامل بين أهل الأرض بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم وأن الكبائر هي مخالفة هذه الوصايا.

ولمزيد من التفصيل حول مفهوم (عهد الله) والعهود والأيمان، انظر بحث العباد والعبيد في هذا الكتاب.

هذه هي الوصايا / القوانين الأخلاقية / الفرقان العام التي كانت منزلة قبل محمد (ص) وجاء برسالته ليكملها. فما هي المثل العليا والفرقان الخاص الذي جاء به خاتم الرسل، ليتم بها الدين والايمان والعمل الصالح ؟

ونفتح التنزيل الحكيم، لنجد العشرات من هذه المثل والقوانين مبثوثة في الآيات، ترسم للانسان صراط الله المستقيم. وفي مقدمتها إفشاء السلام، واللين في القول، على أن نفهم أن السلام هنا، هو من السلم وترك الحرب وليس التحية كما تذهب الأدبيات الاسلامية.

يقول تعالى :

- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابذوا بالألقاب..**﴾ الحجرات ١١.
- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه..**﴾ الحجرات ١٢.

ومن الواضح أن التنزيل يطلب من المؤمنين أتباع محمد (ص) أن يلتزموا بهذه القوانين الأخلاقية الفطرية، بدليل أنه يأتي بتشبيه فطري لمن يرتكب ذلك فكأنه يأكل لحم أخيه ميتاً، وهذا ماتنفر منه النفس الانسانية بطبعها وبفطرتها الأولى.

وانظر إلى أمثال ذلك وهو كثير في قوله تعالى :

- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ..** ﴾ الحجرات ٢.

- ﴿ **ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ..** ﴾ البقرة ١٨٨.
- ﴿ **.. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها ..** ﴾ البقرة ١٨٩.
- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ..** ﴾ البقرة ٢٦٤.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ..** ﴾ البقرة ٢٨٢.
- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ..** ﴾ المائدة ١.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ..** ﴾ النور ٢٧.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ..** ﴾ المجادلة ١١.
- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون** ﴾ الصف ٢.
- ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ الفرقان ٦٧.

ونلاحظ أن لهذه المثل العليا والقوانين الأخلاقية المواصفات التالية :

١ - تمثل الوازع الذاتي للانسان (الضمير) ويتم الالتزام بها من خلال التربية.

٢ - هي قيم ذاتية ليس لها وجود خارج الوعي الانساني، يمكن خرقها بسهولة لأنها ضعيفة بذاتها. لذا يجب تحويلها إلى قيم اجتماعية راسخة، بحيث يتعرض مخالفها أو مرتكبها لنبذ المجتمع واحتقاره.

٣ - لاتحتاج إلى بينات في الدعوة إليها، لكونها فطرية تقبل بذاتها ولذاتها. فالصدق والأمانة فضيلة، والغش والكذب رذيلة دونما حاجة لبينات.

٤ - لاتخضع للتصويت، ولاتخضع للرأي والرأي الآخر. بمعنى أنه لايجوز لي اعتناق الكذب وعقوق الوالدين، لمجرد أن الآخر يرى القول بالصدق وبر الوالدين.

ولاننسى أبدا أن العمل على ترسيخ هذه القيم وتعميقها لايعني البتة نفي نقيضها من الوجود. فالاسلام دين واقعي لامكان فيه للوهم الطوباوي، ربط الخير والشر في هذا الوجود بظاهرة الموت في قوله تعالى **﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون ﴾** الأنبياء ٣٥. بمعنى أن مثل الطامع بالغاء الشر كمثل الذي يطمع بالغاء قانون الموت وهذا محال.

٥ - هي قيم تحمل الطابع الكوني الشمولي، تكمن حنيفيتها في طريقة التعبير عنها لافي محتواها، وتخضع للاضافات تحت باب الحكمة التي لاتحتاج إلى وحي، ولاتنقطع على ألسن الحكماء، فهي محصلة خبرات الشعوب المتراكمة على مدى مسيرة التاريخ. إذ أن التاريخ أكبر حكيم واعظ يمثل خبرات الشعوب.

هكذا نخلص إلى تلخيص مافعلته الأدبيات الاسلامية بالثقافة العربية الاسلامية وبالفكر الاسلامي اليوم:

حين ربطت مفهوم الدين والتدين بشعائر الإيمان باعتبارها من أركان الاسلام بعيداً عن المعيار الأخلاقي الذي ينطبق على معظم سكان الأرض، فأصبح الحكم على دين الانسان يتم بدلالة صلاته وصيامه، مهما كان شكل تعامله مع الناس اقتصادياً واجتماعياً.

وحين خلطت الحلال والحرام (وهو شرع إلهي) بالمسموح والممنوع (وهو قانون وضعي) بالمعروف والمنكر (وهو أعراف وتقاليد اجتماعية) بالحسن والقبيح (وهو ذوق فردي). حتى صار وجه المرأة حراما .. وصوتها حراما .. والموسيقى والنحت والتصوير حراماً .. والتثاؤب بفم فاغر حراماً لأنه يدخل الشيطان .. وقص الأظافر في الليل حراما..

وحين ألفت العديد من المجلدات في فقه الشعائر التي سمتها عبادات، ثم اختصرتها، ثم شرحت مختصرها، ثم أوجزت شرح المختصر، مع أن شعائر الإيمان

بمجموعها من الوضوء إلى الصلاة والزكاة والصيام والحج سهلة بسيطة، جاءت إلى العالم والجاهل والكبير والصغير، بينما لم يحظ الجانب الأخلاقي بمثل هذا الحيز والتفصيل، فأخذ الوجه الشعائري من الدين (أركان الايمان) الأولوية المطلقة على الوجه الأخلاقي (أركان الاسلام)، حتى انعكس ذلك في التربية المنزلية التي هي الأساس في تنشئة الطفل، فأصبح إفطار يوم من رمضان، أكبر كثيراً من الكذب.

لقد أوردنا في كتابنا المشار اليه سطوراً عن الأخلاق، رأينا من المفيد أن نختم بها بحثنا هذا :

الأخلاق : هي قانون روحي احتماعي يربط أفراد بني الانسان بعضهم إلى بعض لكونهم بمجموعة إنسانية لا حيوانية، بغض النظر عن البنية الاقتصادية للمجتمع الانساني. لذا تحمل الأخلاق الصفة العالمية الشمولية.

وبما أن الأخلاق تأخذ الطابع الشمولي الكوني "كونية الأخلاق"، فقد جاءت وحياً من الله تعالى. أما الأعراف فقد ذكرها الله في الكتاب دون أن يفصلها لأنها متغيرة. وقد جاءت الأخلاق الاجتماعية في الوصايا "الفرقان" من زمن موسى وإلى عيسى وإلى محمد (ص) وهي مازالت سارية المفعول إلى يومنا هذا عند شعوب الأرض بغض النظر عن بنيتها الاقتصادية وبيئتها وأعرافها. لذا فإن الأخلاق هي القاسم المشترك في العلاقة بين الانسان وأخيه الانسان ولها صفة التأثير في السلوك الانساني حيث أنها تؤثر في شكل الأعراف.

هذا ما يجب أن يعرفه الانسان العربي المسلم عن البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يعيش فيه حيث أن التزامه الاجتماعي تجاه مجتمعه خاصة وتجاه الانسانية عامة هو التزام أخلاقي قبل أن يكون التزاما قانونيا.

هناك من يخلط عن عمد أو غير عمد بين الأخلاق وبين الأعراف، حيث يقول

إن الأخلاق هي بنية فوقية لبنية تحتية هي العلاقات الاقتصادية. فالأخلاق "الوصايا" التي جاءت بها الأديان الثلاثة هي بنية لعلاقات اقتصادية خاصة، وعندما تتغير هذه البنية تتغير الأخلاق. هذا الكلام لم نجن منه إلا خيبة الأمل لأن هذا الطرح ينتج عنه أن يتحلل الانسان من الوصايا. فالسؤال الذي يطرح نفسه: أين البديل ؟ البديل هو نبذ الأخلاق والوصايا فينتج عن ذلك إباحة قتل النفس وعقوق الوالدين والإخلال بالمواصفات وشهادة الزور وانتشار الفاحشة، حيث أن هذه الأحداث والوقائع بينت أن هذا البديل الذي يودي إلى أن يقع المجتمع في أزمة أخلاقية تعصف به وتحطمه. وعليه يتوجب على العربي المسلم أن يعلم أن الالتزام بالوصايا هو التزام أخلاقي انساني لاعلاقة له البتة بالنظام الاقتصادي والبيئة لأنه لابديل لهذه الوصايا. لذا أعطاها الله سبحانه وتعالى هذه الأهمية ووضعها تحت عنوان خاص هو "الفرقان" وجاءت في سورتين من السور المكية سورة الأنعام وسورة الإسراء. وأضاف إليها تعليمات أخلاقية جاءت إلى محمد (ص) و لم تأت إلى رسول قبله، حيث أضاف لها تشريعات حديدة، وعدل تشريعات قديمة. أي أن هناك دين واحد جاء لأهل الأرض هو الإسلام، بدأ بنوح وتراكم وتطور إلى محمد (ص). وفي هذا المفهوم يوجد في الإسلام (نوح - محمد) ناسخ ومنسوخ، أما القول بأن الاسلام بدأ بمحمد وختم بمحمد (ص)، فهو عندنا ليس بشيء، وأنه بالرسالة المحمدية بالذات لايوجد ناسخ ومنسوخ. وكذلك في أية رسالة جاءت إلى رسل قبله، أي أن الناسخ والمنسوخ يأتي على سلم الرسالات المتعاقبة كلها.

٤ _ الكتابة _ الفريضة _ الوصية _ الموعظة

للتعمق في فهم الاسلام والإيمان، ولإعادة وضع النقاط على الحروف في هذين المصطلحين، انطلاقاً من آيات التنزيل الحكيم، لابد من التفريق بين الصيغ التي جاءت بها التعاليم والتكاليف في التنزيل من أوامر ونواه. إذ لاشك أبداً في أن قوله تعالى ﴿**كتب عليكم القتال ..**﴾ ليس مثل قوله تعالى ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾.

ولاشك أبداً في أن قوله تعالى ﴿ **قد فرض ا لله لكم تحلة أيمانكم ..** ﴾ يختلف تماماً عن قوله تعالى ﴿ **.. ذلكم يوعظ به من كان يؤمن با لله واليوم الآخر ..** ﴾.

ونعني بالاختلاف عدم تماثل الصيغة، فما يكتبه ا لله علينا، يختلف وجوباً عما يوصينا به، وعما يفرضه لنا وعلينا، وعما يعظنا به. ولنبدأ بصيغة الكتابة. يقول تعالى :

- ﴿ **.. إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ النساء ١٠٣.
- ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن ا لله كتاباً مؤجلاً ..** ﴾ آل عمران ١٤٥.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ..** ﴾ البقرة ١٨٣.
- ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ..** ﴾ البقرة ٢١٦.
- ﴿ **كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ..** ﴾ الحج ٤.
- ﴿ **وكل شيء أحصيناه كتابا** ﴾ النبأ ٢٩.

قلنا إن الكتاب مجموعة عناصر احتمع بعضها مع بعض، لإخراج معنى جديد. فالكتابة والتأليف جمع مفردات في جمل (مسند ومسند إليه) تحت عنوان واحد في كتاب واحد تحمل معنى مفيدا جديداً. لهذا، يسمي سبحانه كل ظواهر الطبيعة كتباً. أي أن كل شيء عبارة عن مجموعة من العناصر المركبة له، فالموت كتاب، والحياة كتاب، والزراعة والصناعة والتجارة كتب، وكذا مليارات الكتب الأخرى كالفلك والولادة والزلازل الخ ...

ولما كانت الطبيعة كتباً تحصل خارج وعينا لها، وظواهر تقع وتحدث بعيداً عن معرفتنا أو جهلنا بها، فقد سمى سبحانه الموت كتاباً مؤجلاً، أي أنه مجموعة من الشروط الموضوعية، إذا اجتمعت حصل الموت. والموت ظاهرة طبيعية، لكنه ضد الفطرة الإنسانية. فالفطرة الغريزية عند الانسان هي التمسك بالحياة، وحب البقاء، مقاومة الموت. وهذا مايميز جميع التكاليف التي وردت في التنزيل الحكيم تحت باب (كتب

عليكم). أي أنها ضد الفطرة الانسانية، وأن على الانسان أن يكبح فطرته ليقوم بها ولو كان كارهاً لها. ومن هنا تدخل الاستطاعة في التكاليف الواردة تحت باب (كتب عليكم)، لقوله تعالى ﴿ **لايكلف ا لله نفساً إلا وسعها ..** ﴾، ولاعلاقة لها بالوصية ولا بالفريضة من قريب ولا من بعيد.

في البقرة ٢١٦، نلاحظ أنه تعالى يصف القتال بأنه كره، ثم يضيف مباشرة ﴿ **.. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ..** ﴾. من الواضح أن الانسان يكره القتال، ويكره قتل النفس، لكرهه الموت الذي هو ضد الفطرة الانسانية، ولهذا جاء التكليف تحت باب (كتب عليكم).

أما في النساء ١٠٣، فالصلاة عناء ومشقة بوضوئها وقيامها وقعودها والسهر لها في الليل والاستيقاظ لها في الفجر. ولقد وصفها بقوله (وإنها لكبيرة)، وعلى الانسان أن يقوم ليؤديها بما يعارض فطرته. ولهذا جاء التكليف بها تحت باب (الكتاب). فمن الخطأ أن نقول: الصلاة فرض، والصحيح أن نقول: الصلاة مكتوبة، لأن للفرض والفرائض معنى آخر تماماً.

وكذلك الأمر في البقرة ١٨٣. حيث نلاحظ أن الصوم جاء تحت باب (كتب عليكم)، وذلك لما فيه من تضاد مع الفطرة. فالفطرة أن يأكل الانسان حين يجوع، ويشرب حين يعطش، ويشتم حين يغضب، لكن الصائم يقهر بالصيام هذه الفطرة البهيمية الأولى.

ولايخرج الشيطان في الحج ٤، عما قلناه من أن ظواهر الطبيعة هي نواميس وقوانين وكتب. فقد ربط تعالى الضلال باتباع الشيطان وجعله وليا، تماما كما ارتبط المطر بالغيم. ولهذا فقد جاء هذا الناموس الطبيعي تحت باب (كتب عليه أي على الشيطان).

ثمة "كتابات" أخرى، كتبها الله سبحانه على عباده في تنزيله الحكيم، منها قوله تعالى ﴿ .. **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ..** ﴾ الحديد ٢٧.

فالرهبانية التي كان سبحانه قد كتبها على النصارى ثم نسخها في الرسالة المحمدية، ابتعاد عن ملاذ الحياة، وهجر الزواج، أي أن الرهبانية في جوهرها أيضا ضد الفطرة الانسانية، لذا فقد قال إنه (كتبها عليهم).

ومنها قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ..** ﴾ البقرة ١٧٨. وقد عرضنا لموضوع القصاص تفصيلا [١] .

وقوله تعالى ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ..** ﴾ النساء ٦٦. وقوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، قل متاع الدنيا قليل ..** ﴾ النساء ٧٧.

فالقصاص في القتلى، وقتل النفس، والقتال في الآيات الثلاث كره للانسان، وموت هو ضد الفطرة الانسانية، ولهذا فقد كتبها الله سبحانه.

ونقف عند آل عمران ٦٦، لنجده سبحانه قد سوى بين قتل النفس والخروج من الديار. ونفهم أن القتال حتى الموت في سبيل الوطن (الديار) كتاب كتبه الله علينا، ونفهم أن القتال نوعان. نوع في سبيل الله وهو الجهاد الذي بحثته تفصيلا في بحث

---

(١) ـ "دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع" دار الأهالي ـ دمشق ١٩٩٤ ـ ص ٣٠١ ـ ٣٠٩.

العباد والعبيد. ونوع من أحل الوطن وعدم الخروج من الديار، وهو مايجب أن نربي أبناءنا عليه لأنه من أركان الإيمان.

وكذلك في قوله تعالى ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ البقرة ١٨٠.

هنا أيضا نفهم أن الوصية تكليف وقد يكون الإنسان كارهاً له وهي من أركان الإيمان لذا قال ﴿ **فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه، إن ا لله غفور رحيم** ﴾ البقرة ١٨٢.

ولكن، إذا كانت "الكتابة" ناموساً، وتكليفاً ضمن حدود الاستطاعة، ووجهاً من وجوه الالزام والالتزام، كما أسلفنا، فكيف نفهم قوله تعالى ﴿ **.. كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم** ﴾ الأنعام ٥٤. وقوله تعالى ﴿ **كتب ا لله لأغلبن أنا ورسلي إن ا لله قوي عزيز** ﴾ المجادلة ٢١.

كيف يمكن أن يلزم ا لله نفسه؟ بل كيف يفعل شيئاً ضد طبيعته وفطرته، كتبه هو على نفسه؟ وهل رحمته وغلبته ليست من أصل فطرته وطبيعته حتى يكتبها على نفسه؟

لنفهم هذا، ولنجيب على هذه الأسئلة التي تبدو في ظاهرها كلامية بحتة، لابد من فهم اسم الرحمن أولاً.

فالرحمن اسم من أسماء ا لله الحسنى على وزن فعلان، وهو وزن الأضداد في اللسان العربي كقولنا: كسيان / عريان، جوعان / شبعان، ظمآن / ريان. وإذا استعرضنا الأسماء الحسنى نجد فيها أضداداً كقوله ﴿ **يعز من يشاء ويذل من يشاء** ﴾ وقوله ﴿ **هو الخافض والرافع** ﴾، وهو جبار رحيم. فإذا استعرضنا هذه الأضداد نجد أن

الجبار لايعني الرحيم إطلاقاً، وأن الحليم لايعني سريع العقاب. ولكن الاسم الوحيد الذي جمع الاثنين معا هو الرحمن. فالرحمن رحيم جبار، معز مذل، حليم سريع العقاب.

لقد ورد اسم الرحمن في البسملة "بسم ا لله الرحمن الرحيم"، فبدأت بسم ا لله، و هو لفظ جلالة لايأتي في الكتاب إلا مقترناً باسمين من الأسماء الحسنى، كقوله تعالى ﴿ **إنه عفو غفور** ﴾ وقوله ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾. ولقد ميز تعالى اسمين من الأسماء الحسنى هما : ا لله والرحمن، بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **قل ادعوا ا لله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ..** ﴾ الإسراء ١١٠.

ثم يأتي سبحانه بالرحمن بعد لفظ الجلالة في البسملة، فيقع السامع في الحيرة والخوف، حول الصفة التي يريد أن يعاملنا بها، هل هي الرحمة (رحيم) أم هي الجبروت (جبار)، وهل هي المعز أم المذل، وهل هي سريع العقاب أم الحليم ؟ ويأتي اسم الرحيم في خاتمة البسملة لتغليب صفة الرحمة في الرحمن على صفة العذاب والجبروت، وكلاهما متضمن في الرحمن، وليعطينا الاطمئنان على أنه رحمن رحيم وليس رحمن جبار أو رحمن سريع العقاب. وهذا ما ورد تماماً في قوله تعالى ﴿ **.. قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ..** ﴾ الأعراف ١٥٦.

أما القول بأن الرحمن صفة مبالغة من الرحمة، وأن الرحيم هي من الرحمة، والرحمن هي مبالغة للرحيم، فهذا كلام ليس له أي معنى، لأن الرحيم في البسملة تصبح حشواً وزيادة لاتحمل أي معنى إضافي. فإذا قلنا إن زيداً يملك ألف ليرة، فهذا يعني بالضرورة أنه يملك خمس ليرات، لأن الليرات الخمس متضمنة في الألف. وإذا قلنا أن الرحمن مبالغة للرحيم، فهذا يعني أن الرحيم متضمنة في الرحمن ولاداعي لذكرها. أما إذا قلنا أن الرحيم والجبار متضمنان في الرحمن، وذكر واحدة منهما وهي الرحيم، فهذا يعني أنه غلب اسماً على آخر في طريقة تعامله مع خلقه. سبحانه وتعالى عما يصفون.

وهكذا نفهم قوله تعالى ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أي :

ا لله الرحمن ← الرحيم الغفور الحليم

ا لله الرحمن ← الجبار المنتقم سريع العقاب

ولقد ورد اسم الرحمن ٥٧ مرة في التنزيل الحكيم، وورد الرحيم ٩٥ مرة. ونلاحظ أن (الغفور الرحيم ـ غفور رحيم) وردت ٥٧ مرة أيضاً في التنزيل. أي تساوي تماماً عدد المرات التي ورد فيها اسم الرحمن. ونلاحظ أن جمع المرات كلها للأسماء الثلاثة (رحمن / غفور رحيم) يساوي عدد سور الكتاب. كما نلاحظ أن اسم ا لله الجبار واسم ا لله المتكبر وردا مرة واحدة في التنزيل الحكيم في سورة الحشر، وذلك من باب الإخبار فقط.

أما قوله تعالى ﴿ **كتب ا لله لأغلبن أنا ورسلي ..** ﴾ فنرى أنه ختمه بقوله ﴿ **إن ا لله قوي عزيز** ﴾. وقد شرح ذلك في سورة يوسف بقوله ﴿ **وا لله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾. أي أن ا لله يملك من القوة والعزة، مالا تستطيع أية قوة أخرى في الوجود أن تغلبها، وأنه أعطى هذه القوة لرسله، الذين ليسوا من الناس بالضرورة، لأنه سمى الملائكة أيضا رسلاً: ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا ..** ﴾ هود ٧٧. ﴿ **.. جاعل الملائكة رسلاً ..** ﴾ فاطر ١. ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ التكوير ١٩. ﴿ **.. أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ..** ﴾ الشورى ٥١.

وننتقل الآن إلى مفهوم الفريضة التي جاءت من فعل فرض. فإذا استعرضنا الأفعال في اللسان العربي التي تبدأ بحرف الفاء في أولها، نراها تعطي معاني مشتركة، وتعمل في خندق واحد، مع فروقات بين فعل وآخر: فرج، فلك، فكر، فخت، فصل، فرق، فج، فرح، فتح. فهذه كلها تشترك في معنى واحد فيه الفتح والانفراج. فإذا

أخذنا الأفعال التي تبدأ بالفاء والراء، وتختلف في الصوت الثالث: فرض، فر، فرق، فرج، فرح، فرص، فرك، فرم. نرى أن فيها معاني متقاربة. فإذا أخذنا الفعلين: فر + فض. نرى أنهما يحتويان على كل أصوات فعل فرض، وأنهما باجتماعهما أقرب المعاني إلى فرض. ففعل فر يعني الانكشاف، ومايقارب الكشف عن الشيء، وفعل فض يعني التفريق والتجزئة، فنقول انفضوا بمعنى ذهبوا فرقاً، والفضفضة سعة الثوب، وكذلك فيض تعني جريان الشيء بسهولة، ومنه نقول فاض الماء، ونقول هناك فيض في الانتاج.

وهكذا نرى كيف جاء فعل فرض، ليعني عطاء وفرجة، ومن هنا نقول بوجود فرضة في الباب، أي معلم أو ثقب. وجاء معنى من الفرض وهو القرض: فرض / قرض. وكلاهما فيه معنى العطاء والتفريج. ويبدو ماقلناه واضحاً كل الوضوح في قوله تعالى ﴿ .. **قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ..** ﴾ البقرة ٦٨. فالفارض من البقر هي التي حملت وولدت وأعطت حليباً. كما ورد أيضاً بهذا الوضوح في قوله تعالى ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين * وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ..** ﴾ البقرة ٢٣٦، ٢٣٧.

ونلاحظ هنا أن الفريضة جاءت بمعنى العطاء. كأن يعمل إنسان عند آخر فيفرض له ألف ليرة بالشهر مثلا. والعطاء هنا الصداق، والصداق نحلة، أي عطاء بدون التزام.

وقد وردت الفريضة بمعنى العطاء والمنح في قوله تعالى ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة، إن الله كان عليماً حكيما** ﴾ النساء ٢٤.

فالفريضة هنا عطاء من طرف إلى آخر. بل هي أكثر من ذلك، ففيها معنى الفر والفض لانسان مكبل بعبء ما، ويريد أن يفض هذا العبء ويفر منه، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى ﴿ **قد فرض ا لله لكم تحلة أيمانكم، وا لله مولاكم، وهو العليم الحكيم** ﴾ التحريم ٢.

هنا جاءت الفريضة من ا لله مخرجاً من مأزق وقع فيه الانسان، كأن يقسم يميناً بأن لايفعل شيئاً حلالاً، ثم يفعله، ولذا قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل ا لله لك ..** ﴾ التحريم ١. فقد يقسم الانسان يميناً بألا يدخل بيت فلان، وألا يأكل فيه. ثم يدخل و يأكل لأن الدخول و الأكل ليس من المحرمات، فيقع في هذه الحالة بمأزق،جاءت الآية لتخرجه منه. أي أن ا لله أراحكم وأخرجكم من مأزق اليمين الذي وقعتم فيه بأن تتحللوا منه. وهذا التحلل جاء في قوله تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم ا لله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ..** ﴾ المائدة ٨٩.

هنا نفهم تماماً معنى الفرض والفريضة. فعندما أنزل ا لله على نبيه القرآن وأكرمه به قال ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ..** ﴾ القصص ٨٥.

وبما أن الحج جاء لمن استطاع إليه سبيلا، فهو من الفرائض بالنسبة للمستطيع الذي قرر أن يدفع ويتبرع من ماله لأداء الحج، لهذا قال ﴿ **.. فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ..** ﴾ البقرة ١٩٧. أي أن ا لله طلب الحج من المستطيع بقوله ﴿ **.. و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ..** ﴾ آل عمران ٩٧. أما الحاج الذي وقع عليه التكليف لاستطاعته فيقول : لقد فرضت الحج، أي تقدمت وتبرعت بأن أذهب إلى الحج من تلقاء نفسي. فالحج طلب من ا لله، وفريضة من الانسان.

لقد سمح ا لله سبحانه للنبي بأن يتزوج على سنة الأولين، أي دون اعتبار لعدد الزوجات، فكان هذا عطاءً وفرضاً منه سبحانه لنبيه، ورد في قوله تعالى ﴿ **ما كان على**

النبي من حرج فيما فرض ا لله له، سنة ا لله في الذين خلوا مـن قبـل، وكـان أمـر ا لله قدراً مقدورا ﴾ الأحزاب ٣٨.

وكذلك عطاء الزوج للزوجة، فقد سماه التنزيل فريضة في قولـه تعـالى ﴿ .. **قـد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكـت أيمـانهم لكيـلا يكـون عليـك حـرج، وكان ا لله غفوراً رحيما** ﴾ الأحزاب ٥٠.

ومـن هنـا نفهـم لمـاذا سمـى سـبحانه الصدقـات فريضـة، في قولـه تعـالى ﴿ **إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقـاب والغـارمين وفي سبيل ا لله وابن السبيل فريضة من ا لله، وا لله عليم حكيـم** ﴾ التوبـة ٦٠. فالمـال المدفوع تحت باب الصدقات للبنود الواردة في الآيـة، عبـارة عـن عطـاء مـن ا لله لهـؤلاء الناس، وليس عطاء من صاحب المال المـانح. فـالذين يـأخذون الصدقـات إنمـا يـأخذون حصة خصصها ا لله لهم كعطاء منـه، وعلـى الذيـن يعطونهـا، أن يؤدوهـا دون منـة ولا أذى، بغض النظر عن مصدر هذا المال حلالاً كان أم حراماً.

ونأتي إلى قوله تعالى في الإرث ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالـدان والأقربـون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربـون ممـا قـل منـه أو كـثر نصيبـاً مفروضـا** ﴾ النساء ٧. والنصيب المفروض هنا يعني العطاء والمنحة للرجال والنساء مما تـرك الوالـدان والأقربون.

وننتقل إلى قوله تعالى ﴿ **يوصيكم ا لله في أولادكم، للذكر مثـل حـظ الأنثيـين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن لـه ولـد وورثـه أبـواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السدس مـن بعـد وصيـة يوصـي بهـا أو ديـن،**

آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً، فريضة من ا لله، إن ا لله كان عليماً حكيما ﴾ النساء ١١.

ونلاحظ أن الآية بدأت بالوصية (يوصيكم) وانتهت بالفريضة (فريضة من ا لله). أي أن حال الارث كحال الصدقات تماماً، منحة من ا لله أعطاها للورثة مما ترك الوالدان والأقربون. لأن الانسان قيم على ماله وهو على قيد الحياة، عدا الصدقات، فهي عنده أمانة لأصحاب الحق فيها، أما عندما يموت، فهو يفقد هذه القيومية، ولهذا يعطيها ا لله منحة منه للورثة وليس عطاء من المتوفى. ولهذا لايوجد مال أحل من مال الإرث ومال الصدقات. لأن الوارث ومستحق الصدقة يأخذ حصته حلالاً مفروضاً له من ا لله، حتى ولو كان صاحب المال قد جناه بالحرام.

فالسارق والغشاش والمرتشي ماله حرام، عدا مايدفعه للصدقات فهو حلال. أي على مستحق الصدقة والوارث ألا يتحرى إطلاقاً عن مصادر المال بالأصل، ولهذا قال تعالى " فريضة من ا لله "، فا لله أعلم من أين أتى هذا المال من التجارة أم من الغش والسرقة، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله "وا لله عليم حكيم" وبقوله "وكان ا لله عليماً حكيما ".

ننتقل الآن إلى قوله تعالى **﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا * لعنه ا لله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا ﴾** النساء ١١٧، ١١٨. فذكر الشيطان المريد في الآية يعني أن هناك شيطاناً غير مريد. فالمريد جاءت من مرد، ومنه جاء التمرد، فنقول تمرد الجنود في الجيش، أي عصوا الأوامر وتمردوا عليها. وهذا الشيطان المتمرد له نصيب من عباد ا لله، سيشاركونه بملء إرادتهم في هذا التمرد على الصراط المستقيم (القيم العليا). وهو نصيب مفروض، أي أنه جاء بملء إرادة هؤلاء العباد المتمردين، لأن ا لله خلق كل الناس عباداً له في الطاعة والمعصية بملء إرادتهم، فمن أطاعه بملء إرادته فهو عبد صالح، ومن عصاه بملء إرادته فهو عبد عاص،

يبقى من عباد الله لكنه أشرك الشيطان المتمرد في الطاعة، وفي هذا قال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ..** ﴾ يس ٦٠.

نأتي بعد هذا الكلام عن الفرائض إلى سورة النور، التي تبدأ بقوله تعالى ﴿**سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون** ﴾ النور ١.

أي أن سورة النور تحتوي على أحكام (أم كتاب ورسالة) وعلى آيات بينات (قرآن). وأن كل الأحكام التي وردت فيها هي فرائض، فرضها الله على عباده لكي يخفف عنهم العنت والحرج والضيق، ولكي يريحهم. ومن هذا الباب نستعرض أحكام سورة النور.

تبدأ السورة بعقوبة الزنا في قوله تعالى ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين * الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ النور ٢، ٣.

تتحدد هنا عقوبة كل من الزانية والزاني بمئة جلدة. وقد يسأل سائل ساخراً : وهل في الجلدات المئة فرج وراحة وعطاء ؟ أقول : نعم. إنها في شروط إقامة هذا الحد، التي تنص على وجود أربعة شهداء حضوريين (انظر بحث الشهيد والشاهد)، وهذا شبه مستحيل. فإذا وجد ثلاثة شهداء يقسمون على رؤيتهم فعل الفاحشة بين الرجل والمرأة عيناً، ولم يوجد رابع معهم، تم جلد الثلاثة ثمانين جلدة تحت باب قذف الأعراض. أي أن الفريضة هنا، هي في تغليب الشكل على المضمون، لابل في إسقاط لقب الزنا ولو حصلت الفاحشة فعلاً، فقصرت العقوبة على الفاحشة العلنية، علماً أنه في قتل النفس يكفي شهيد واحد أو شاهد واحد.

أي أن ارتكاب الفاحشة بين ذكر وأنثى لايسمى زنا إلا إذا توفر الشهداء الأربعة، أي لدينا التعريف التالي :

علاقة جماع غير شرعية بين رجل وامرأة = فاحشة

علاقة جماع غير شرعية بين رجل وامرأة + أربعة شهداء = زنا

أي لايجوز إطلاق لقب الزاني والزانية إلا على رجل وامرأة ارتكبا الفاحشة بتوفر أربعة شهود، لأنه بمجرد إطلاق هذا اللقب وجب إقامة العقوبة لذا قال ﴿..**ولاتأخذكم بهما رأفة**..﴾ وأضاف بنداً آخر إلى الزنا مضافاً إلى الفاحشة وهو سوء السبيل ﴿ **ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾.

الزنا = فاحشة + أربعة شهود ⟵ إقامة حد الجلد (ساء سبيلا) أي انتقلت الفاحشة من بند الذنوب مع الله عندما لم تكن علنية إلى بند السيئات مع الناس بعلنيتها فاستحقت عقوبة المجتمع بالجلد لأنها أساءت إليه.

إن فعل نكح في اللسان العربي يعني معنى واحدا هو العملية الجنسية ، وتقوم هذه العملية إما (بميثاق الزوجية أو بعقد ملك يمين) فهو نكاح حلال (انظر بحث العباد والعبيد)، كما في قوله تعالى ﴿..**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** .. ﴾ النساء ٣. أو بدون ميثاق زوجية أو عقد ملك يمين فهو فاحشة. وقوله "فانكحوا" يعني القيام بعملية الجنس بميثاق أو عقد، لهذا نقول عقد نكاح، لأنه إذا تم العقد ولم يحصل النكاح، سقط العقد تلقائياً، إذ النكاح شرط من شروط نفاذ العقد.

فالزاني الذي يضاجع زانية بغير عقد مع توفر الشهود، إنما يمارس النكاح فعلاً بمعناه الجنسي. ولايريد من الزانية أصلاً إلا هذا الفعل، لا أكثر ولا أقل. وهذه النقطة بالذات هي التي تجعل من نكاحه فاحشة حراماً، وتجعل من نكاح الزوج أو ملك اليمين حلالاً، وإذا حصلت الفاحشة علناً (أربعة شهداء) فتصبح زنا.

انظر معي كيف أن السارق يقوم بفعل هو السرقة فيسمى سارقاً، والقاتل يقوم بالقتل فيسمى قاتلاً، لنرى أن الاسم اشتق من الفعل، وكذلك الكاتب من كتب والكاذب من كذب. فإذا نظرنا في قوله تعالى ﴿ .. **وليكتب بينكم كاتب بالعدل** ..﴾ البقرة ٢٨٢. نجد أن الكاتب فيها لايعني الانسان غير الأمي بالخط، بل يشير إلى التكرار أو مايسمى بالمهنة. فأي انسان يعرف الكتابة لايسمى كاتباً إلا إذا كانت هذه مهنته، كقولنا (اتحاد الكتاب العرب)، وكذلك النجار والسارق لايسمى نجاراً أو سارقاً إلا إذا غدت النجارة أو السرقة مهنته. ولهذا وضع العقوبة القصوى للسارق في قطع اليد، لكن سرقة واحدة لاتكفي لقطع اليد، لأنها لو كانت تكفي لقال (ومن يسرق فاقطعوا يده) لكنه قال ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**..﴾ المائدة ٣٨.

أما في القتل، فإن جريمة واحدة كافية لأن تعرض مرتكبها لحكم الإعدام، وذلك لأنه سبحانه قال ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم** .. ﴾ النساء ٩٣.

نعود إلى آية النور لنجد أن الزاني فيها لم يشتق من فعل نكح، ولنجد أن الاسم جاء على وزن فاعل شأن السارق والكاتب. ونفهم أنه اشتق من زن، كقولنا: زن الزنبور. وعكسها نز في الصوت والمعنى. وهذا يعني أن الشهوة زنت على الزاني حتى أنه تجاوز الخوف من الله والخوف من المجتمع. ففي تجاوز الخوف من الله ارتكب الفاحشة، وفي تجاوز الخوف من المجتمع قام بها علناً. ولهذا يكون الزنا = الفاحشة العلنية، ويأخذ المجتمع حقه من الزاني والزانية بالجلد. وهنا نلاحظ دقة التنزيل الحكيم، حين يحدثنا عن يوسف، بأنه صرف عنه الفحشاء، و لم يقل صرف عنه الزنا، لأنه كان مع امرأة العزيز وحدهما، ولايوجد شهداء.

قد يقول قائل: إن هناك ملايين من حالات الفاحشة، تحدث يومياً في العالم بين الرجال والنساء، لايقام عليها حد. أقول: لأنها فاحشة وليست زنا. وفي هذه الحالة يطلب الله من مرتكبيها التوبة والاستغفار، كما في قوله تعالى ﴿ **والذين إذا فعلوا**

فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا ا لله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا ا لله..﴾ آل عمران ١٣٥.

هذا بالنسبة للزانية والزاني، عندما تحدث العملية الجنسية (الفاحشة) من رجل أو امرأة بدون زواج أو ملك يمين فهما زان وزانية (أي الممارسة العلنية للجنس). فمن هما المشرك والمشركة ؟.

الفعل في الآية هو فعل النكاح، الذي ذكرت له الآية أربعة أطراف هي: الزاني والمشرك والزانية والمشركة. بينهم علاقة نكاح بين ذكر وأنثى لاهي باللواط ولاهي بالسحاق. مما يضعنا أمام أربعة احتمالات:

١ - زاني ينكح زانية ← فاحشة علنية

٢ - مشرك ينكح مشركة

٣ - زاني ينكح مشركة

٤ - مشرك ينكح زانية

فكيف نفرق بين الزاني والمشرك وبين الزانية والمشركة ؟.

لقد عرفنا الزانية والزاني فيما سبق، فإذا عرفنا المشرك والمشركة نكون قد وضعنا الأمور في نصابها، ونقرأ قوله تعالى :

- **﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك با لله، إن الشرك لظلم عظيم﴾** لقمان ١٣.

- **﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم، أولئك يدعون إلى النار وا لله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه..﴾** البقرة ٢٢١.

- **﴿ اشدد به أزري* وأشركه في أمري ﴾** طه ٣١، ٣٢.

- ﴿ .. فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث .. ﴾ النساء ١٢.
- ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء .. ﴾ الأنعام ١٣٩.
- ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم .. ﴾ الروم ٢٨.
- ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلا .. ﴾ الزمر ٢٩.

فالإشراك في الآية الأولى هو الإشراك بالله، والمشركة والمشرك في الآية الثانية مشركان بالله أيضاً وغير مؤمنين به. أما الآية الثالثة فالإشراك فيها إشراك بالأمر، أمر الرسالة وتبليغها. والإشراك في الآية الرابعة شركة في الإرث، وفي الخامسة شركة بما في بطون الأنعام، وفي السادسة شركة بالرزق، وفي السابعة شركة في الملكية.

يتضح لنا مما سبق من آيات، أن الشرك عند المشرك والمشركة، قد يعني إشراك طرف أو أطراف أخرى مع الله بألوهيته وربوبيته، وهذا هو الشرك بالله، وقد يعني إشراك طرف مع طرف آخر في الأمر أو التجارة أو الإرث أو الملكية.

والمشرك في آية النور زوج أشرك غير امرأته في فراش الزوجية، وأشرك امرأة أخرى غير زوجته في نكاحه وفرجه. والمشركة زوجة أشركت غير زوجها في فراشها وفرجها. ولايمكن أن يكون الشرك هنا شرك بالله كما يذهب البعض، إذ لو فهمنا الشرك في آية النور بمعنى الشرك بالله أو الكفر به، لاستحال تطبيق أحكام الآية على صعيد الواقع العملي، أما إذا فهمناه بالمعنى الذي أسلفناه، لوجدنا أنفسنا أمام خمسة حالات:

١ ـ زان	+ زانية		فاحشة علنية بين عازب وعازبة.
٢ ـ مشرك	+ مشركة		متزوج ومتزوجة، وبدون شهود.

٣ ـ زان + مشركة		يعتبر العازب الذي يرتكب الفاحشة مع متزوجة زانياً ولو لم يتوفر شهود. ويكفي إقامة البينة عليها ليجلد.
٤ ـ مشرك + زانية		تعتبر العازبة مع المتزوج هنا زانية ولو لم يتوفر شهود بل ببينات أخرى.
٥ ـ مشرك زان + مشركة زانية		حالة ارتكاب الفاحشة العلنية من قبل رجل متزوج وامرأة متزوجة، فينطبق عليهما لقب الزنا والشرك معاً.

وهذه هي الحالات التي تنطبق على كل أهل الأرض، ولا سادس لها، ويتضح لنا صدق الخبر في التنزيل الحكيم.

لقد نصت الآية على عقوبة الزاني والزانية، وحددتها بمئة جلدة، فما هي عقوبة المشرك والمشركة، أي المتزوج المحصن والمتزوجة المحصنة في حال ارتكابهما الفاحشة أو الزنا (الفاحشة العلنية)؟

يقول أصحاب الفقه : هي الرجم حتى الموت. ونقول نحن : هذا غير صحيح!! لأن رجم الزاني المحصن والزانية المحصنة ورد في شريعة موسى ثم ألغاه التنزيل الحكيم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إذا أخذنا بما يقول الفقهاء بأن عقوبة زنا المحصن هي الرجم حتى الموت، فكيف نطبق قوله تعالى : ﴿ .. **فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** .. ﴾ النساء ٢٥. وهل هناك نصف إعدام أو نصف موت ؟

نقول لقد وردت عقوبة المشرك والمشركة، كما نفهمهما في سورة النور، ولا جلد فيها ولا إعدام، في آيتين من التنزيل الحكيم:

- ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا ا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ..** ﴾ الطلاق ١. والعقوبة هنا هي الطلاق الفوري دون إحصاء عدة، والإخراج الفوري من البيت. وهذا واضح في الآية التي تتحدث عن الطلاق. و هل تطلق إلا المتزوجة ؟ ثم يقول تعالى ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ وفاحشة المتزوجة هنا هي الإشراك (الخيانة الزوجية).
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ..** ﴾ النساء ١٩.

و العقوبة هنا هي الحرمان من الحقوق المالية والاجتماعية، لتصبح كامل العقوبة في الآيتين : الطلاق والإخراج الفوري والحرمان من الحقوق المالية والاجتماعية ويتساوى في هذه العقوبة الزوج المشرك والزوجة المشركة.

وتكون الفاحشة مبينة، أي ثابتة واضحة :

١ - بالملاعنة من قبل طرف إلى آخر، ويتساوى في ذلك الزوج والزوجة إذا ضبط أحدهما الآخر في حالة فاحشة.

٢ - بإثبات الفاحشة بطرق أخرى كالتصوير والحمل، وماإلى ذلك من وسائل الإثبات التي زودنا بها التقدم العلمي، وذلك في حالة عدم الضبط المباشر، أي حالة الشك، وتحويل الشك إلى يقين، أو إلغاؤه.

و في الحالتين يتم الطلاق وفقدان الحقوق لارتكاب الفاحشة فقط دون أربعة شهود، أما الطرف الآخر فإن كان عازباً فهو زان وزانية وإن كان متزوجاً فهو مشرك أو مشركة وتنطبق عقوبة الزنا على الطرف الآخر.

٣ - إثبات الفاحشة بين متزوج ومتزوجة (مشرك ومشركة) ففي هذه الحالة يتم الطلاق الفوري مع فقدان الحقوق كاملة مضافاً إلى ذلك حد الزنا (الجلد) لأنه انطبق عليهما لقب زان مشرك وزانية مشركة معاً.

هنا نفهم معنى الفريضة، وكيف سهل الله على الناس الخروج من مآزق يقعون فيها. وبما أن للفاحشة علاقة بالجنس، والجنس غريزة، ومن الطيبات، وضبطها صعب جداً، وعلاقتها مع الله سبحانه وتعالى، فقد فتح الله فيها باب التوبة على مصراعيه بقوله تعالى ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ آل عمران ١٣٥.

فوق ذلك كله، لايجوز اتهام أحد بالزنا أو بالشرك (عدا الزوج والزوجة في الملاعنة)، وقد توعد سبحانه من يفعل ذلك بقوله تعالى ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ النور ٢٣.

بعد أن أنهت سورة النور الأحكام (الفرائض) المتعلقة بالجنس، انتقلت إلى الفرائض التالية:

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** ﴾ النور ٢٧.
- ﴿ **فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم، والله بما تعملون عليم** ﴾ النور ٢٨.
- ﴿ **ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ النور ٢٩.

هذه الآيات هي من المثل العليا، جاءت بعد المحافظة على العفة من الزنا والاشراك، وخفف الله فيها الإحراج عن الناس في بيوتهم. فمنع الناس من دخول بيوت

الآخـرين حتى يتـأكدوا مـن وجود أحـد فيها، و أنهـا غير خالية، ثم إبداء السـلام لأهل هذه البيـوت، أي الدخـول كأصدقـاء وبشـكل مهـذب لبـق، وليـس بشـكل عدواني كأعداء. وهذه فريضة تتيح للنـاس الحفـاظ علـى خصوصيتهـم المنزليـة، وترفـع عنهم الحرج.

فإذا كان لايوجد أحد في البيوت، فلا يدخل إليها ﴿ .. حتى يؤذن لكـم .. ﴾ إلا مع قدوم صاحب البيت أو جيرانه أو من ينوب عنه. وكذلك في حالة أتى أحدنا بيتاً بدون موعد، وصاحبه في وضع لايمكنه من استقبال الضيوف، فقد رفع تعالى الحرج عن صاحب البيت بأن يأمر القادم بالرجوع وعدم استقباله.

ثم رفع سبحانه الجناح عمن يريد دخـول بيـوت غـير مسـكونة، لـه فيهـا متـاع كأمانة أو نسيان، وهذا أيضا فريضة من الله سبحانه لرفع الحرج.

ثم جاءت الفرائض في اللباس، لرفع الحرج عن الناس لا لإعناتهم. فعلينا أن نعلم عندما نتعامل مع التنزيل الحكيم أنه جاء لأهل الأرض جميعاً، وأن آياته أكبر بكثـير مـن شيء اسمه أسباب النزول، يزعم أصحابه إن الآية ٣١ من سورة النـور، نزلـت في امـرأة اسمها أسماء بنت مرثد، استقبحت دخول النساء عليها غير موتـزرات، باديـات الصـدور والذوائب.

فالله سبحانه أكبر من أن يتبع بآياته مزاج أسماء أو غير أسمـاء. والآيـات جـاءت لأهل الأرض، ولاعلاقة لأسماء ولا لغيرها في ذلك. وسيان علمنا أنها نزلت في أسمـاء أم لم نعلم. فحكم الآية قطعي الثبـوت مـن الله سـبحانه، أمـا الأسـباب فظنيـة، ولايخضـع القطعي للظني.

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهـم ذلـك أزكـى لهـم، إن الله خبير بما يصنعون ﴾ النور ٣٠.

هذه الآية تعطي الحد الأدنى للباس الرجل. ونلاحظ كيف أتبع تعالى قوله ﴿**يغضوا من أبصارهم**﴾ بقوله ﴿ **ويحفظوا فروجهم** ﴾ . فقد جاء الغض من البصر عن الفروج بالنسبة للرجال، وبما أن الأحوال الجوية مختلفة عند أهل الأرض، من الحر الشديد إلى البرد القارس، فقد جاء الحد الأدنى للباس الرجل في تغطية الفرج (مايوه سباحة). وهذه فريضة للرجال (منع أن يراه الآخرون عارياً تماماً)، أي يستطيع الرجل أن يسبح بمايوه سباحة فقط.

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ..** ﴾ النور ٣١.

ولقد تم شرح هذه الآية تفصيلا في "الكتاب والقرآن / قراءة معاصرة" مع بيان المقصود بالجيوب والزينة. إلا أننا نلاحظ أنها فريضة للمرأة كيلا تحرج أمام الآخرين. ونلاحظ أنها بدأت كالآية السابقة بقوله تعالى ﴿ **يغضضن من أبصارهن** ﴾ وتبعها بقوله ﴿ **ويحفظن فروجهن** ﴾، ثم ينتقل إلى ضرب الخمر على الجيوب، التي قد تكون هي الفرج الذي يحفظ من أبصار الآخرين، عدا من ورد ذكرهم في الآية ومن بينهم بعولتهن وما ملكت أيمانهن.

فإذا رجعنا إلى سورة (المؤمنون)، نراها تقول: ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ المؤمنون ٥،٦. ونرى طبقاً لهذه الآية، بشكل لالبس فيه، أنها تستثني من حفظ الفرج الزوج وملك اليمين. فالمرأة لاتحفظ فرجها أمام زوجها أو أمام ملك يمينها، وكذلك الرجل. فآية النور تذكر ﴿ **أو ماملكت أيمانهن** ﴾ وهذا يعني أن ملك اليمين يرى مالكته عارية تماماً فلا تحفظ فرجها عنه.

أما الآيتان ٣٢، ٣٣ من سورة النور، وهما من الفرائض، فقد تم شرحهما في بحث العباد والعبيد، فانظرهما هناك.

نصل بعدها إلى قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض، كذلك يبين ا لله لكم الآيات، وا لله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، كذلك يبين ا لله لكم آياته، وا لله عليم حكيم** ﴾ النور ٥٨، ٥٩.

يعلمنا ا لله في هذه الآية أدب الدخول إلى غرف النوم. أي على سكان البيت من الأطفال أن يستأذنوا عند دخول غرف النوم على الوالدين، وهذه فريضة جاءت لترفع الحرج عن الوالدين.

- ﴿ **والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ..** ﴾ النور ٦٠.

في هذه الآية أعطى ا لله فريضة (منحة وعطاء) للنساء المقعدات اللاتي لاأمل لهن بالنكاح (زواج / ملك يمين)، وبحاجة إلى عناية. وبما أنهن فقدن الأمل في النكاح فكل أهل الأرض بالنسبة إليهن في حكم الأب والأخ، ولا حرج عليهن بوضع ثيابهن، وهذه فريضة (هبة) من ا لله.

- ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً، فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند ا لله مباركة طيبة، كذلك يبين ا لله لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ النور ٦١.

ونلاحظ في الآية ثلاثة أنواع من الحرج: حرج الأعمى، وحرج الأعرج، وحرج المريض. وكل منها يختلف عن الآخر. فالأعرج من فعل عرج، وتعني المسافر الذي يعرج في طريقه على بيت من البيوت، بعد أن تتعطل السيارة، ويطلب منهم الأكل ولو كانوا غرباء تماماً بالنسبة إليه. وهذا تماماً ماحصل مع موسى والرجل الصالح في قوله تعالى ﴿ **فانطلقاحتىإذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ..** ﴾ الكهف ٧٧. هنا تنطبق على موسى والرجل الصالح حالة الأعرج، أما الأعرج في المشي لعلة في إحدى قدميه فلا نرى لها مكاناً في هذا السياق.

هناك ثلاثة إحراجات يختلف بعضها عن بعض عند الأعمى والأعرج والمريض تتعلق كلها بدخول البيوت والأكل فيها. فعددت الآية البيوت التي سمح الله لنا أن نأكل فيها بدون استئذان، أي أن علينا في غيرها من البيوت أن نستأذن إذا أردنا الأكل، ولايحق لنا الذهاب إلى المطبخ وفتح الثلاجة، أو الجلوس على طعام أهل البيت إلا بإذنهم، أي أنه سبحانه فرض علينا أمراً، هو بذاته فريضة للناس وعطاء منه لرفع الحرج عنهم. واستثنى من كل ذلك الأعمى والأعرج والمريض. لكنه اشترط على الجميع عند دخول البيوت أن يدخلوا مسالمين لاعدوانيين. فقال ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾. وهذا لايعني أبداً أن نلقي التحية على أنفسنا عند الدخول إلى بيوت غير مسكونة، لأننا ممنوعين أصلاً من دخول هذه البيوت إلا إذا كان فيها متاع لنا (النور ٢٩).

أما الوصية، فقد أتت من فعل وصى. والواو والصاد والحرف المعتل أصل يدل على وصل شيء بشيء. ووصيت الشيء وصلته. ويقال وطئنا أرضا واصية، أي أن نبتها متصل قد امتلأت منه. ووصيت الليل بالنهار وصلتهما، وذلك في عمل تعمله. والوصية في هذا القياس كأنها كلام يوصى أن يوصل وفيه التواصل.

وهكذا نفهم أن الوصية والوصايا في التنزيل الحكيم تعليمات تحمل معنى التواصل، أي لاتحمل المفهوم الموضعي الزماني والمكاني. وتحمل معنى الشمول. فعندما

تأتي الوصية، يعمل بهـا في حينهـا، وتحمـل صفـة التواصـل بعـد ذلـك. ولهـذا نـرى أن الوصايا حملت معنى التراكم التاريخي. فالوفاء بالكيل والميـزان جـاء لشـعيب، وهـو مـن الوصايا، لكنه تواصل وانتشر زماناً ومكاناً، ويعمل به حتى اليوم. والوصايا مـن أركـان الإسلام، وهي التعاليم المشـتركة بـين كـل الرسـالات والنبـوات مـن حيـث أنهـا كلهـا إسلام. وهذا واضح لالبس فيه بقوله تعالى **﴿ شرع لكم من الدين ما وصـى بـه نوحـاً والذي أوحينا إليك وما وصينا بـه إبراهيـم وموسـى وعيسـى، أن أقيمـوا الديـن ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه .. ﴾** الشورى ١٣.

ونلاحظ ما يلي:

١ - شرع الله من الدين.

٢ - ماوصى به نوحاً.

٣ - وما أوحي إلى محمد (ص).

٤ - وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى.

ونفهم أن الدين المشروع من الله هو التنزيل الحكيم بما فيه من وصايا وصى بهـا سبحانه الرسل المذكورين. ونفهم أن الوصايا جزء لايتجزأ مـن الديـن الإسـلامي الـذي بدأ بنوح واكتمل بمحمد (ص). ونفهم أنها القاسم المشترك الذي يوحد بين أتباع محمد وعيسى وموسى، إضافة إلى بقية الناس التي تؤمن بالله واليوم الآخـر، بغـض النظـر عـن الاسم الذي يطلق عليها.

لهذا نرى أن الوصايا العشر تأتي على رأس الوصايـا المشـار إليهـا في الآيـة. وقـد أطلق عليها التنزيل الحكيم مصطلح الفرقـان، فـوردت في الأنعـام ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ونرى فيها مثلا عليا إضافية: جاءت إلى محمـد (ص) ليكتمـل بهـا الاسـلام (إنمـا بعثـت لأتمم مكارم الأخلاق).

١ - التوحيد ←—— جاء إلى كل الرسل من نوح إلى محمد (ص)

﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ الزمر ٦٥.

٢ - بر الوالدين ←—— جاءت إلى نوح وإبراهيم وموسى.

٣ - ولا تقتلوا أولادكم

٤ - ولاتقربوا الفواحش ←—— اللواط جاء للوط، أضيف إليه الزنا عند موسى، وانتهى بالسحاق عند محمد (ص).

٥ - قتل النفس ←—— جاء لموسى.

٦ - ولاتقربوا مال اليتيم

٧ - وأوفوا الكيل والميزان

٨ - وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى

٩ - وبعهد الله أوفوا

١٠ - اتباع هذه الوصايا كاملة غير منقوصة، وهذا هو الصراط المستقيم (الفرقان) الذي جاء إلى موسى، وهو الصراط المستقيم الذي جاء إلى محمد (ص) مع تعاليم إضافية فيها يعبد الله ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ يس ٦١.

فلننظر كيف جاءت الوصية في التنزيل الحكيم. فقد وردت في ٣٢ موضعاً منه، في ٢١ آية :

- ١٣٢ البقرة / ١٣ الشورى / ١٤٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ الأنعام / ١١، ١٢، ١٣١ النساء / ٨ العنكبوت / ١٤ لقمان / ٥٣ الذاريات / ١٥ الأحقاف / ٣١ مريم / ١٧ البلد / ١٠٦ المائدة / ٣ العصر / ١٨٠، ١٨٢، ٢٤٠ البقرة / ٥٠ يس.

ونقف عند قوله تعالى :

- ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن ا لله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ البقرة ١٣٢.

وتذكرنا خاتمة الآية بقوله تعالى :

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ آل عمران ١٠٢.

ونربط بين الآيتين، وبين قوله تعالى :

- ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم ..** ﴾ الشورى ١٣.

لنستنتج أن الوصايا هي الجزء الأساسي من الإسلام، وعلى رأسها التوحيد. وأن التقوىموجودة فيها ، متحققة في الأخذ بها.ونفهم أن كل ما جاء تحت عنوان "اعبدوا ا لله" وتحت عنوان "اتقوا ا لله" هو من الوصايا، ولهذا أتبع البقرة ١٣٢ بقوله :

- ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ البقرة ١٣٣.

إلا أن المتأمل في آيات الوصية، يجدها تنقسم إلى قسمين، قسم الفاعل الموصي فيها هو ا لله، وقسم آخر الفاعل الموصي هو العباد. فا لله يوصي بالتوحيد وبالمثل العليا وبالتقوى وبالوالدين وبالصلاة والزكاة وبالأولاد.

أما العباد فقسمان، العباد المصطفون (أي الأنبياء والرسل)، وهم الذين نقلوا ماأوصى ا لله به إلى الناس، كالوصية بالتوحيد وبعبادة ا لله التي أوصى إبراهيم ويعقوب بنيهم بها (البقرة ١٣٢). والقسم الثاني هو بقية العباد من الخلق، العاصين الذين يتواصون بتكذيب الرسل، والمطيعين الذين يتواصون بالرحمة والحق والصبر، والذين

كتب ا لله عليهم الوصية في النساء ١١، ١٢ وفي البقرة ١٨٠، ١٨٢، ٢٤٠ وفي المائدة ١٠٦. وهذا القسم الأخير هو هدف بحثنا الآن.

يقول تعالى:

- ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، حقاً على المتقين** ﴾ البقرة ١٨٠. و نفهم أن الوصية التي كتبها ا لله على من يحضره الموت هي حق على المتقين.

وهذا منسوخ بزعمهم بآية الميراث وبمبدأ لاوصية لوارث.

- ﴿ **فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه، إن ا لله غفور رحيم** ﴾ البقرة ١٨٢. (الميل والإنحراف عن الحق = إثم أي بأن لايوصي).

المفسرون: إذا زاد عن الثلث.

- ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف، وا لله عزيز حكيم** ﴾ البقرة ٢٤٠.

الوصية منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول منسوخ بآية أربعة أشهر.

- ﴿ **يوصيكم ا لله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السدس، من بعد وصية يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً، فريضة من ا لله، إن ا لله كان عليماً حكيما** ﴾ النساء ١١.

السيوطي: يوصيكم يأمركم. إذا اجتمعتا معه فلهما النصف وله النصف. وإن كانت واحدة فله الثلثان ولها الثلث، فإن كانتا اثنتين فللكل الثلث بموجب النساء ١٧٦. وألحق بالولد ولد الإبن وبالأب الجد.

- ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار، وصية من الله، والله عليم حليم**﴾ النساء ١٢.

وخصت السنة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين أو رق. انظر الأخوة والأخوات من الأم أو من الأب أو من كليهماومشاكلها كثيرة.

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ..** ﴾ المائدة ١٠٦.

فإذا تأملنا في مفهوم الوصية في آيات الإرث نجد أنها أمر من الله يحمل صيغة التواصل. والوصايا أصلاً لاتكون إلا للأحياء. فالحي يوصي ويوصى. ووصايا رب العالمين جاءت للأحياء فقط وليس للأموات، لأن الأموات غير مطلوب منهم التوحيد وبر الوالدين والوفاء بالعقود والعهود وإقامة الكيل والميزان بالقسط، فهذا كله مطلوب من الأحياء فقط.

ونفهم أن الله سبحانه حين يوصينا في أولادنا بأن للذكر مثل حظ الأنثيين، فهي وصية من حي إلى أحياء، ومضمون الوصية يفترض أن يعمل به الأحياء الذين نزلت إليهم الوصية وليس للأموات، لسبب بسيط واضح، هو أن الأموات ليس لهم قيومية على مالهم بعد الوفاة. لكننا رأينا فقه المواريث ينظر إلى مضمون الوصية في مطلع النساء ١١، فيطبقها ويعمل بها بعد الوفاة!!

من هنا فنحن نتساءل: هل كان القصد من وصية ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين..**﴾ هو الإرث والتركة كما ذهب الفقهاء؟ وهل لنا أن نسحب قوله تعالى ﴿**.. فلهن ثلثا ماترك ..**﴾ على مطلع الآية؟.

إننا نلاحظ أن التنزيل الحكيم يستخدم عدداً من المصطلحات في هذا الباب هي: الحظ والنصيب والتركة، ويضعها مرة تحت عنوان الفريضة ومرة تحت عنوان الوصية. ولاشك أبداً في أن الحظ شيء والنصيب شيء والتركة شيء ثالث، أي أن بينها فروقاً لايمكن معها اعتبارها شيئاً واحداً.

يقول تعالى :

- ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر، نصيباً مفروضا** ﴾ النساء ٧.

ونلاحظ هنا أمرين: الأول، أن الآية جاءت بعد آية تتحدث عن اليتامى القاصرين الذين لم يبلغوا أشدهم، وورثوا ماآل إليهم من تركة أبيهم. فجاءت هذه الآية تكمل الصورة، في بيان أن ثمة حصة للرجال والنساء الذين بلغوا أشدهم في مايتركه الوالدان والأقربون، وأن هذه الحصة عطاء وفريضة وهبة. والثاني أن هذه الحصة (النصيب) جزء من تركة المتوفى.

ويقول تعالى :

- ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ..** ﴾ النساء ١١.

ونقف عند قوله (حظ) ونتتبع هذا اللفظ في التنزيل الحكيم، لنجده يتكرر سبع مرات في سبع آيات هي:

- ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ..** ﴾ النساء ١١.
- ﴿ **..وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين..** ﴾ النساء ١٧٦.
- ﴿ **.. يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ القصص ٧٩.
- ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ فصلت ٣٥.
- ﴿ **يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، ولهم عذاب عظيم** ﴾ آل عمران ١٧٦.
- ﴿ **.. يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ..** ﴾ المائدة ١٣.
- ﴿ **.. أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ..** ﴾ المائدة ١٤.

ويتضح أمامنا أن الحظ شيء لاعلاقة له بالإرث ولا بالتركة، قد يقترب أحياناً في معناه من "القِسْم" كما في الآيتين الأخيرتين، لكن له عمومية نراها واضحة في الآيات تشمل: القسم من الوصية (النساء ١١، ١٧٦) والغنى والثروة (القصص ٧٩) والصبر والتقوى (فصلت ٣٥) والحصة الكريمة من الثواب (آل عمران ١٧٦) القسم من الذكر (المائدة ١٣، ١٤).

أما النصيب الوارد في النساء ٧، فهو نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، أي هو الحصة من التركة.

ونفهم من هذا كله، أنه سبحانه حين يوصينا في أولادنا أن للذكر مثل حظ الأنثيين،فإن طاعتنا تكون في تنفيذ وصيته هذه ونحن أحياء بكامل قوانا العقلية والبدنية. ونفهم أن قوله للذكر مثل حظ الأنثيين، هو الحد الذي لايجوز أن نتجاوزه في تنفيذنا لهذه الوصية، وهذا يعني أن لنا أن نميز في الإنفاق ونحن أحياء على أولادنا ضمن حدود

للذكر مثل حظ الأنثيين، أما بعد الوفاة وفي حالة (مما ترك الوالدان والأقربون) فيتم حساب التركة وتقسم بين الذكور والاناث بالتساوي.

ونفهم أخيراً أن استخدامنا لمعيار وضعه الله تعالى لنا في أمر دنيوي ونحن أحياء، كأساس لتوزيع التركة بموجبه بعد الممات، أمر غير صحيح. وأن كل توزيع للتركات تم حتى يومنا هذا، على أساس أن للذكر مثل حظ الأنثيين توزيع مغلوط، لم يطبق فيه حكم التنزيل الحكيم.

فإذا سأل سائل: وكيف عرفت أن حكم التنزيل هو تقسيم التركة بالتساوي بين الذكور والإناث. أقول: من قراءة قوله تعالى:

- ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شيء عليم** ﴾ النساء ١٧٦.

ونلاحظ أن الآية هي آخر آية في سورة النساء، ويقول البراء بن عازب إنها آخر آية نزلت في الفرائض. ونلاحظ أنها الآية الوحيدة من آيات الإرث التي نص تعالى فيها صراحة على أن للذكر مثل حظ الأنثيين، ولو أن مبدأ "للذكر مثل حظ الأنثيين" هو المقصود اعتماداً وتطبيقاً في التركة بجميع حالاتها لما ذكرها هنا في الكلالة حصراً. فإذا أضفنا إلى ذلك أن مبدأ " للذكر مثل حظ الأنثيين" الوارد في مطلع آية النساء ١١، لاعلاقة له بتركة ولا بإرث، فهمنا أن القسمة في التركة بين الأولاد متساوية في الأصل، الذكر كالأنثى . لأنه في حالة وجود ولد للمتوفى، عامل الأب كالأم بالتساوي، وفي حال عدم وجود الولد أعطى للأب ضعف الأم كحدود.

نعود إلى النساء ١١، لننظر في تتمة الآية المتعلقة بالتركة والإرث: ﴿ .. **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف ..** ﴾ . ونلاحظ أن آية الكلالة، تقر مبدأ "للذكر مثل حظ الأنثيين" في حالة كان إخوة المتوفى رجالا ونساء. أما في النساء ١١ فالحديث عن المتوفى الذي يترك وراءه أولادا نساء. أي أن هذا التقسيم (ثلثا ماترك) و(النصف) يخص حالة المتوفى عن أولاد إناث نساء.

١ ـ فإن كن نساء ..

٢ ـ العدد اثنتان ..

٣ ـ العدد فوق اثنتين والقسمة ثلثا ماترك

٤ ـ العدد واحدة والقسمة نصف ماترك.

وتواجهنا أسئلة هي:

١ ـ من يأخذ الثلث الثالث من التركة، في حالة "نساء فوق اثنتين" ؟

٢ ـ من يأخذ النصف الثاني في حالة "إن كانت واحدة" ؟

٣ ـ كيف نقسم التركة في حالة "كانتا اثنتين"، وهي حالة غير منصوص عنها في هذه الآية ؟.

لقد أجاب الفقهاء على السؤال الثالث، اتكاء على ماورد في آية الكلالة "فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك" !!

ونحن نسأل هل يجوز تطبيق قسمة وردت في حالة عدم وجود أولاد، وتخص الأختين، على حالة يوجد فيها أولاد نساء، وتخص الإبنتين ؟ وهل المهم هو إيجاد عدد (اثنتين)، أينما وقع، ومهما كانت الحالة، لافرق إن كانتا ابنتين أو أختين ؟.

ونرى أنه لو كان المقصود هو ماذهب إليه الفقهاء، لما كان عسيرا عليه سبحانه أن يقول "فإن كن نساء فوق واحدة فلهن ثلثا ماترك"، لكنه سبحانه قال ﴿ ..**فإن كن**

نساء فوق اثنتين .. ﴾ وهو يعني بوضوح أن ثمة حالات يكون فيها للمتوفى ابنتان امرأتان لاتأخذان ثلثي ماترك، فإذا تبين لنا إمكان وجود حالات من هذا النوع، وضحت لنا الدقة المتناهية في التنزيل الحكيم التي لاتفوقها دقة في الكون، وثبت لدينا أن حالة الابنتين غير حالة الأختين. ولكي نفهم ذلك لابد من الحديث عن مفهوم المجموعات والزمر، وعن المنتمي واللامنتمي، في الرياضيات الحديثة.

لدينا مجموعة A، تتألف من عناصر متجانسة في التعريف، ولدينا مجموعة B، تتألف من عناصر متجانسة في التعريف، لكن هذا التعريف لاينطبق على كل عناصر المجموعة A، بل ينطبق على جزء منها فقط. وهذا يعني أن:

كل عناصر المجموعة B موجودة حكما ضمن المجموعة A، وتشكل جزءا منها بالضرورة (زمرة)، لكن العكس غير صحيح، فعناصر المجموعة A غير موجودة ضمن المجموعة B. أي أن المجموعة A تتألف من زمرتين: الزمرة C والزمرة D.

مجموعة B —— تنتمي ——← إلى المجموعة A

زمرة C في مجموعة A —— تنتمي ——← إلى المجموعة B

زمرة D في مجموعة A —— لاتنتمي ——← إلى المجموعة B

في حالتنا هذه، المجموعة A هي الإناث جمع أنثى، وتعني الجنس الذي يتحدد لحظة لقاح الحيوان المنوي للبويضة، بغض لنظر عن العمر أكان يوما واحدا أم ستين سنة، وبغض النظر عن الوضع الإجتماعي عازبة كانت أم متزوجة. فالتنزيل الحكيم حين يذكر الذكور والإناث، فهو يعني الجنس، كما في قوله تعالى.

- ﴿ **لله ملك السماوات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير** ﴾ الشورى ٤٩، ٥٠.
- ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم** ﴾ النحل ٥٨.

أما بعد أن تبلغ الأنثى سن النضوج الجنسي، فتدخل في المجموعة B، بالإضافة إلى وجودها في المجموعة A. أي تدخل في الزمرة C من المجموعة A. أي أنها أنثى (المجموعة A) + امرأة ناضجة (المجموعة B التي هي الزمرة C من المجموعة A). وينتج لدينا أن: كل امرأة أنثى، لكن العكس غير صحيح، فليست كل أنثى امرأة.

ونفتح التنزيل الحكيم، فنراه استعمل لفظ النساء (جمع امرأة) للدلالة على الإناث الناضجات جنسيا، عازبة كانت أم متزوجة، ففي حالة العازبة قال تعالى:

- ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ..** ﴾ النساء ٣.

ولو كانت النساء هنا جمع أنثى، لأمكن نكاح التي عمرها شهر واحد، وهذا محال. أما في حالة المرأة المتزوجة، فقد قال تعالى:

- ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ..** ﴾ الطلاق ١.

وهل تطلق إلا المرأة المتزوجة التي مورس معها النكاح ؟ وهل يمكن أن تتزوج الأنثى بعمر شهر مثلا ثم تطلق ؟.

وعن الصداق قال تعالى :

- ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ..** ﴾ النساء ٤.

وعن حقوق الزوجة قال تعالى :

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ..** ﴾ النساء ١٩.

وعن علاقة بني إسرائيل بفرعون قال لهم تعالى :

- ﴿ .. **يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ الأعراف ١٤١.

أي أن الفراعنة كانوا يقتلون الأولاد الذكور ويبقون على الإناث، حتى إذا بلغن مبلغ النساء استحيوهن.

من هنا نفهم أن الآية ٣ من سورة النساء، تحكي عن التعددية الزوجية، وتشترط أن تكون الزوجة الثانية أرملة عندها أيتام، فالشرط وجوابه واضحان في الآية.

أما مايقوله البعض من أن "يتامى النساء" تعني "اليتامى من النساء" أو "النساء اليتيمات" فأمر يبعث العجب والضحك في آن واحد. يقول تعالى:

- ﴿ **ويستفتونك في النساء، قل ا لله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط، وما تفعلوا من خير فإن ا لله كان به عليما** ﴾ النساء ١٢٧.

لقد قلنا إن النساء هنا جمع امرأة، والمرأة هي الأنثى الناضجة جنسيا، عازبة كانت أم متزوجة، بغض النظر عن العمر، وهذا يخرجها من دائرة اليتم التي شرحها تعالى بقوله:

- ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ..** ﴾ النساء [illegible].

يحدد تعالى في هذه الآية حدود نهاية دائرة اليتيم، بأنها بلوغ النكاح، فالقاصر اليتيم الذي يبلغ النكاح والرشد يمكنه أن يتصرف في أمواله، فلا يعود يتيما. من هنا نفهم أنه لا وجود لما يسمى "نساء يتيمات"، وإلا اقتضى ذلك وجود رجال أيتام، ولشملت حالة اليتم معظم أهل الأرض.

نحن لانعجب من أن يذهب الإمام السيوطي في تفسيره، نقلاً عمن سبقه، إلى أن يتامى النساء تعني النساء اليتيمات، فيصبح لزاماً عليه أن يوظف الآية في باب الإرث، لافتقار أرضيته العلمية آنذاك إلى علم المجموعات والزمر الذي أشرنا إليه من جهة، ولنظرته التقديسية إلى ماقاله السلف بغض النظر عن خطئه وصوابه من جهة أخرى، ولكننا نعجب ونضحك في آن واحد، من أن يعتمد هذا الفهم في عصرنا هذا، مؤلف يزعم أنه من أساطين القانون والتشريع واللغة، فلا حول ولاقوة إلا با لله !!

نعود إلى قوله تعالى ﴿ .. **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف ..** ﴾ .

بعد أن أوضحنا :

١ ـ أن مبدأ "للذكر مثل حظ الأنثيين" وصية نطبقها ونحن أحياء على أولادنا في الحياة الدنيا. أما بعد الممات فهي تركة تقسم مرة واحدة بالتساوي الذكر كالأنثى، عدا الحالات الاستثنائية التي ذكرها تعالى.

٢ ـ الآية تحكي عن حالة استثنائية، تقسم فيها تركة المتوفى بين أولاده الإناث.

لقد تساءلنا : فلمن يذهب الثلث الثالث والنصف الباقي ؟. ورأينا الفقهاء يعطونها للأقارب، حين اعتبروا الأنثى امرأة والإمرأة أنثى. ولكننا لو فرقنا بينهما في ضوء ماأسلفنا، لوضح لنا ماأراده تعالى بقوله، ولزال الالتباس.

تعالوا مرة أخرى ننظر في قوله تعالى ﴿ .. **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ..** ﴾. نجد أنه يتحدث عن التأنيث في فعل (كن) وعن التأنيث في لفظة (اثنتين) وعن التأنيث في (فلهن) [١]. فما فائدة قوله (نساء) إن كان القصد هو التأنيث فقط؟ ألا تصبح اللفظة هنا حشوا لالزوم له مع هذا الحشد من أدلة التأنيث قبلها وبعدها؟. إذا

---

(١) ـ انظر كيف فطن النحاة في عصرهم إلى ما لم يفطن إليه أساطين القانون واللغة في عصرنا، حين سموا النون نون النسوة والتاء تاء التأنيث، إشارة إلى أن نون النسوة تدل على عاقل بالغ مكلف ناضج.

اعتبرنا أن النساء هن الإناث، ألا يمكن في ضوء ذلك حذف كلمة النساء دون أن ينقص المعنى شعرة واحدة ؟.

أما حين نفهم أن النساء تعني الإناث البالغات سن النكاح، هنا يصبح للكلمة دور لايصح المعنى بدونه، يعطي شرطا إضافيا يجب أن تتمتع به الإناث ليصح استحقاقهن للنصيب الوارد في الآية، وهو بلوغ سن الرشد. ونفهم من هذا أن التنزيل الحكيم ميز بدقة في حالة الإناث بين البالغ والقاصر، هنا يتبين لنا أين ينهب الثلث الثالث والنصف الثاني. ويتبين لنا لماذا بدأ الآية ١٣ من النساء بقوله ﴿ **تلك حدود ا لله..** ﴾ بعد أن شرح في الآيتين ١١ و ١٢ ماشاء من حالات، وبين لكل حالة ماشاء من أنصبة في حدودها العليا. أي أنه إذا ترك المتوفى إناثاً نساء فوق اثنتين (٣، ٤، ٥، ٦...) فلا يجوز لهن أكثر من ثلثي التركة في حال وجود أنثى قاصرة.

البنات بغض النظر عن العمر	إناث قاصرات	إناث بالغات	الصيب من الارث أوالتركة
١			تأخذ كل التركة
٢	١	١	تأخذان التركة مناصفة بالتساوي ﴿ .. **وإن كانت واحدة فلها النصف** .. ﴾.
٢	-	٢	
٢	٢	-	
٣	٣	-	بالتساوي لعدم وجود بالغات نساء.
٣	-	٣	بالتساوي لعدم وجود إناث قاصرات.
٣	١	٢	للقاصر النصف.و لكل من البالغتين الربع. (و ان كانت واحدة فلها النصف)
٣	٢	١	بالتساوي، لأن القاصرتين أخذتا الثلثين، وبقي للبالغ الثلث.
٤	٤	-	بالتساوي، لكل أنثى قاصر الربع.
٤	-	٤	بالتساوي، لكل امرأة بالغة الربع.
٤	٢	٢	بالتساوي، فحصة البالغتين لم تزد بمجموعها عن النصف (حدود).

البنات بغض النظر عن العمر	إناث قاصرات	إناث بالغات	النصيب من الإرث أو التركة
٤	٣	١	بالتساوي، فحصة البالغ لم تزد عن الربع.
٤	١	٣	للقاصر الثلث، ويقسم الثلثان على البالغات الثلاث[1] .
٥	٥	-	بالتساوي لكل واحدة الخمس.
٥	-	٥	بالتساوي لكل واحدة الخمس.
٥	٤	١	بالتساوي لكل واحدة الخمس.
٥	١	٤	القاصر الثلث، والثلثان للبالغات الأربع (تمييز العناصر) وحد حصة البالغات بحيث لاتزيد عن الثلثين بأي حال.
٥	٢	٣	بالتساوي، فحصة البالغات ٣/٥ أو ٦٠٪ وهي أقل من ٢/٣ أو ٦٦,٦٪.
٥	٣	٢	بالتساوي، فحصة البالغين ٢/٥ وهي أقل من ٢/٣.
٦	-	٦	بالتساوي، لكل واحدة السدس.
٦	٦	-	بالتساوي، لكل واحدة السدس.
٦	١	٥	للقاصر الثلث، والثلثان للبالغات الخمس.
٦	٥	١	بالتساوي، فحصة البالغة السدس.
٦	٣	٣	بالتساوي، فحصص البالغات ٣/٦ وهي أقل من ٢/٣.
٦	٢	٤	بالتساوي، فحصص البالغات ٤/٦ أي ٢/٣ وهو الحد الأعلى.
٦	٤	٢	بالتساوي، فحصتا البالغتين ٢/٦ وهي أقل من ٢/٣.

(١) ـ هنا نلاحظ أن حصة النساء البالغات لاتنقص عن القسمة المتساوية إلا إذا كان عددهن فوق اثنتين، لأنه لو تم التوزيع بالتساوي لأخذت البالغ الربع فيصبح المجموع ٣/٤ وهو أكبر من ٢/٣ الحد الأعلى الذي نصت عليه الآية.

ونلاحظ الملاحظات التالية:

١ ـ إننا لانحتاج إلى إنقاص حصة البالغات إلا إذا كن فوق اثنتين.

٢ ـ في حالة اثنتين بالغتين (نساء) مع وجود قاصر واحدة، فحصتهما النصف، وهي أقل من الثلثين بالضرورة في حال التوزيع بالتساوي.

٣ ـ إن التنزيل الحكيم ميز القاصر عن البالغ، في وجود عدد كبير من البالغات، وعدد صغير من القاصرات.

٤ ـ يتم تطبيق الحد الأعلى الوارد في قوله تعالى ﴿ **فلهن ثلثا ماترك** ﴾ في حال:

٤	=	١ قاصر	+	٣ بالغات نساء
٥	=	١ قاصر	+	٤ بالغات نساء
٦	=	١ قاصر	+	٥ بالغات نساء
٧	=	١ قاصر	+	٦ بالغات نساء
٧	=	٢ قاصر	+	٥ بالغات نساء
٨	=	١ قاصر	+	٧ بالغات نساء
٨	=	٢ قاصر	+	٦ بالغات نساء
٩	=	١ قاصر	+	٨ بالغات نساء
٩	=	٢ قاصر	+	٧ بالغات نساء
١٠	=	١ قاصر	+	٩ بالغات نساء
١٠	=	٢ قاصر	+	٨ بالغات نساء
١٠	=	٣ قاصرات	+	٧ بالغات نساء

وهكذا دواليك .. أما بقية الحالات فالتوزيع بالتساوي، وهذا يعني أن من أنجب أولاداً إناثاً، ترثه بناته، وليس للأعمام أو الأخوال شيء.

لقد رأينا وسمعنا كيف أعطى الفقهاء، نصف التركة لإبنة المتوفى الوحيدة ووزعوا الباقي على أعمامها. وكيف أعطوا ثلثي التركة لإبنتي المتوفى، ووزعوا الثلث الثالث على الأقارب.

ونحن لسنا بصدد تفصيل أنصبة الإرث كما نراها من واقع التنزيل الحكيم، فلهذا موضع آخر، ودراسة مستفيضة، هي قيد الإتمام، لكننا نشير إلى أنه سبحانه قال في سياق آيات الإرث من سورة النساء :

- ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيرا** ﴾ النساء ١٠.

ونشير إلى ماوجدناه في آيات التنزيل الحكيم واضحاً، فهو لايذكر الإخوة (إخوة المتوفى) إلا في حال عدم وجود أولاد (ذكور وإناث) بتاتاً. كما وجدنا أن الوارثين هم دائماً:

١ - الأولاد، ذكورا أم إناثاً، أم ذكوراً وإناثاً، بغض النظر عن العدد.

٢ - الآباء، وهذا يشمل الجد صعوداً.

٣ - الأبناء، وهذا يشمل الحفيد نزولا.

٤ - الزوج (الزوج والزوجة).

ولم نجد ذكراً لآخرين البتة إلا في حال عدم وجود أولاد، أما مع وجود أولاد ذكور أو إناث مهما كان العدد، قاصرين أو بالغين، فلا طريق البتة لأي شخص آخر غير من ذكر أعلاه.

استكمالاً للقول في الوصية، الذي بسطناه في الصفحات السابقة، فقد لاحظنا ورود هذا اللفظ في قوله تعالى :

- **﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف، والله عزيز حكيم ﴾** البقرة ٢٤٠.

إلا أننا لاحظنا أيضاً، إن القائلين بالنسخ اعتبروا الآية منسوخة، نسختها الآية ٢٣٤ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى :

- **﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف، والله بما تعملون خبير ﴾** البقرة ٢٣٤.

ونحن نرى أنه لاناسخ ولامنسوخ ضمن أحكام الشريعة الواحدة، بل يقع النسخ بين الشرائع المتوالية المتعاقبة، فالمسيح جاء ليحل بعض ماحرم على بني إسرائيل في رسالة موسى. وانطلاقا من هذه الرؤية، فإننا نجد أن للآية المنسوخة حقلاً ومجالاً يختلف عن حقل ومجال الآية الناسخة، مما يجعل القول بالنسخ لامحل له. أضف إلى أنه لايعقل أن تنسخ آية سابقة آية لاحقة.

تتحدث الآية ٢٣٤ عن عدة المرأة التي يتوفى عنها زوجها، فتحددها بأربعة أشهر وعشر ليال. وهي آية عامة تنظم سلوك النساء الأرامل، فلا خطبة ولا زواج ولاحتى عزم أو نية على زواج، قبل انتهاء فترة العدة المحددة. وقد تتدخل الأعراف الإجتماعية، فتضيف شروطا على المرأة في فترة عدتها، كأن تلبس كذا، وأن لاتفعل كذا، إنما يبقى ذلك عرفاً إجتماعياً، تتعرض مخالفته للنقد فقط، ولاعلاقة له البتة بالحلال والحرام.

أما الآية ٢٤٠، المزعوم نسخها، فهـي تتحـدث عـن وصيـة يوصـي بهـا المتوفى لزوجته من بعده بنفقة وكسوة لمدة عام كامل، طالما هـي لم تخـرج مـن مسـكنها. فـإن خرجت فلا نفقة ولاكسوة ولاوصية. وتصبح خاضعة لأحكام الآية ٢٣٤ في فترة العدة المحددة.

ونفهم أن الآية تعطي الحق للزوج المتوفى، بأن يوصي لزوجته، إضافة إلى نصيبها من الإرث، بنفقة وكسوة حول كامل، مشروطة بما ذكرت الآيـة. وكذلـك إذا أخذنـا موضوع الكلالة، الوارد في الآية ١٢ من سورة النساء، وهو الكلالة المتزوج أو المتزوجة ولكن بدون آباء وأبناء، فنرى أن الزوجة في هذه الحالة تأخذ ١/٤ (٢٥٪) مـن التركـة والاخـوة جميعاً يـأخذون ١/٣ (٣٣,٣٪) مـن التركـة، ففـي هـذه الحالـة المجمـوع هـو ١/٤+١/٣=٧/١٢ أو ٥٨,٣٪ .لذا قال (غير مضار) أي عليه أن يعطي الاخوة ١/٣ ، ولكن هذه الوصية تجعل من عـدة الزوجـة سـنة كاملـة شمسـية عوضـاً عـن أربـع أشـهر وعشرة أيام، فإذا تزوجت خلال هذه السنة فتسقط الوصية. هنا نلاحظ كيف أمـر الله سبحانه وتعالى الزوج الوحيد أن يبر ويعتـني بزوجتـه الوحيـدة حتـى بعـد وفاتـه وذلـك بإعطائها قيمة أكبر من حصتها الواردة في الآية وهذا أيضاً يؤكـد طرحنـا حـول نظريـة الحدود في الإرث.

في حقيقة الأمر، إن النسخ في زعم القائلين به أتى مـن القـول الفقهـي "لاوصيـة لوارث". علما بأن هذا القول ليس من التنزيل الحكيم وليس اكثر من حديث منقطع.

والموضوع كما نراه أكبر من مجرد نصيب في إرث، وأكبر من نفقة أو كسـوة أو مسـكن. نحـن نـرى في الموضـوع خرقـاً لحريـة الإنسـان، وإنكـاراً لحقـه في التصـرف والاختيار.

لقد حفظ التنزيل الحكيم للانسان حريته من أول آية فيه إلى آخـر آيـة، واحـترم اختياره وإرادته، حتى في مجال الكفر والإيمان، وأعطاه الحق في أن يسلك أي سبيل يراه،

على أن يستعد للسؤال والجواب والثواب والعقاب يوم الحساب. فهل يعقل أن يقول الرسول الأعظم، وهو نعم ناقل وحامل لهذا التنزيل، مايمس هذه الحرية، وهذا الاختيار؟.

المشكلة ليست أبداً فيما قاله الرسول الأعظم، عليه أفضل الصلاة، وليست أبداً فيما نقل عنه وأثر، بل هي فينا نحن، وفي فهمنا وتوظيفنا لهذا القول والنقل، وإعطائه صيغة المطلق.

جاءت الموعظة من فعل وعظ. والوعظ هو التخويف، والعظة الاسم منه. قال الخليل هو التذكير بالخير ومايرق له قلبه.

ولقد ورد اللفظ بمختلف اشتقاقاته في التنزيل الحكيم ٢٥ مرة، نستعرضها في آياته تعالى :

- البقرة ٢٣١، ٢٣٢، ٦٦، ٢٧٥. آل عمران ١٣٨. المائدة ٤٦. النساء ٥٨، ٦٣، ٣٤، ٦٦. الأعراف ١٦٤، ١٤٥. يونس ٥٧. هود ٤٦، ١٢٠. النحل ٩٠، ١٢٥. النور ١٧، ٣٤. الشعراء ١٣٦. لقمان ١٣. سبأ ٤٦. المجادلة ٣. الطلاق ٢.

ونحن نرى أن الموعظة هي التخويف والإنذار وهي التذكير بالخير ومايرق له القلب. أما الشق الثاني، شق التذكير بالخير، فقد ورد في قوله تعالى ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ..** ﴾ النحل ١٢٥، وفي قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ النحل ٩٠. وفي قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيرا** ﴾ النساء ٥٨.

وأما الشق الأول، شق التخويف والإنذار، فقد ورد في قوله تعالى **﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾** هو ١٢٠. فإذا تصفحنا سورة هود، المشار إليها بكلمة (هذه) في الآية، وجدناها تتحدث عن القصص التاريخي، وكيف أهلك ا لله قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط، فجاء وصفها بالموعظة مطابقاً لما فيها من تذكير وإنذار، ومن هنا نقول إن التاريخ أكبر واعظ للانسان، وأكبر معلم للخير والشر على حد سواء، باعتباره تراكم خبرات الشعوب السابقة. وورد التذكير والإنذار في قوله تعالى حين قال نوح لقومه **﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾** فأجابه قومه **﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾** الشعراء ١٣٥، ١٣٦. وورد أيضا بهذا المعنى في قوله تعالى **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾** سبأ ٤٦.

ولكي يبين سبحانه أن المواعظ كلها تدخل في الإسلام، فقد قال عز من قائل:

- **﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك با لله .. ﴾** لقمان ١٣.
- **﴿ يعظكم ا لله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾** النور ١٧.

فرأس الوعظ عند لقمان في الآية الأولى، الإيمان بوحدانية ا لله وترك الشرك به، والعظة في الآية الثانية تنبع أيضاً من الإيمان (إن كنتم مؤمنين)، فتنذر وتخوف من يعود من المؤمنين إلى قذف المحصنات المؤمنات الغافلات عشوائيا دون تقديم أربعة شهداء.

وتمضي الآيات متنقلة بين العظة الحسنة الإيجابية، كما في قوله تعالى **﴿..واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع .. ﴾** النساء ٣٤. وبين العظة

المنذرة السلبية كما في قوله تعالى ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذلك يوعظ بـه مـن كـان منكـم يؤمـن بـا لله واليوم الآخر ..** ﴾ البقرة ٢٣٢.

لكنه سبحانه يبين أن المواعظ من الإسلام، فيقول ﴿ **وكتبنا لـه في الألـواح مـن كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ..** ﴾ الأعراف ١٤٥، ونفهم أن الموعظة جاءت من الإسلام لما قبل محمد (ص)، وجاءت من الإسلام لمحمد وأتباعه في قوله تعالى ﴿**ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة مـن ربكـم وشـفاء لما في الصـدور وهـدى ورحمة للمؤمنين**﴾ يونس ٥٧. كما جاءت من قبله لعيسى مصدقة لما جاء لموسى في قوله تعالى ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التـوراة وهـدى وموعظـة للمتقـين** ﴾ المائدة ٤٦.

٥_أركـــان الإســـلام

الإسلام هو (الإيمان با لله واليوم الآخر) وهو (التسليم بوجود ا لله واليوم الآخـر) كمسلمة غير قابلة للنقاش. ويدخل ضمن الفطرة فـلا يحتـاج إلى رسـول أو نـبي. ولهذا وصف المجرم بأنه المكذب بيوم الدين، والمكذب ضمنا با لله.

١ ـ التوحيد (شهادة أن لا إله إلا ا لله) وهو رأس الاسلام. جاء بداية لنوح ثم تكرر مع الأنبياء والرسل حتى محمد (ص). ولايعتبر من المثل العليا، لكنه رأس العقيدة بعد الإيمان بوجود ا لله واليوم الآخر.

- ﴿ **وما يؤمن أكثرهم با لله إلا وهم مشركون** ﴾ يوسف ١٠٦.
- ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن ا لله ..** ﴾ لقمان ٢٥.

- ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ الزمر ٦٥.
- ﴿ **قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون** ﴾ الأنبياء ١٠٨.

٢ ـالمثل العليا (منظومة القيم) وتأتي بعد التوحيد، وتدخل تحت بند (اعبدوا ا لله) وتحت بند (الصراط المستقيم) وتحت بند (التقوى).

- ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الفاتحة ٥، ٦.
- ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين** ﴾ الأنعام ١٦١.
- ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة ا لله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق ا لله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ الروم ٣٠.

والعبادات الصراط المستقيم ﴿ **وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم** ﴾ يس ٦١ (انظر فصل العباد والعبيد)، هي الإحسان والعمل الصالح الذي تنظمه منظومة القيم العليا الانسانية، التي لها القيومية على الناس (ديناً قيماً ←—— ذلك الدين القيم).

- ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ..** ﴾ البقرة ١١٢.
- ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ..** ﴾ النساء ١٢٥.
- ﴿ **.. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ الأنعام ٤٨.
- ﴿ **وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ طه ٨٢.
- ﴿ **.. من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً ..** ﴾ المائدة ٦٩.

وهذه القيم والمثل العليا، التي تحكَّم بقيوميتها الإحسان والعمل الصالح، ذات تراكم تاريخي بدأ بنوح واكتمل وتم بمحمد (ص) مروراً بأنبياء ا لله ورسله، أما ثوابها في اليوم الآخر فهو جنات الفردوس ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** ﴾ الكهف ١٠٨.

١ - بر الوالدين :
- ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً .. ﴾ الاسراء ٢٣.
- ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه .. ﴾ العنكبوت ٨، لقمان ١٤، الأحقاف ١٥.
- ﴿ .. لا تعبدون إلا ا لله وبالوالدين إحساناً .. ﴾ البقرة ٨٣.
٢ - عدم قتل الولد :
- ﴿ .. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .. ﴾ الأنعام ١٥١.
- ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .. ﴾ الإسراء ٣١.
- ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم .. ﴾ الأنعام ١٤٠.
٣ - عدم ارتكاب الفواحش : وهي اللواط، وقد بدأ مع لوط، والزنا نزل لموسى واكتمل بالسحاق في الرسالة المحمدية.
- ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون ﴾ الأعراف ٨٠، ٨١.
- ﴿ .. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. ﴾ الأنعام ١٥١.
- ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما .. ﴾ النساء ١٦.
- ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم .. ﴾ النساء ١٥.
- ﴿ ولا تقربوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ الإسراء ٣٢.
٤ - عدم قتل النفس : إلا بالحق وبأمر صريح من ا لله واهب الحياة. وقد جاءت إلى موسى وعيسى (لاتقتل) وإلى محمد (ص).
- ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً .. ﴾ المائدة ٣٢.
- ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم ا لله إلا بالحق .. ﴾ الإسراء ٣٣.

- ﴿ .. ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون .. ﴾ الفرقان ٦٨.

٥ - **البر باليتيم والحفاظ على ماله** : وقد جاءت إلى موسى وعيسى تأسيساً ثم تم توسيعها وتطويرها وتحسينها في الرسالة المحمدية.

- ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ..** ﴾ الأنعام ١٥٢.
- ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ الضحى ٩.
- ﴿ **..لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى ..** ﴾ البقرة ٨٣.
- ﴿ **.. وأن تقوموا لليتامى بالقسط ..** ﴾ النساء ١٢٧.

٦ - **الكيل والميزان والوفاء بالمواصفات** : وقد نزلت على شعيب تأسيساً ثم على موسى وعيسى، ثم تم تحسينها وتطويرها في الرسالة المحمدية.

- ﴿ **.. وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ..** ﴾ الأنعام ١٥٢.
- ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ الرحمن ٩.
- ﴿ **ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ المطففين ١، ٢، ٣.
- ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ..** ﴾ الأعراف ٨٥.

٧ - **ولاتبخسوا الناس أشياءهم** :

- ﴿ **.. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ هود ٨٥.
- ﴿ **..ليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ..** ﴾ البقرة ٢٨٢.

٨ - **الإفساد في الأرض** : وهي أيضا كسابقتيها نزلت على صالح وشعيب وموسى وعيسى في قوله تعالى :

- ﴿ **.. فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ الأعراف ٧٤.
- ﴿ **.. ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم ..** ﴾ الأعراف ٨٥.

- ﴿ .. وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ الأعراف ١٤٢.
- ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ البقرة ١١.
- ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون ا لله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا..﴾ المائدة ٣٣.

٩ - **الحكم بالعدل** : وقد نزل الأمر بها على موسى وعيسى، ثم تم تطويرها في الرسالة المحمدية.

- ﴿ .. وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. ﴾ النساء ٥٨.
- ﴿ .. وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن ا لله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم ا لله .. ﴾ المائدة ٤٢، ٤٣.
- ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .. ﴾ النساء ١٣٥.
- ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. ﴾ المائدة ٨.

١٠ - **الوفاء بعهد ا لله وميثاقه** : وقد نزل على موسى وعيسى ومحمد (ص). ويتضح جلياً في بدء قوله تعالى ﴿ .. إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد ا لله ولا ينقضون الميثاق ﴾ الرعد ١٩، ٢٠ إلى قوله تعالى ﴿ والذين ينقضون عهد ا لله من بعد ميثاقه .. ﴾ الرعد ٢٥. فعهد ا لله هو التقيد بالمواثيق الموثقة بالقسم واليمين وعلى رأسها الإسلام :

- ﴿ إن الذين يشترون بعهد ا لله وأيمانهم ثمناً قليلاً .. ﴾ آل عمران ٧٧.

والمواثيق هي :

- ميثاق الإسلام

- ميثاق الإيمان
- ميثاق الزوجية
- ميثاق الوطن والمواطنة
- ميثاق المهنة
- ميثاق العمل الوطني والسياسي.

١١ ـ أداء الأمانة :

- ﴿ .. **فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه** .. ﴾ البقرة ٢٨٣.
- ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** .. ﴾ النساء ٥٨.
- ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ المؤمنون ٨.

١٢ ـ الجنس : سواء كان ملك يمين أم زواجاً (نكاح ولقاح وأولاد وأسرة وصهر ونسب).

- ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ المؤمنون ٥، ٦.
- ﴿ .. **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** .. ﴾ النساء ٣.

١٣ ـ تحريم السكر الذي هو اجتناب رجس الخمر :

١٤ ـ تحريم الأنصاب والأوثان واجتناب رجسها :

- ﴿ .. **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**.. ﴾ المائدة ٩٠.
- ﴿ .. **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ الحج ٣٠.

١٥ ـ الإرث : فريضة ووصية (حدود).

- ﴿ يوصيكم ا لله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق النتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السدس، من بعد وصية يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً، فريضة من ا لله، إن ا لله كان عليماً حكيما ﴾ النساء ١١. " فريضة "

- ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار، وصية من ا لله، وا لله عليم حليم﴾ النساء ١٢. " وصية "

١٦ ـ **الوصية للأقرباء والزوجة :**

- ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، حقاً على المتقين ﴾ البقرة ١٨٠.
- ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف، وا لله عزيز حكيم ﴾ البقرة ٢٤٠.

١٧ ـ **التبني** : انظر فصل الأبوين والوالدين في هذا الكتاب.

١٨ ـ **عدم رمي المحصنات** : فريضة.

- ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك هم الفاسقون ﴾ النور ٤.
- ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ النور ٢٣.

١٩ ـ الحد الأدنى من لباس الرجل والمرأة : فريضة.

- ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن ا لله خبير بما يصنعون ﴾ النور ٣٠.
- ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى ا لله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ النور ٣١.

٢٠ ـ تجاوز الحد الأدنى من اللباس بالنسبة للمقعدة : فريضة.

- ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، وأن يستعففن خير لهن، وا لله سميع عليم ﴾ النور ٦٠.

٢١ ـ رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض والسماح بالأكل في بيوت الأقارب دون استئذان : فريضة.

- ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو

بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً، فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند ا لله مباركة طيبة، كذلك يبين ا لله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ النور ٦١.

٢٢ ـ دخول بيوت الغير بنفسية مسالمة غير عدوانية : فريضة.

ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾ النور ٢٧.

٢٣ ـ الاستئذان على الأبوين في دخول غرف النوم : فريضة.

ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض، كذلك يبين ا لله لكم الآيات، وا لله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم، كذلك يبين ا لله لكم آياته، وا لله عليم حكيم ﴾ النور ٥٨، ٥٩.

٢٤ ـ العفو عمن تمارس البغاء مكرهة من الفتيات : فريضة.

ـ ﴿ .. ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فإن ا لله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ النور ٣٣.

٢٥ ـ السماح بتحويل ملك اليمين إلى زوج أو زوجة : فريضة.

ـ ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم ا لله من فضله وا لله واسع عليم * وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً

حتى يغنيهم الله من فضله، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .. ﴾ النور ٣٢، ٣٣.

٢٦ - دخول البيوت من أبوابها واستئذان أهلها، أو الرجوع في حال عدم الإذن:

- ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، هو أزكى لكم .. ﴾ النور ٢٨.

٢٧ - عدم دخول البيوت غير المسكونة إلا إذا كان فيها متاع لنا :

- ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوابيوتاً غيرمسكونة فيها متاع لكم.. ﴾ النور ٢٩.

٢٨ - الإحسان إلى ذي القربى :

- ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى .. ﴾ النور ٢٢.

- ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ البقرة ١٨٠.

٢٩ - الإحسان إلى الفقراء والمساكين :

- ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين .. ﴾ التوبة ٦٠.

- ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ الفجر ١٨.

- ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل .. ﴾ الروم ٣٨.

٣٠ - الإحسان إلى الجار القريب والبعيد :

- ﴿ .. وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب .. ﴾ النساء ٣٦.

٣١ - الإحسان إلى صاحب السفر، والصاحب المقيم معك، والصاحب بالجنب :

- ﴿ .. وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ..﴾ النساء ٣٦.

- ﴿ .. إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .. ﴾ التوبة ٤٠.
- ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب .. ﴾ الكهف ٣٧.

٣٢ ـ الإحسان إلى ابن السبيل :

- ﴿ .. وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. ﴾ البقرة ١٧٧.
- ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. ﴾ الأنفال ٤١.
- ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .. ﴾ التوبة ٦٠.

٣٣ ـ الإحسان إلى ملك اليمين :

٣٤ ـ عدم السخرية من الآخرين :

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن .. ﴾ الحجرات ١١.

ونلاحظ أنه فصل في الآية سخرية الرجال عن سخرية النساء لأنهما يختلفان في السخرية.

- ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ الأنعام ١٠.

٣٥ ـ لاتلمزوا أنفسكم ولاتبخسوها حقها :

- ﴿ .. ولا تلمزوا أنفسكم .. ﴾ الحجرات ١١.

٣٦ ـ ولاتنابزوا بالألقاب :

- ﴿ .. ولا تنابزوا بالألقاب .. ﴾ الحجرات ١١، أي لايعيِّر بعضكم بعضاً بإطلاقكم ألقاباً على من يكرهها بقصد السخرية واللمز، أو بإطلاقكم على

أنفسكم ألقاباً بقصد التعالي والتكبر.

٣٧ ـ إبقاء أماكن فارغة في الأماكن والمواصلات العامة للمقعدين والحوامل والمرضى والمسنين :

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح ا لله لكم، وإذا قيل انشزوا فانشزوا ..** ﴾ المجادلة ١١.

٣٨ ـ كفارة اليمين إذا كان فيها شيء شخصي بحت، والعفو عن اللغو :

- ﴿ **قد فرض ا لله لكم تحلة أيمانكم وا لله مولاكم وهو العليم الحكيم** ﴾ التحريم ٢.
- ﴿ **لا يؤاخذكم ا لله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وا لله غفور حليم** ﴾ البقرة ٢٢٥.

٣٩ ـ الاعتدال في الإنفاق على المستوى الفردي والاجتماعي :

- ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا** ﴾ الإسراء ٢٩.
- ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ الفرقان ٦٧.

٤٠ ـ تأكيد أن فضل القيمة هو أساس الاقتصاد والنشاط الاقتصادي :

- ﴿ **.. ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل ا لله البيع وحرم الربا ..** ﴾ البقرة ٢٧٥.

٤١ ـ تحريم الربا مضاعفاً في الأموال، وتحريمه قطعاً لأصحاب الصدقات (حدود):

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ..** ﴾ آل عمران ١٣٠.

٤٢ ـ العقوبات (حدود):

أ ـ حبس السحاقيات، وقد أسقط المضمون بالشكل وجعل لهن سبيلا هو التوبة بدون أية عقوبة. أما في عقوبة اللواط فقد أسقط المضمون ليأخذ الشكل محتواه.

واشترط لجلد الزاني والزانية أربعة شهداء، فكانت فريضة أسقطت المضمون بالشكل.

ب ـ الحد الأعلى لعقوبة القاتل القتل.

جـ ـ الحد الأدنى لعقوبة قتل الخطأ.

د ـ الحد الأعلى لعقوبة السرقة.

٤٣ ـ القصاص في القتلى (حالة الحروب) المعاملة بالمثل

٤٤ ـ الإنفاق : زكاة الاسلام، وفيها زيادة على زكاة الايمان (السائلين، اليتامى، ذوي القربى) انظر بحث العباد والعبيد.

٤٥ ـ النهي عن الغيبة :

ـ ﴿ **.. ولا يغتب بعضكم بعضاً ..** ﴾ الحجرات ١٢.

٤٦ ـ النهي عن التجسس على الآخرين : (المحافظة على سرية الرسائل والمكالمات السلكية واللاسلكية بالنسبة للدولة)

ـ ﴿ **.. ولا تجسسوا ..** ﴾ الحجرات ١٢.

٤٧ ـ تقديم البيانات المادية عند توجيه تهم للآخرين :

ـ ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ الإسراء ٣٦.

٤٨ ـ في الطعام : تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وماذبح على النصب إلا اضطراراً.

ـ ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة و ما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ..** ﴾ المائدة ٣.

ـ ﴿ **قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ..** ﴾ الأنعام ١٤٥.

٤٩ ـ إفشاء السلام ونبذ الحرب وإتباع سياسة سلمية مع الناس كلهم :

ـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ..** ﴾ البقرة ٢٠٨.

ـ ﴿ **.. ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ..** ﴾ النساء ٩٤.

ـ ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ..** ﴾ الأنفال ٦١.

ـ ﴿ **.. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ النساء ٩٠.

٥٠ ـ الوفاء بالعقود :

ـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ..** ﴾ المائدة ١.

٥١ ـ تسجيل الدين والحقوق (المداينة) :

ـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ....** ﴾ البقرة ٢٨٢.

ملاحظة هامة :

كل ماورد خلاف هذه المثل والأحكام، في المراحل التي سبقت الرسالة المحمدية، يعتبر منسوخاً. ومن هنا نفهم أن الإسلام خضع لمفهوم الناسخ إذا نظرنا إليه على أنه بدأ بنوح وختم بمحمد (ص). أما في التنزيل الحكيم ذاته فلا ناسخ ولا منسوخ، وإنما ثبت أحكاماً جاءت قبله (إسلام) وأضاف أحكاماً وعدل أحكاماً ليتمم الاسلام ويكمله. أي لايوجد إلا دين واحد هو الإسلام من نوح إلى محمد (ص). ونرى أن الكبائر هي مخالفة الوصايا العشر (الفرقان)، أما مايقال من أن الكبائر سبعون أو سبعمائة فهو ليس عندنا بشيء .

٦-أركـــان الإيمـــان

١ - **شهادة أن محمداً رسول ا لله. ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا با لله ورسـوله ثـم لم يرتابوا وجاهدوا بـأموالهم وأنفسـهم في سـبيل ا لله أولئـك هـم الصـادقون ﴾** الحجرات ١٥.

٢ - **إقام الصلاة المكتوبة ←—— ذكر ا لله.**

٣ - **ايتاء الزكاة (الإنفاق)** : وجاء فيها بنود تختلف عن زكاة الإسـلام (فعـل الخـير) **﴿ والذين هم للزكـاة فـاعلون ﴾** المؤمنـون ٤. في زكـاة الاسـلام بنـود هـي : السائلين - اليتامى - ذوي القربى مضافة إلى زكاة الايمان. فالإنفـاق مشـترك بـين الاسلام والايمان لأن له علاقة بالناس (مجتمع) وهو تقرب إلى ا لله.

الاســلام	الايمـــان
- فعل الخير (وهو من الفطرة)	**- نصاب الزكاة (ليس من الفطرة)**
﴿.. وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ الحج ٧٧.	**﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة..﴾** البقرة ٤٣.
﴿..وما تنفقوا من خير فلأنفسكم..﴾ البقرة ٢٧٢.	**﴿..والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة..﴾** النساء ١٦٢.
﴿..قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل..﴾ البقرة ٢١٥.	**﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾** المؤمنون ٤.
	﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ النور ٥٦.

٤ ـ **صوم رمضان** : كتاب من ا لله.

٥ ـ **حج البيت من استطاع إليه سبيلا** : فريضة من الحاج.

٦ ـ **الشورى**

٧ ـ **الجهاد** :

أ ـ في سبيل أن تكون كلمة ا لله هي العليا، وهي لاإكراه في الدين، وفي سبيل حرية الناس (انظر بحث العباد والعبيد).

ب ـ في سبيل الوطن ورد اعتداء الأجانب حتى لو كانوا مسلمين أو مؤمنين. (ويخضع لمبدأ القصاص) وفي سبيل الدفاع عن النفس والوطن والأهل والبيت والمال.

وهذه الأمور ليست من الفطرة.

وهكذا فعندما نقول اللهم أعز المسلمين والمسلمات فإننا نعني معظم سكان الأرض وعندما نعطف عليها المؤمنين والمؤمنات فنعني أتباع محمد (ص) من باب عطف الخاص على العام.

وهكذا نرى أن أطروحة بني الاسلام على خمس، هي غير صحيحة، والصحيح فيها البند الأول أي الشهادة الأولى.

شهادة أن لاإله إلا ا لله ⟵ رأس الإسلام ⟵ عبادة ا لله (المسلمون).

شهادة أن محمداً رسول ا لله ⟵ رأس الإيمان ⟵ الشعائر (المؤمنون).

فمن قفز إلى الإيمان متجاوزاً الإسلام فهو مراء منافق ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول ا لله، وا لله يعلم إنك لرسوله وا لله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ المنافقون ١.

ومن أقام الصلاة، وهي من أركان الإيمان، غير ملتزم بتعاليم وأركان الإسلام فهو منافق، ولو ركع وسجد وصام وحج البيت.

الاسلام والإيمان

المسلمون

من آمن با لله واليوم الآخر (تذكرة الدخول للاسلام)

المجرمون

المكذبون با لله القاطعون لصلتهم به والمكذبون باليوم الآخر " لم نك من المصلين، وكنا نكذب بيوم الدين " (خارج دائرة الاسلام)

القيم والمثل العليا وفطرة ا لله في الخلق

١ـ الاسلام ← القيم (وهي دين الفطرة والصراط المستقيم)

- " قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين" الأنعام ١٦١.
- " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة ا لله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق ا لله ذلك الدين القيم .." الروم ٣٠.

٢ـ الاسلام ← العمل الصالح والإحسان

- " بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره .." البقرة ١١٢.
- " إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم .." البقرة ٦٢.

الإيمان

المؤمنون: هم المسلمون أتباع محمد (ص)، آمنوا برسالته التي ختم ا لله بها الاسلام الذي بدأه بنوح، ودليل أنه مكمل الأديان ومتمم الأخلاق قوله:" قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ✱ لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" الأنعام ١٦٢-١٦٣ نلاحظ أن (أول المسلمين) تعني آخر المسلمين وخاتم الأنبياء، لأن (أول) من الأضداد. أي أن الاسلام الذي بدأ بنوح آل إلي.

المسلمون الذين آمنوا ←—— أتباع محمد.

عندما يذكر محمد (ص) في التنزيل يذكر المؤمنون :

- " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .." البقرة ٢٨٥.

" ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا ا لله ورسوله.." الأحزاب ٢٢.

- " وقل اعملوا فسيرى ا لله عملكم ورسوله والمؤمنون .." التوبة ١٠٥.

- " .. إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات .." الممتحنة ١٠.

- " .. ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم .." البقرة ٢٢١.

- " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" يونس ٩٩.

- "وماأكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين" يوسف ١٠٣. أي أن أتباع محمد (ص) المؤمنون لن يكونوا أكثرية سكان أهل الأرض وهذا مانراه فعلا وحقيقة. والآن المسلمون المؤمنون أتباع محمد (ص) يشكلون

٢٠٪ من سكان الأرض.
- "ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل ا لله فتبينوا ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا .." النساء ٩٤.
هنا يؤكد أن معظم أهل الأرض لن يكونوا مؤمنين، ولايسمح لنا بإدخالهم بالإيمان بالقوة وإنما هو الدفاع عن الحرية وعن الوطن فقط.

المسلمون الذين هادوا ← أتباع موسى.
" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " العنكبوت ٤٦.

المسلمون النصارى ← أتباع عيسى.
"الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون*واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين " القصص ٥٢،٥٣.

المسلمون الصابئون ← كل من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً(تعاليم الاسلام الفطرية) مهما كان اسمهم.

الايمان الأول : المسلمون		الايمان الثاني : المؤمنون
	محمد ٢	
والذين آمنوا وعملوا الصالحات (١)	←	وآمنوا بما نزل على محمد (٢)
	الحديد ٢٨	
يأيها الذين آمنوا اتقوا الله (١)	←	وآمنوا برسوله (٢)
	يؤتكم كفلين من رحمته	
الكفل الأول من الرحمة (١)	↔	الكفل الثاني من الرحمة (٢)
	النساء ١٣٦	
يأيها الذين آمنوا (١)	←	آمنوا بالله ورسوله (٢)
	النساء ١٣٧	
إن الذين آمنوا ثم كفروا (١)	←	ثم آمنوا ثم كفروا (٢)
	المائدة ٩٣	
إذا ماتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات (١)	←	ثم اتقوا وآمنوا (٢)
		ثم اتقوا وأحسنوا (١)+(٢)

القسم الثاني

منظومة القيم

القسم الثاني:منظومة القيم

الفصل الاول : العباد و العبيد

الفصل الثاني : الشهادة و الشهيد

الفصل الثالث : الأبوان و الوالدان

الفصل الرابع : الذنب و السيئة

الفصل الخامس: قول في الاسلام و السياسة

الفصل الأول:العباد و العبيد

١_ العبد و العباد و العبادة

٢_ العبد و العبيد و العبودية

٣_ الميثاق

٤_ أين يعبد ا لله ؟

ورد مصطلح العبد على تعدد اشتقاقاته (عبد، عباد، عبيد، عبد، يعبد، عابدون، يعبدون .. الخ) ٢٧٥ مرة في التنزيل الحكيم. ونسأل أنفسنا ونحن نقرأ الذكر المبارك قراءة عصرية معاصرة، بعيدة عن قراءات التراث والتراثيين، مع منتهى الاحترام للتراث وأصحابه: هل المصدر في عبد، يعبد، نعبد، يعبدون، هو العبادة أم العبودية؟ أي بمعنى آخر ، هل يختلف الحال حين نجمع عبد على عباد، عن القصد حين نجمع عبد على عبيد؟ وإلى أي مدى ترتبط العبودية لله بمفهوم الرق الذي كان سائداً زمن نزول الوحي الأمين على النبي العربي (ص)؟

لقد رأينا التراث، بأصوله وأدبياته، ومازلنا نراه حتى اليوم، يعتبر العبادة عبودية، والعباد عبيداً، ويسوغ الرق ويبرره انطلاقاً من أن هذا ذاك. ووجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام سؤال أكبر من سابقه: كيف نفهم اليوم هذه الآيات، مع إلغاء الرق الفردي والنخاسة في كل زمان ومكان، ويحوي في الوقت ذاته آيات لم يعد لها حقل توظيف في حياتنا المعاصرة؟

ولكن، هل كان القصد في التنزيل الحكيم، هو ماذهب إليه التراث؟ وهل المعنى الذي فهمه أصحاب التراث من آيات العباد والعبيد هو ماعناه سبحانه فعلاً في التنزيل الحكيم؟

ننظر في المعاجم، فنرى أنها تجمع العبد على عبدة وعباد وعبّد وعبّاد، وتجمعه على عبيد وأعبد وعبدان، وتأتي بجمع لامفرد له هو عبابيد، يسميه بعضهم جمع جمع.

وننظر في اللسان العربي، فنرى كأنه يضع فعل عبد بين الأضداد (ابن فارس). فهو يحمل إلى جانب معنى الطاعة، معنى الرفض والعصيان كما في قوله تعالى ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ الزخرف ٨١.

١- العبد و العباد و العبادة

خاصية التضاد المذكورة هذه في فعل عبد، تضعنا أمام أول فرق بين عبد الرق وعبد الله. فعبد الرق طاعته لاعصيان فيها، وخضوعه لارفض فيه ولا أنفة ولاتكبر. أما عبد الله وعباد الله فيحملون الضدين، ونرى ذلك واضحاً في العديد من الآيات كقوله تعالى:

- ﴿ **نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم** ﴾ الحجر ٤٩.
- ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ..** ﴾ الأعراف ١٩٤.

وواضح أن العباد في الآيتين تعني المذنبين والمشركين. وكقوله تعالى:

- ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ..** ﴾ الزمر ٥٣.
- ﴿ **قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ..** ﴾ إبراهيم ٣١.

وواضح أيضاً في الآية الأولى أنه سبحانه يأمر الذين أسرفوا على أنفسهم من العباد بعدم القنوط من الرحمة، وأنه يأمر الذين آمنوا من عباده بإقامة الصلاة. أما حين يتحدث التنزيل عن عباد الله دون أن يخصص شريحة بعينها منهم فيقول:

- ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ الأنعام ١٨.
- ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ..** ﴾ البقرة ١٨٦.

ونخلص بعد هذا كله إلى القول بأن التنزيل الحكيم حين يذكر العباد والعابدين، فهو إنما يعني العصاة والمطيعين، الرافضين والخاضعين على حد سواء. وذلك واضح في كثير من الآيات، كقوله تعالى:

- ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ غافر ٤٨.
- ﴿ **والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد ..** ﴾ ق ١٠، ١١.

فالعبد (عبد الله) هو الإنسان المخير، الذي تصدر له الأوامر، فإما أن يطيعها أو أن يعصيها. فإن أطاع فهو عبد طائع، وإن عصى فهو عبد عاص، لكنه لايخرج أبداً عن كونه عبداً لله في الطاعة والمعصية على حد سواء. ولهذا أمر الله تعالى عباده بطاعته وطاعة أوامره بالعبادة، كما في قوله:

- ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ الذاريات ٥٦.
- ﴿ **وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ مريم ٣٦.
- ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ الفاتحة ٥.

لقد جاء فعل العبادة هنا، وفي الكثير من الآيات الأخرى، بمعنى الطاعة والامتثال للأوامر، مع بقاء إمكانية المعصية موجودة ومفتوحة.

وجاءت رسل الله تعالى تدعو إلى عبادته سبحانه، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الأنبياء ٢٥.
فجاءت الآية مجملة لتفصيل الأنبياء والرسل بقوله تعالى:

- ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ..** ﴾ المؤمنون ٢٣.
- ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله ..** ﴾ العنكبوت ١٦.
- ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله ..** ﴾ الأعراف ٦٥.
- ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ..** ﴾ هود ٦١.
- ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله ..** ﴾ العنكبوت ٣٦.
- ﴿ **فلما أتاها نودي يا موسى * إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ..** ﴾ طه ١١، ١٤.
- ﴿ **.. وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ..** ﴾ المائدة ٧٢.
- ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ..** ﴾ البقرة ١٣٣.

إلا أن هؤلاء الرسل أنفسهم، لم يخرجوا في طاعتهم لأوامر الله عن كونهم عباداً يهدون بأمر الله العباد العصاة إلى سواء السبيل. وذلك واضح في قوله تعالى:

- ﴿ **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد، إنه أواب** ﴾ ص ١٧.
- ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه ..** ﴾ ص ٤١.
- ﴿ **ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد، إنه أواب** ﴾ ص ٣٠.
- ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ مريم ٢، ٣.
- ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار** ﴾ ص ٤٥.
- ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ..** ﴾ النساء ١٧٢.
- ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ..** ﴾ الإسراء ١.

وكان من الطبيعي المنطقي، والرسل تدعو أقوامها إلى عبادة الله، وإطاعة أوامره والإنتهاء عن نواهيه، أن يسأل هؤلاء: وكيف نعبد الله؟ وماهي الأوامر والنواهي التي إن خضعنا لها ولم نستكبر عنها، حققنا العبادة المطلوبة منا ؟. ونعود إلى التنزيل الحكيم نستقرىء الجواب.

- ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الفاتحة ٥، ٦.
- ﴿ **إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم** ﴾ آل عمران ٥١.
- ﴿ **وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم** ﴾ يس ٦١.
- ﴿ **وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون** ﴾ المؤمنون ٧٤.
- ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله ..** ﴾ الأعراف ٨٦.

ونفهم من الآيات، وكثير غيرها، أن الصراط هو الطريق، وأن الصراط المستقيم هو طريق الله وسبيله، وأن السير فيه وعليه هو العبادة، كما هو واضح في الآيات الثلاث الأولى.

وننتقل بعدها مباشرة بحثا عن هذا الصراط إلى قوله تعالى:

- ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ الأنعام ١٥٣.

ونفهم من الآية أن الصراط المستقيم هو الوصايا التي بدأت بنوح، وتراكمت على يد الأنبياء والرسل، واكتملت بمحمد (ص). أي بدءاً من قوله تعالى ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ..** ﴾ في الأنعام ١٥١ إلى قوله تعالى ﴿ **.. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ الأنعام ١٥٣.

ونرى واضحا في التنزيل الحكيم أن الصراط المستقيم، بمعنى الوصايا بما فيها من أوامر ونواه، يأتي متلازماً مع عبادة الله، منذ نوح وحتى محمد (ص). فالصراط المستقيم عند نوح كان التوحيد وبر الوالدين، وعند إبراهيم كان التوحيد وبر الوالدين وشكر النعمة، وعند سليمان كان التوحيد وبر الوالدين وشكر النعمة والعمل الصالح. ثم أضيف إليها الكيل والميزان عند شعيب، واللواط عند لوط، والزنا وقتل النفس عند موسى ..الخ. فإذا أخذنا قوله تعالى المنزل على النبي العربي محمد (ص) في النساء ٣٦.

١ - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً

٢ - وبالوالدين إحسانا

٣ - وبذي القربى

٤ - واليتامى

٥ - والمساكين

٦ - والجار ذي القربى

٧ - والجار الجنب

٨ - والصاحب بالجنب

٩ - وابن السبيل

١٠ ـ وما ملكت أيمانكم

١١ ـ إن ا لله لا يحب من كان مختالاً فخورا.

رأينا واضحا فيها عددا من البنود التي اندرجت تحت قوله ﴿**اعبدوا ا لله**﴾ قد جاءت لرسل قبل محمد (ص) منها ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٩. ورأينا بنوداً أخرى جاءت إلى محمد (ص) لأول مرة، وعلى رأسها الإحسان إلى ﴿**وما ملكت أيمانكم**﴾. مما يدلنا على أمرين: الأول أن الوصايا والأوامر والنواهي، التي هي العبادة، وهي الصراط المستقيم ، جاءت مرتبة متراكمة من الناحية التاريخية، وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني، وهو أن ملك اليمين لايعني الرق من قريب ولا من بعيد، لأنه حالة جديدة متأخرة بدأت منذ العصر النبوي، أما الرق فكان معروفا منذ أيام الرسل السابقين.

نلاحظ أيضا في آيات الأنعام ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ التي عددت الوصايا، وأطلقتُ عليها وصف صراط ا لله المستقيم، وفي آية النساء ٣٦، أنه لايوجد فيها صلاة ولاصوم ولاحج. ونفهم هنا بكل وضوح أن الصلاة والصوم والحج ليست من العبادات، لكن الزكاة منها، باعتبارها إنفاقا بالقسط، وذلك بدلالة أن الإحسان في البنود الأحد عشر الواردة في النساء ٣٦ له علاقة مباشرة بالإنفاق. الأمر الذي توضحه خاتمة الآية بقوله تعالى ﴿ .. **إن ا لله لايحب من كان مختالا فخورا** ﴾ ثم يشرح في الآيتين اللاحقتين هذا المختال الفخور فيصفه بأنه:

- الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل
- ويكتمون ما آتاهم ا لله من فضله
- والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس
- ولا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر

من هنا نرى أن كل من أصدر كتاباً بعنوان "فقه العبادات" شرح فيه أركان الوضوء والصلاة والصوم والحج، مخالف للتنزيل الحكيم، خارج عن فهم آياته نصاً وروحاً.

لقد فصل التنزيل فصلاً واضحاً بين العبادة والصلاة، وكنا قد لاحظنا في الصفحات السابقة كيف عرفت العبادة بأنها التوحيد والصراط المستقيم في طاعة الأوامر والانتهاء عن النواهي، والإحسان والعمل الصالح وترك الفواحش ماظهر منها ومابطن. فإذا قرأنا قوله تعالى:

- **﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾** طه ١٤.
- **﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها .. ﴾** البقرة ١١٤.
- **﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم .. ﴾** الحج ٧٧.
- **﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾** النجم ٥٣.
- **﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون.. ﴾** التوبة ١١٢
- **﴿ الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾** الأعراف ٢٠٦.

نجد الفصل واضحاً كما قلنا بين الصلاة والعبادة، فإذا حلا لأصحاب التخريجات للغوية أن يكابروا، فيزعموا أن الصلاة في الآية الأولى جزء من العبادة، وأن موقعها هو من باب عطف الجزء على الكل، جاءت الآية الثانية لتضع العبادة **﴿اعبدوا ربكم﴾** معطوفة على الركوع والسجود، ليصبح الكل جزءاً والجزء كلاً والمعطوف معطوفاً عليه والمعطوف عليه معطوفاً. وهذه كلها تخريجات لمغالطة أساسية وقعت فيها الأدبيات الإسلامية حين جعلت من الصلاة والصوم والحج عبادات، وضعتها في أركان الإسلام، بينما هي في الحقيقة من تكاليف الإيمان.

فإذا نظرنا في الصلاة والصوم والحج كتكاليف، وجدناها تأتي تحت عنوان تقوى الإيمان التي تخضع لقوله تعالى ﴿ **فاتقوا ا لله ما استطعتم ..** ﴾ ﴿ **لايكلف ا لله نفساً إلا وسعها ..** ﴾ أما تقوى الاسلام وعلى رأسها الالتزام بالوصايا والعمل الصالح فتقع في باب ﴿ .. **اتقوا ا لله حق تقاته ..** ﴾.

يقول تعالى ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، وا لله يحب المحسنين** ﴾ المائدة ٩٣.

ونقف في الآية أمام ثلاثة أمور، أولها: أن فيها إيمانين:

١ً - **إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات** . وهذا هو الإسلام. أي الإيمان با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً. وعلى رأسه التوحيد. وأصحابه هم المسلمون.

٢ً - **ثم اتقوا وآمنوا** . وهذا هو الإيمان. أي الإيمان برسالة محمد (ص) وبما أنزل عليه من ربه. وأصحابه هم المؤمنون.

ثانيها : أن التقوى وردت فيها ثلاث مرات:

١ً - **إذا ما اتقوا وآمنوا** . وهذه هي تقوى الإسلام (حق تقاته).

٢ً - **ثم اتقوا وآمنوا** . وهذه هي تقوى الإيمان (ما استطعتم).

٣ً - **ثم اتقوا وأحسنوا** . وهذه هي تقوى الإحسان التي تجمع تقوى الإيمان إلى تقوى الإسلام.

من هنا نفهم أنه لاصلاة ولاصوم ولاحج (وهذه كلها من التقوى ٢) بدون تقوى الإسلام. أي أن تقوى الإسلام أولا (صراط مستقيم / عبادة / وصايا) ثم تقوى الإيمان ثانياً، وليس العكس. ونفهم أننا حين نتكلم عن فقه العبادات، علينا أن نتكلم عن أسس التوحيد وفقه معاملة اليتيم، وفقه الإمتناع عن قتل النفس والتجسس على

الآخرين، وفقه العدل بالإنفاق وعدم التبذير والتقتير. وفقه الحنث باليمين وشهادة الزور والعفة والوفاء بالعهود والعقود والقضاء العادل والتفسح في المجالس. فهذه هي العبادات التي تحتاج إلى فقه بحسب مفهوم التنزيل الحكيم كما رأينا. ومن خلال الإلتزام بها نقول إن الناس يعبدون ربهم أو لايعبدون، وليس عن أي طريق آخر.

ثالثها : توظيف الإيمان بنوعيه، والتقوى بأنواعها الثلاثة ضمن حقل تحت عنوان **﴿فيما طعموا﴾**، ونقف طويلاً أمام فعل طعم. فالطعام في اللسان العربي وفي التنزيل الحكيم، ليس مجرد الأكل، بل هو الشراب أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ الغاشية ٦. والضريع من الشاة والناقة هو الذي يحلب اللبن، واللبن يشرب ولا يؤكل.
- ﴿ **قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ..** ﴾ الأنعام ١٤٥. والدم المسفوح يشرب ولايؤكل.

والطعام هو التذوق كما في قوله تعالى :

- ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ..** ﴾ البقرة ٢٤٩.

والطعام هو الرزق عموماً من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **ما أريد منهم من ررق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ الذاريات ٥٧، ٥٨.

والطعام هو العلاقات والصلات مع الآخرين. ففي اللسان العربي: أطعمت الغصن: وصلت به غصناً من غير شجرته فقبل الوصل*.

---

* أساس البلاغة للزمخشري ص ٢٨٠.

والطعام هو التذوق والإشتهاء، ففي اللسان العربي "تطعَّم تطعم" أي تذوق فتشتهي فتأكل*.

لكن بعض المفسرين اكتفى من هذا كله بمعنى الأكل حصراً، مما اضطره إلى البحث عن مفعول به لفعل (فيما طعموا) الوارد في الآية، فوجده قبلها بآيتين فقال: فيما أكلوا من الخمر والميسر (الدر المنثور للسيوطي).

إن الطعام، بمعنى الأكل، حقل صغير من حقول الحياة وحركتها، سواء بمعناه الحسي الحقيقي (المضغ والبلع والأكل) أم بمعناه المجازي (أكل الحق والأموال بالباطل والربا)، ولايلزمه أن يوظف له تعالى ويحشد من أجله الإسلام والإيمان، وتقوى الإسلام وتقوى الإيمان وتقوى الإحسان.

أما حين نترك هذا الفهم المسطح المحدود، إلى فهم أكثر عمقاً وشمولاً، ونفهم أنه تعالى حين قال ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا..** ﴾ ، فهو يعني:

١ - فيما أكلوا من طعام وشربوا من شراب ولبسوا من لباس،
٢ - وفيما كسبوا من رزق في تجارة أو صيد أو زراعة أو عمل،
٣ - وفيما تذوقوا واشتهوا من ذلك كله،
٤ - وفيما أقاموا من علاقات وصلات اقتصادية واجتماعية مع الآخرين، في الجوار والصحبة والعمل والزواج.

يصبح الأمر جديراً أن يحكمه الإسلام وتقوى الإسلام (الوصايا والأوامر والنواهي والصراط المستقيم) والإيمان وتقوى الإيمان (التصديق بالرسالة المحمدية وإقامة الصلاة و الصوم والحج والزكاة بحسب الوسع والإستطاعة) والإحسان وتقوى الإحسان

(الجمع بين تقوى الإسلام وتقوى الإيمان)، وهذا يعني أن ﴿**فيما طعموا**﴾ تشمل كل النشاطات العامة والخاصة للحياة الإنسانية الفردية والإجتماعية.

وعلينا أن نفهم أخيراً، أنه تعالى حين يقصد في آياته أمراً بعينه دون غيره، فهو يعرفه ويصفه ويحدده. واقرأ معي قوله تعالى:

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه و لكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ....** ﴾ الأحزاب ٥٣.

في هذه الآية لايستطيع القارىء العاقل أن يسحب المعنى في قوله تعالى ﴿**فإذا طعمتم**﴾ على اللباس والرزق والسكن والإشتهاء والعلاقات الإقتصادية والإجتماعية، لأن هذه كلها لاينطبق عليها وصف ﴿**غير ناظرين إناه**﴾. وحين قصد تعالى في الآية الطعام الذي يؤكل، فقد أتى بوصف يحدد القصد، فلا يخرج معه إلى غيره، مشيراً إلى أن الطعام المقصود هنا، هو الطعام الذي ينتظر الإنسان نضجه حتى يأكله.

نصل بعد ذلك كله إلى أن نستنتج مايلي:

١ً- إن إبليس ليس له مكان في المساجد. بل مكانه في الأسواق، وفي جميع الحقول الأخرى التي تطبق فيها عبادة الله وعلى رأسها الصراط المستقيم كما عرفناه. بدليل قوله تعالى:

- ﴿ **.. لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ الأعراف ١٦.
- ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ..** ﴾ الأعراف ١٧.

وإن حقل الشيطان، ليس في الركوع والسجود والصيام والحج فقط، فهذا أصغر الحقول وأبسطها، بل هو في جميع حقول العبادات، وإذا أردتم البحث عن إبليس، فلا تبحثوا عنه في المساجد وأماكن الحج حصرا، بل ابحثوا عنه في الغش

و أكـل مـال اليتيـم و الربـا ، و ابحثـوا عنـه فـي تطفيـف المكايـل و المـوازين وحـفظ العهود والوفاء بالأيمان. باختصار ابحثوا عنه حيث يعبد الله[1] .

٢ - إن قوانين ربوبية الله للوجود ليست محل تكليف أصلاً. فإبليس ذاته لم يعص الله في ربوبيته، بدليل قوله تعالى:

. ﴿ **قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين** ﴾ الحجر ٣٦ - ٣٩.

فالربوبية سيادة وملكية قائمة لم يطلب الله من أحد أن يعترف بها، بل طلب العبادة من عباده، والطاعة لأوامره ونواهيه، باعتبارهم عباداً مختارين وليس باعتبارهم عبيداً لايقدرون على شيء.

٣ - إن مصطلح عبد وأمة في التنزيل الحكيم لايعني إطلاقاً الرق، ومصطلح عبد الله في التنزيل لايعني رق الله الذي ينفذ الأوامر فقط، ولاعمل له سوى تنفيذ الأوامر. فإذا قرأنا قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ..** ﴾ البقرة ١٧٨. وجدناه لايعني الحر الذي لايباع ولايشترى ولا العبد الرق الذي يباع ويشترى، بل يعني شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

لقد عرفنا العبد فيما سلف، بأنه الذي يتلقى الأوامر، فيطيعها أو يعصيها، لكنه يبقى عبداً في طاعته، عبداً في عصيانه.

أما الحر فهو الذي يصدر الأوامر والنواهي لمن حوله من العباد، سواء أكانوا موظفين أو عساكر أو خدم. وهذا مانراه في قوله تعالى:

---

(١) - لمزيد من التفصيل، انظر "أين يعبد الله" في مكانه من هذا الكتاب.

- ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ..** ﴾ آل عمران ٧٩.

أي أنه لايمكن أبداً لرسول يرسله الله بأوامره للناس، أن يقول لهم كونوا عباداً لي من دون الله، لأن ذلك أولاً ليس موجوداً في رسالته، ولأنه ثانياً مخالف لما جاء به في رسالته.

فإذا كان العبد هو من صدرت له الأوامر فأطاعها أو عصاها، فيجب بالضرورة أن يكون هناك من أصدر هذه الأوامر، وهذا ماعناه تعالى بقوله ﴿**الحر بالحر**﴾، وهو موجود في كل أنحاء العالم دون استثناء.

الحر ⟵ الآمر

العبد ⟵ المأمور الذي ينفذ الأوامر (عبد مأمور).

ونلاحظ أنه سبحانه أتبع ذلك بقوله ﴿**والأنثى بالأنثى**﴾، ولو كان معنى ﴿**العبد بالعبد**﴾ هو الرق كما يذهب البعض، لكان حقه أن يقول ﴿**والأمة بالأمة**﴾. لكنه قال ﴿**الأنثى بالأنثى**﴾، وفي ذلك تكريم للجنس، فالأنثى تقابلها أنثى أمة كانت أم حرة (آمرة أو مأمورة).

لقد فرقنا بين عبادة العباد، وبين الصلاة والصوم والحج، وقلنا إن الشيطان لاوجود له في المساجد، لأن الإنسان الذي نوى الصلاة وأقامها ليس للشيطان عليه سلطان أبداً. ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان، إنه لكم عدو مبين** ﴾ يس ٦٠.
- ﴿ **وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم** ﴾ يس ٦١.

فهل عبادة الشيطان هنا تعني الصلاة والصوم والحج له؟ وهل هناك لبس في أن العبادة هي الصراط المستقيم بدلالة الآية الثانية ؟

يقول تعالى :

- ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة** ﴾ البينة ٥.

هنا يظهر لنا الفرق بين العبادة (اعبدوا الله) وبين إقامة الصلاة. فالعبادة عمل وظيفي بحت، أي حالة وظيفية (سلوك)، أما الصلاة فحالة وجدانية بحتة، تعبر عن ذكر الله ﴿ **.. فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾. ونضرب لهذا مثلاً، تعالى الله عن المثل والشبيه:

إذا قبل زيد أن يعمل مستخدماً عند عمرو، فعليه أن يطيع أوامره، لكن ذلك لايعني أن عمرواً دخل وجدان زيد. ولايعني أن زيداً يحب عمرواً. وهذا ماقصدناه بأن الصلاة حالة وجدانية. فالله سبحانه في عقولنا (نعبده) وفي وجداننا (نقيم له الصلاة) أي: طاعة + حب.

هذه الحالة نرى شبيهاً لها في العلاقة الزوجية، فقد تطيع المرأة زوجها، وفي وجدانها رجل آخر، وقد يكرم الرجل زوجته، وفي وجدانه امرأة أخرى، لكن أسمى أنواع الزواج، هو عندما يكون الزوج في وجدان زوجته (تحبه) وعندما تكون الزوجة في وجدان زوجها (يحبها).

من هنا نرى أن إقامة الصلاة لذكر الله ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾، رغم أنها كتاب (أي أمر وتكليف)، فإن في إقامتها شيئاً خاصاً مميزاً، أكثر من مجرد تنفيذ أمر الله وطاعته، شيئاً يسمو بصاحبه عن مجرد الرغبة بالجنة أو الرهبة من النار، شيئاً هو وجدانية الحب أو محبة الوجدان.

قد نلتزم العدل في أحكامنا بقصد توطيد أركان ملكنا فالعدل أساس الملك، وقد نصدق في تعاملنا مع الناس طمعاً بكسب ثقتهم وجعلهم زبائن لنا، وقد نفي بالعقود خوفاً من البنود الجزائية فيها، وقد نكرم الضيف والجار على أمل أن نكرم نحن بالمقابل.

أما في إقامة الصلاة لذكر ا لله، فنحن نقيمها لاخوفا ولاطمعا ولاقصدا لغاية، بل لأنها الطريقة للتعبير عن أن ا لله في وجداننا، وأننا نحبه.

٢_ العبد و العبيد و العبودية

و ننتهي أخيراً إلى أهم سوال يخطر على البال ، إذا كان العباد ، كما نقول، من العبادة و قد أسلفنا شرحها تفصيلاً، وإذا كان مفردها (عبد)، كما قلنا، لاعلاقة له بالرق مطلقاً .. فمن هم العبيد والإماء؟ بمعنى آخر، هل جاء التنزيل الحكيم على ذكر العبيد والإماء؟ وماهو موقف التنزيل من الرق والنخاسة والعبودية؟

نبدأ القول بأن مصطلح (عباد) كما ورد في التنزيل الحكيم يشمل الذكر والأنثى، ولايقتصر على الذكور فقط. وذلك واضح في قوله تعالى:

- ﴿ .. **وما ا لله يريد ظلماً للعباد** ﴾ غافر ٣١.
- ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ المائدة ١١٨.
- ﴿ .. **ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ الحجر ٣٩، ٤٠.
- ﴿ .. **وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا** ﴾ الإسراء ١٧.

على ألا ننسى ماسبق أن قلناه، من أن العباد في جميع هذه الآيات هم العصاة والطائعون من ذكور وإناث.

ثم ننتقل إلى قوله تعالى :

- ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم ا لله من فضله، وا لله واسع عليم** ﴾ النور ٣٢.

- ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ..** ﴾ البقرة ٢٢١.

ونلاحظ أن الإماء (إمائكم) في الآية الأولى جاءت بعد العباد (عبادكم)، أي أن الآية تتحدث عن الذكور من العباد، وعن الإناث من العباد (الإماء). والذي اقتضى ذلك، هو أن الآية تتحدث عن النكاح، والنكاح فيه طرفان ذكر وأنثى. وقوله ﴿**من عبادكم و إمائكم**﴾ يعني المستخدمين لديكم المؤتمرين بأوامركم من ذكور وإناث. ولايعني أبداً العبودية والرق.

ونسأل مرة أخرى : فأين الرق و العبودية إذن في التنزيل الحكيم؟ و نعود إلى التنزيل لنجده يتحدث في آية وحيدة فقط عن الرق والعبد المملوك في قوله تعالى:

- ﴿ **ضرب ا لله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوون، الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ النحل ٧٥.

لقد وصف تعالى العبد المملوك بأنه الذي لا يقدر على شيء، أي الذي فقد القدرة على الاختيار بين نعم وكلا. وقارنه بمن رزقه فأنفق، أي بمن ملك القيومية على رزقه، و ملك الحرية بالتصرف في إنفاقه بالوجوه التي يختارها. وذلك ليؤكد أن ا لله خلق العباد أحراراً، و أن العبودية والرق من صنع الناس. ومن هنا نفهم أن التنزيل الحكيم لم يقر الرق والعبودية، و لم يعترف به، كما يحلو للبعض أن يتوهم، إذ من الواضح في الآية أن العبد المملوك موضع سخرية وذم، وأن درجته في المنزلة أدنى وأسفل وهذا تعبير عن مراحل تطور التاريخ الإنساني، الذي هو من صنع الإنسان.

لقد رأينا التنزيل الحكيم يجمع عبد على عباد، ورأيناه يعني بذلك الذكور والإناث الطائعين والعصاة، فكيف جمع التنزيل العبد المملوك ذكراً وأنثى؟ ويجيبنا التنزيل نفسه على السؤال: الجمع هو العبيد. ونقرؤ قوله تعالى :

- ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ آل عمران ١٨٢ والأنفال ٥١.
- ﴿ **ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ الحج ١٠.
- ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ فصلت ٤٦.
- ﴿ **ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ ق ٢٩.

لقد ورد مصطلح العبيد (جمع عبد مملوك وأمة مملوكة) خمس مرات في خمس آيات من التنزيل الحكيم، هي الواردة أعلاه. فلننظر في سياق هذه الآيات الخمس.

- ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ آل عمران ١٨١.
- ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ الأنفال ٥٠.
- ﴿ **ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ الحج ٩.
- ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم، وإنهم لفي شك منه مريب** ﴾ فصلت ٤٥.
- ﴿ **قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ ق ٢٨.

ونلاحظ ما يلي :

١ - **ذوقوا عذاب الحريق** ←———— **وأن الله ليس بظلام للعبيد**

٢ - **وذوقوا عذاب الحريق** ⟵ **وأن الله ليس بظلام للعبيد**

٣ - **ونذيقه عذاب الحريق** ⟵ **وأن الله ليس بظلام للعبيد**

٤ - **من عمل صالحا فلنفسه**

ومن أساء فعليها ⟵ **ومابربك بظلام للعبيد**

٥ - **قال لاتختصموا لدي**

ومايبدل القول لدي ⟵ **وما أنا بظلام للعبيد**

إن أول مانلاحظه في ترتيل الآيات، أنها تتحدث عن يوم الحساب ويوم القيامة ومرحلة مابعد الموت، ونفهم في ضوء هذه الملاحظة الأمور التالية:

١ - الناس عباد لله في الدنيا، عبيد لله في الآخرة.

٢ - يفقد الإنسان بموته القدرة على الاختيار، فيصبح عبداً مملوكاً لله لايقدر على شيء ﴿ **الملك يومئذ لله** ﴾.

٣ - لاعبادة يوم القيامة، وبالتالي فالناس يوم الحساب ليسوا عباداً، بل عبيداً، لأن العبادة مطلوبة من العباد في الدنيا.

٤ - في الدنيا هناك هدى وخيار في الطاعة والمعصية، أما في الآخرة فهناك سَوْق فقط لاخيار فيه بدليل قوله تعالى :

- ﴿ **إلى ربك يومئذ المساق** ﴾ القيامة ٣٠.
- ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ..** ﴾ الزمر ٧١.
- ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ..** ﴾ الزمر ٧٣.

٥ - يوم القيامة هو يوم الحساب ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ وليس فيه تكاليف ولا أوامر تطاع وتعصى، وليس فيه صلاة ولاصوم.

فإذا فهمنا هذا كله فهمنا أن العباد في الدنيا القادرين على الإختيار بين الطاعة والمعصية، هم عبيد في الآخرة لأنهم لايقدرون على شيء، ولا يحتاجون إلا إلى محاكمة

عادلة، فجاءت الآيات تطمئنهم إلى عدل الله المطلق الذي لايظلم العبيد أمامه مثقال ذرة مما عملوا في الدنيا باختيارهم وهم عباد.

هنا نستطيع أن نقارن بين قوله تعالى عن العباد في الدنيا :

- ﴿ .. **وما الله يريد ظلما للعباد** ﴾ غافر ٣١.

وقوله تعالى عن العبيد في الآخرة :

- ﴿ .. **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ آل عمران ١٨٢، الأنفال ٥١.

ونستطيع أن نستنتج أن الحكم والمحاكمة يوم الحساب لاتكون إلا لعباد أحرار مختارين بملء إرادتهم، وليس لعبيد مسوقين لايقدرون على شيء، وإلا فالمحاكمة لامعنى لها، وذلك بدلالة قوله تعالى : ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ غافر ٤٨.

يوم المحاكمة والحساب يتحول الناس من عباد إلى عبيد، فتجزى كل نفس ماكسبت، ويجدون ماعملوا حاضراً، ثم يصدر الحكم، فيساق الجميع إلى حيث حكم الله، الذين كفروا إلى جهنم، والذين اتقوا ربهم إلى الجنة. بعد ذلك كله يتحول أصحاب الجنة من عبيد إلى عباد، ولكن بدون أوامر وتكاليف. وهذا واضح في وصف التنزيل الحكيم لأهل الجنة :

- ﴿ **عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** ﴾ الإنسان ٦.
- ﴿ **لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون** ﴾ يس ٥٧.
- ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ ق ٣٥.
- ﴿ **إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون** ﴾ المرسلات ٤١، ٤٢.

ونفهم أن الحرية ، حرية الاختيار، هي النعمة الكبرى التي أنعمها الله على الإنسان وكرمه بها، وليس لأحد الحق بأن ينتزعها منه، ونفهم أن الله طلب من الناس أن يعبدوه دون غيره، وأن يكونوا عباداً له دون غيره، يعصونه إن اختاروا العصيان، ويطيعونه إن قرروا الطاعة بملء إرادتهم، ويبقون في الحالين عباده، وقد بدأ آدم بالتعبير

عن عباديته لله في المعصية لافي الطاعة. ومن هنا جاء التأكيد من جميع الرسل والأنبياء أولاً وقبل أي شيء آخر على التوحيد، وعلى عدم إشراك شيء مع ا لله الذي منحنا هذه الحرية بالخلق، طاعة ومعصية، لأننا بهذه الحالة نكون قد حسدنا ا لله بآخرين، وهذا هو الشرك، فإذا قلنا أن زيداً منح الحياة للناس، نكون قد حسدنا ا لله في زيد، وإذا قلنا أن عمرواً منح الحرية للناس، نكون قد حسدنا ا لله في عمرو، سبحانه وتعالى عما يصفون. ومن هنا قال تعالى : ﴿ **إن ا لله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء..** ﴾ النساء ٤٨، ١١٦. ومن هنا أيضاً، من مفهوم العبادة كطاعة مطلقة، جاء قول قوم نوح:

- ﴿ **ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون** ﴾ المؤمنون ٣٤.

وجاء قول فرعون وملئه :

- ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾ المؤمنون ٤٧.

أما العبودية فلا تكون، في الحياة الدنيا، إلا لغير ا لله لأنها لاتكون إلا باتجاه واحد. وتعني القسرية وانعدام حرية الاختيار وفقد إمكانية (نعم/كلا)، فيصبح الناس مستعبدين لايقدرون على شيء ولو لم يكونوا أرقاء. ولقد وصف تعالى الناس في هذه الحالة بالفاسقين، الذين فقدوا القدرة على كلا وبقيت قدراتهم محصورة بـ نعم، ففقدوا بذلك كرامتهم وحريتهم، يقول تعالى عن فرعون:

- ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ الزخرف ٥٤.

وهذه هي صفة النظم الاستبدادية على مر التاريخ، فهي وإن تغيرت في الشكل، إلا أنها هي ذاتها في المحتوى. لذا فنحن نرى أن أنسب النظم القائمة اليوم لتحقيق عبادية الناس لله هي النظام الديموقراطي، القائم على التعددية الحزبية، وحرية نعم/كلا، والرأي والرأي الآخر، فالشعب في النظام الديموقراطي يمارس سلطاته بنفسه، ويحكم نفسه بنفسه، ويشرع لنفسه. وأفراد الشعب في النظام الديموقراطي كلهم عباد، يملكون

حرية التعبد والعبادة، وحرية الإختيار. كلهم متساوون مسؤولون كعباد أمام الله، وكمواطنين عباد في الدولة أمام القانون، ويخضعون جميعاً للمساءلة والمحاكمة في الدنيا، كما في الآخرة، و يحق لهم بالمقابل أن يتوفر لهم القضاء العادل والدفاع عن النفس.

في المجتمع الديموقراطي يصبح القتال من أجل تحقيق العبادية لله وحده من المثل العليا الإنسانية (الإسلام)، وهذا لايتحقق إلا إذا كان الناس أحراراً، فالحرية هي عين العبادية لله وحده، والقتال من أجل حريات الناس في اختياراتهم وآرائهم، هو القتال في سبيل الله، وفي سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، وفي سبيل رفع كل ظلم ينتج من الإشراك بالله في الطاعة لأوامره التي هي المثل العليا الإنسانية مضافة إلى التوحيد. وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلاً، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم** ﴾ الأنعام ١١٥. وفي المأثور عن الرسول الأعظم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

نحن لانجد قتالاً في سبيل الله، إلا في القتال من أجل العدل والحرية. العدل هي كلمة الله العليا، والحرية للناس. فعندما تتحقق الحرية لكل الناس بدون استثناء، أي حرية الرأي والرأي الآخر وحرية تبين الرشد من الغي، للمؤمن والكافر والمسلم والمجرم والمطيع والعاصي في كل مجالات الحياة، عندها فقط يتحقق القول ﴿**لاإكراه في الدين**﴾. أي أن الإنسان يطيع الله بملء اختياره ويعصيه بملء اختياره. محققاً بذلك عباديته لله في الطاعة والمعصية، ليستحق بعد محاكمته الثواب والعقاب.

أما أن نزعم أن كلمة الله العليا، هي في تطبيق الفقه الموروث، وفتاوى الفقهاء وأوامرهم ونواهيهم تحت شعار هكذا أجمع الجمهور، وتحت شعار بخاري ومسلم، فهو استخفاف بكلمة الله، وهو العبودية بعينها.

أما أن نزعم أن العبادية لله تتمثل في الذل والخنوع، وتهديل الأكتاف وإمالة الرأس، والإكتفاء بإقامة الشعائر، فهذه ليست عبادية ونحن لسنا عبيداً في الدنيا بل عباد فيها، عبيد في الآخرة، عباد في الجنة.

وهذا لايتحقق إلا في المجتمع الديموقراطي، المجتمع الذي تصان فيه الحريات بكل أنواعها، ويتم فيه الإلتزام بالقوانين، ولانقول طاعة القوانين. إذ الإلتزام شيء والطاعة شيء آخر. فالطاعة والعصيان لاتكون لغير العاقل، وهي إما أن تكون لله، أو أن تكون لعاقل غير الله، فإن كانت لغير الله في وجه واحد هو النعم دائماً كانت هي الاستعباد والاستبداد (العبودية)، أما الإلتزام بالقانون فلا يكون إلا طواعية وبملء الإرادة، ضمن نظام شوري فيه نواب منتخبون، يشرعون القوانين التي تمثل إرادة الملتزمين بها، ويشرعون العقوبات التي تطبق بحق المخالفين لهذه القوانين. لكن تصويت الأكثرية لصالح قانون ما لايعني أبداً أن الأقلية لن تطبق هذا القانون حال نفاذه، أو تخالفه، فالنظام الشوري هو التزام الأقلية برأي الأكثرية في التشريع، مع بقاء حق المخالفة في الرأي وحق التعبير عنه بطريق الصحافة ودور النشر، مؤيداً بالبينات. وهذا لايكون إلا ضمن حالة تعاقدية بين الحاكم والمحكوم، تنظمها بنود الدستور التي تعطي الشرعية للمؤسسات الثلاث، وصلاحية ممارستها للسلطات المخولة لها. ولكن هل يكفي الدستور والقانون للالتزام ؟

٣ _ الميثاق

نحن نرى أن ذلك لايكفي، فقد تتم صياغة دستور جميل براق، من قبل شخص أو لجنة، ولا يلتزم الناس به. فالدستور عقد، ومواده بنود هذا العقد، والقانون هو آلية تنفيذ هذه البنود ضمن الحياة اليومية المعاشة بكل أبعادها. ولكن، ليتم الالتزام الطوعي بهذا القانون وذلك الدستور، لابد من أمر أساسي يأتي قبلهما، ورد في التنزيل الحكيم وغفلنا نحن عنه وضيعناه، هو الميثاق. أي أن لدينا :

الميثاق ⟵ الدستور ⟵ القانون

فالميثاق في اللسان العربي من وثق، ومنه جاءت الثقة. فالثقة بين المريض وطبيبه تأتي من أن كلام الطبيب موثق وموثوق عند المريض، ولهذا فهو ينفذ وصاياه وأوامره طواعية، دون أن تكون هناك قوانين أو دساتير توجب عليه الإلتزام. وللثقة دور أساسي، فهي التي تولد الإلتزام، ولا التزام بدونها. وهي قبل الدستور وقبل القانون، إذ بانعدامها يصبح الدستور والقانون حبراً على ورق، وكم من دساتير وقوانين مفيدة وإيجابية بقيت حبراً على ورق، لانعدام الثقة بين الدولة والمواطن.

فالميثاق الوطني مثلاً، ليس دستوراً يعطي شرعية أو ينزع شرعية، ولا قانوناً ينص على وجوب السير على اليمين، ويعاقب من يخالفه. بل هو يحدد شروط الإنتساب إلى المجتمع، أو شروط الإنتساب إلى العمل السياسي بغض النظر عن تباين الآراء. أي أن بنود الميثاق ملزمة للرأي والرأي الآخر، والإلتزام بها طوعي وليس قسرياً بحكم الدستور أو بقوة القانون. وهو الذي بدونه لاتقوم دولة، ولايقوم مجتمع، بغض النظر عن الثقافة ووسائل الإنتاج، ودرجة التطور التكنولوجي والعلمي.

ميثاق الإسلام هو المثل العليا للمجتمع الإنساني، وهو مانقصده بقولنا القانون الأخلاقي، القانون الإنساني العام الذي يخضع له ويدخل فيه الرأي والرأي الآخر، لأنه إنساني غير بهيمي.

الميثاق رباط طوعي يقوم على ثقة وقبول بين طرفين، لكنه في اللحظة التي يتصف فيها بالقسر يتحول إلى وثاق مادي أشار إليه تعالى في قوله:

- ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ الفجر ٢٥، ٢٦.
- ﴿ **.. حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ..** ﴾ محمد ٤.

ونحن نرى أن هذا الميثاق هو أركان الإسلام، التي سماها تعالى الصراط المستقيم في قوله:

- ﴿ **وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم** ﴾ يس ٦١.

أي أن الصراط المستقيم، الذي يعبد ا لله بإتباعه، هو بنود هذا الميثاق الذي بدأ بنوح وختم واكتمل بمحمد (ص). فإذا نظرنا في التنزيل الحكيم، نجد أن الميثاق ورد ٣٤ مرة فيه، بينما لم يرد مصطلح العقود إلا مرة واحدة فقط في سورة المائدة ١. وهذا وحده يدلنا على أن المواثيق أهم كثيراً في حياة الناس والمجتمعات من العقود التي يعتبر الدستور أحد أشكالها.

من هنا نفهم أن الميثاق هو الصراط المستقيم، وأن الصراط هو العبادة، وأن العبادة هي الإلتزام الطوعي بالمثل العليا والقوانين الأخلاقية المتمثلة بما أنزل ا لله على أنبيائه ورسله من وصايا. ونفهم أن الميثاق والإلتزام الطوعي به هو عبادة ا لله بالفطرة، وأن من يخالفها فإنما يخالف الفطرة الإنسانية و دين الفطرة الإنسانية ويسفه نفسه.

من هنا نرى كيف أن أركان الإسلام تدخل في الميثاق، ميثاق عبادية الناس لله التي تقوم على الثقة با لله وبأن الناس عباده، وعلى الثقة بأوامره التي بدأت بنوح وانتهت بمحمد (ص) فكانت بنوداً لميثاق عنوانه: ﴿ **وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم** ﴾. أي أن ا لله هدانا إلى الميثاق بالصراط المسقيم.

وقد وضع سبحانه لهذا الميثاق مقدمة، هي حرية الناس في عبادته بقوله تعالى:

- ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾ الذاريات ٥٦، ٥٧.

فقد خلق الله الناس أحراراً ليكونوا (عباداً وليس عبيداً) تكمن عباديتهم في حريتهم بالإختيار بين الطاعة (نعم) والمعصية (كلا)، وبين الإسلام والإجرام، فهم أحرار في أن يأتوه مؤمنين أو مجرمين، بدليل قوله تعالى:

- ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** ﴾ طه ٧٤. ٧٥.

كما تكمن عباديتهم في حريتهم بالاختيار بين الكفر والإيمان، بمقتضى قوله تعالى:

- ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ يونس ٩٩.

وهكذا نرى الخطأ الفاحش لمصطلح "عبودية الناس لله" الذي ورد في الأدبيات الإسلامية تحت عنوان "هذا هو الإسلام" وعلى من يطرح هذا الشعار أن يراجع التنزيل الحكيم مرة أخرى ويتدبره، فلا يوجد البتة علاقة عبودية بين الله والناس، وإنما هي علاقة عبادية حرة تخضع للحساب والمساءلة، ولو كانت هناك علاقة عبودية بين الله والناس لما وجدنا في الأرض إنساناً واحداً يعصي الله. وهكذا نفهم معنى ﴿**..إلا ليعبدون**﴾.

لنستعرض الآن كيف ورد الميثاق في التنزيل الحكيم، يقول تعالى:

- ﴿ **لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم** ﴾ البقرة ٢٥٦.

وهذه الآية هي أول آيات الميثاق (العروة الوثقى) ومفتاحه، التي تؤكد أن الميثاق التزام طوعي لاإكراه فيه. ولقد ورد مصطلح (العروة الوثقى) في قوله تعالى:

- ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ لقمان ٢٢.

تتضح في هذه الآية معالم الميثاق، ونفهم أنه الإسلام بأركانه الثلاثة (الإيمان با لله/ الإيمان باليوم الآخر/ العمل الصالح)، وبذلك يتأكد ماقلناه من أن الميثاق هو أركان الإسلام وهو الصراط المستقيم.

والميثاق هو علاقة ثقة متبادلة بين طرفين، فا لله سبحانه أرسل لنا تعليمات وطلب منا أن نثق به، ولهذا سميت تعاليم الإسلام (التي بدأت بنوح وانتهت بمحمد) بالميثاق كما في قوله تعالى:

- ﴿ **وإذ أخذ ا لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ آل عمران ٨١.

وهذا يؤكد ماقلناه من أن التعاليم الواردة في التنزيل الحكيم، جاء قسم منها للرسل قبل محمد (ص) ثم تمت واكتملت به. ففي التنزيل الحكيم أمثلة من بنود ميثاق بني إسرائيل، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا ا لله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون** ﴾ البقرة ٨٣.

وهنا نلاحظ كيف أضاف إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلى عبادة ا لله والاحسان للوالدين، ليدلنا على أن الميثاق يجمع بين الإسلام والإيمان. ففي الإسلام عبادة ا لله وفي الإيمان إقامة الشعائر والمناسك.

والميثاق أهم من العهد والمعاهدة، ويأتي قبله، ونرى ذلك في قوله تعالى:

- ﴿ **..وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد ا لله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر ا لله به أن يوصل ويفسدون في الأرض..** ﴾ البقرة ٢٦، ٢٧.

وفي قوله تعالى:

- ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ الرعد ٢٥.

أما عند ذوي الألباب الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه، فالميثاق والعهد كل واحد لايتجزأ، أو هما على الأقل في مرتبة واحدة، بدلالة قوله تعالى:

- ﴿ .. **إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية** .. ﴾ الرعد ١٩، ٢٢.

ومرة أخرى نلاحظ كيف يفرد تعالى بنداً خاصا لإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلانية الذي تدخل فيه الزكاة، ليدلنا على أنها ليست من العبادات، وأنها من أركان الإيمان، وأن الميثاق يجمع بين أركان الإسلام وأركان الإيمان.

والميثاق يقوم على الثقة المتبادلة والإلتزام الطوعي، وذلك واضح في قوله تعالى:

- ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا** ﴾ النساء ٢٠، ٢١.

ولتأكيد أن الثقة بين الطرفين أهم من العقود، فقد قال تعالى:

- ﴿ **قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل** ﴾ يوسف ٦٦.

وقال تعالى :

- ﴿ **فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين** ﴾ يوسف ٨٠.

الميثـــــــاق

(١) ميثاق الإسلام (العبادة)

وهو واحد لجميع أهل الأرض

(العبادات) ← **(المسلمون)** → **(الميثاق الإنساني)**

- (العبادات) ↓ التوحيد وعلاقة العباد بالعباد.
- (الميثاق الإنساني) ↓ الصلة بين العباد والعباد.

العبادات ← ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾

(٢) ميثاق الإيمان

(بين ا لله والذين آمنوا)

(التكاليف) ← **(المؤمنون)** → **(ميثاق الصلة بين ا لله والإنسان ويختلف من أمة إلى أمة).**

- (التكاليف) ↓ ذكر ا لله (العلاقة بين العباد وا لله).
- (المؤمنون) ↓ شهادة أن محمداً رسول ا لله + الصلاة والزكاة والصوم والحج.

الحياة إما ميثاق وإما وثاق. فالميثاق التزام وارتباط طوعي يتم بملء اختيار الإنسان وحريته، فإذا خالطه إكراه وقسر تحول إلى وثاق، ومن هنا جاء مفهوم العقوبة بحجز الحرية في السجن ومفهوم القيود والأغلال. وهذه الحرية الطوعية في إعطاء الميثاق وأخذه، واضحة في قوله تعالى:

- ﴿ **قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من ا لله ..** ﴾ يوسف ٦٦.
- ﴿ **واذكروا نعمة ا لله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ..** ﴾ المائدة ٧.
- ﴿ **... و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ..** ﴾ الأنفال ٧٢.

والحياة الإنسانية لاتقوم بدون مواثيق تتألف من بنود، يتم القسم على الإلتزام بها، فتتحول إلى عهود بين العباد الذين أقسموا عليها وا لله. أي : الميثاق + القسم = عهد ا لله . لكن تبقى الحرية وطوعية الإلتزام هي السمة البارزة المميزة لهذه المواثيق جميعا. و على هذا الاساس تتم المساءلة و الثواب و العقاب، ثم يأتي بعد ذلك المفهوم التعاقدي لينظم آلية عمل المواثيق في الحياة، حيث يظهر مفهوم الدستور و القانون.

ويأتي الميثاق الإنساني على رأس المواثيق جميعاً، وهو ماسميناه ميثاق الإسلام، الذي يبدأ من الإيمان با لله واليوم الآخر تسليماً، ليشمل المثل العليا الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية. ثم يليه الميثاق الإيماني الذي يبدأ بشهادة أن محمداً رسول ا لله، ليشمل الشعائر والطاعات والذكر. ثم تليهما مواثيق أخرى، كميثاق المواطنة، وميثاق الزوجية، وغيرهما. ولقد فصلنا القول في ميثاق الإسلام وأركانه، وفي ميثاق الإيمان وأركانه. فانظره في مكانه من هذا الكتاب.

والميثاق يصبح عهداً لله، كما قلنا، إذا تم القسم عليه(وبعهد ا لله أوفوا) والالتزام بالميثاق في هذه الحالة التزام بعهد ا لله، والوفاء به ونقضه وفاء بالميثاق ونقض له، تماما كما في قوله تعالى: ﴿ **الذين يوفون بعهد ا لله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ الرعد ٢٠. ونفهم أن عدم الوفاء بعهد ا لله = نقض الميثاق. وننتقل إلى قوله تعالى:

- ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ آل عمران ٧٧.

ونلاحظ كيف تربط الآية بين عهد الله والأيمان، مشيراً إلى القسم الذي يحلفه من اختار الإلتزام بالميثاق. ولعلنا لم نجد عقوبة صريحة شديدة قاسية في التنزيل الحكيم أكثر من عقوبة نقض عهد الله وميثاقه الواردة في هذه الآية.

فالزوجية ميثاق، تتلى بنوده علانية أمام الزوجين، فيعلنان القبول والالتزام بها، ثم يقسمان على ذلك ليصبح عهداً لله في عنقيهما، ثم يتم بعد ذلك كله تنظيم عقد الزواج، بمواده وشروطه من مؤخر صداق وغيره. ومن هنا نفهم أن عقد الزواج دون عهد وميثاق، ودون التزام طوعي حر بهذا العهد وهذا الميثاق، هو عملية بيع وشراء متخلفة بدوية.

لقد سمى التنزيل الحكيم رباط الزوجية ميثاقاً غليظاً، فما هو الميثاق الغليظ؟ لقد ورد هذا المصطلح ثلاث مرات في التنزيل الحكيم بقوله تعالى:

- ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا** ﴾ النساء ٢١.
- ﴿ **ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا** ﴾ النساء ١٥٤.
- ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا** ﴾ الأحزاب ٧.

والغليظ باللسان العربي، في العهود والأيمان والمواثيق، هو المشدد المؤكد.

فإذا نظرنا في الآيات الثلاث التي ورد فيها الميثاق الغليظ، نجد أنها تتحدث عن ثلاثة أنواع من المواثيق:

١ - ميثاق الزوجية في الآية الأولى.

٢ - ميثاق أهل الكتاب والتوراة في الآية الثانية.

٣ - ميثاق النبوة في الآية الثالثة.

ومايهمنا في بحثنا هذا هو الميثاق الغليظ في آية النساء ٢١، الذي يشير بكل وضوح إلى وجود ميثاق للزوجية، له بنود قبل طرفا الزواج الإلتزام بها طواعية، وعاهدا الله على الوفاء بهذا الإلتزام. ولاندري لماذا تم إغفال هذا الجانب الأساسي في موضوع الزواج، ولماذا تم اعتبار الزواج بمجرد عقد، لايهتم بأكثر من الوجه الجنسي (النكاح) والوجه الإقتصادي (الصداق) وقد يشمل بعض شروط الردع أحياناً ومواد التغريم النقدي أحيانا أخرى تحت عنوان رضا الطرفين المتعاقدين.

فإذا ماقارنا عقود النكاح وعقود الزواج المبرمة اليوم، مع أي عقد لبيع دراجة، فلن نجد بينها اختلافا كبيرا. والغريب المدهش أننا نجيز الوكالة في عقد النكاح تماماً كما نجيزها في عقود البيع الأخرى، وهذا في رأينا إهانة كبيرة لقدسية الزواج ولعهد الله في ميثاق الزوجية. إضافة إلى المادية في عقد الزواج، لكننا لانفهم أبداً كيف يلتزم نيابة عنه بعهد الله وبالميثاق المؤكد الغليظ !!

والطريف أن النصارى أتباع المسيح رسول الله وكلمته، قد انتبهوا لهذه النقطة، فأعطوها حقها في كنائسهم، أكثر مما أعطيناها نحن المؤمنين، أتباع محمد (ص). فتراهم يقرأون بنود ميثاق الزوجية علناً على الخاطبين، ويطلبون منهما القبول علناً بهذا الميثاق، بعدها يتم إعلانهما كزوجين، وتستكمل باقي الطقوس. وكان الأحرى بنا نحن، وقد ورد هذا الميثاق صراحة في الرسالة المحمدية، (النساء ٢١) أن نرسخه ونعمل به. لكننا اكتفينا للأسف بالعقود التي لاتختلف عن عقود البيع والشراء، واهتممنا بشروط الصداق مقدمه ومؤخره، غافلين عن البنود الأهم في رباط الزوجية، بنود الميثاق، مما جعل الطلاق بالتالي أمراً سهلاً معياره الجانب المالي والشروط الجزائية الأخرى. ناسين عهد

ا لله الذي قام ميثاق الزوجية عليه أساساً، والذي هو أهم من الصداق ومؤخر الصداق وكل الشروط الجزائية الأخرى.

فإذا أردنا أن نفصل بنود ميثاق الزوجية، فما علينا إلا أن نذكر أن الزواج أسرة وأولاد وصهر ونسب وإحصان للرجل والمرأة ومسؤولية في جميع الأحوال والظروف. ومن هنا كان ميثاق الزوجية ميثاقاً غليظاً، وهو الذي يعلن بالتزام بنوده الرجل والمرأة زوجين، وليس مقدم الصداق ومؤخره، فالصداق ليس أكثر من هدية يهديها الرجل للمرأة، تكريماً لها على موافقتها على الزواج به، قد تكون باقة ورد أو خاتماً من حديد، لاترتب أي التزام.

إن بنود ميثاق الزوجية، هي بنود لحماية الأسرة والمجتمع، يعاهد كل من الزوجين ا لله على الإلتزام بها علناً أمام الناس:

١ - أن يكون الزوج صادقاً مع زوجته فلا يكذب عليها في حال من الأحوال.

٢ - وأن يرعاها في السراء والضراء والفقر والغني والصحة والمرض، ويحافظ لها على مالها.

٣ - أن لايرتكب فاحشة بعد زواجه منها.

٤ - أن يرعى أولادها ويبذل جهده وماله في رعايتهم والإنفاق عليها وعليهم ويحافظ على رباط الأسرة.

٥ - ألا يتكلم عن خصوصياتها معه أمام الغير في حالي الغضب والرضا، أو في حال الطلاق وبعده. ثم يقسم كل من الزوجين على هذه البنود علناً أمام الحضور الشهود، ثم يقدم الرجل هديته لزوجته (الصداق)، ثم يتم بعد ذلك كله إعلانهما زوجاً وزوجة أمام ا لله والناس.

فإذا نظرنا إلى هذه البنود، كعهد لله في عنق الزوجين، رأينا أنها ميثاق غليظ، لايستطيع الوفاء به والإلتزام بحمله إلا من كان مؤهلاً لذلك. وهذا يقودنا من جهة أولى

إلى عدم جواز الوكالة في ميثاق الزوجية وفي عهد ا لله بالإلتزام به، ومن جهة ثانية إلى شرعية الطلاق، كمخرج وحيد في حال تعذر الوفاء بعهد ا لله على أحد الزوجين. ويقودنا من جهة ثالثة إلى أن طلب الطلاق حق للزوج وللزوجة على حد سواء، باعتبارهما طرفين متساويين في عهد واحد.

فالزوج أو الزوجة الذي أعطى عهد ا لله وأقسم على الإلتزام بميثاق الزوجية، سيحسب ألف حساب وحساب وهو يقرأ قوله تعالى عن عقوبة الناكث بعهود ا لله وبالأيمان:

- ﴿ **إن الذين يشترون بعهد ا لله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم ا لله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ آل عمران ٧٧.

وإذا كان ميثاق الزوجية يحمي الأسرة والفرد في الأسرة، فإن ميثاق الوطن والمواطنة والعمل السياسي لايقل أهمية في حمايته للوطن والمجتمع والفرد.

فميثاق العمل السياسي والوطني، شأنه شأن المواثيق الأخرى، لايخرج أبداً عن المنطلق الأساسي لكل المواطنين المتمثل في الميثاق الإنساني (ميثاق الإسلام) القائم على عمود واحد لاثاني له هو حرية الناس في الإختيار باعتبارهم عباداً لله تعالى.

نعود الآن، بعد أن شرحنا العبد والعباد، والعبادة والعبودية، إلى قوله تعالى:

- ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ الأنبياء ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.

لقد قلنا إن الميثاق الإنساني هو المثل العليا التي يلتزم بها الناس، كل الناس، على صراط مستقيم قائم على أساس الثقة با لله ﴿.. **اعبدوا ا لله مالكم من إله غيره** ..﴾

وهو تعاليم الإسلام كدين ارتضاه الله لعباده ولايقبل منهم غيره. وكان شرحنا كله ينصب على جانبين: علاقة العباد بالله، وعلاقة العباد بالعباد. فماذا عن علاقة العباد بالطبيعة؟

ثمة عالم مادي موضوعي يتجلى في حقول مختلفة هي الزراعة، والأنعام، وعلوم الفيزياء والكيمياء، والصناعة .. الخ. وثمة علاقة للإنسان بهذا العالم استثماراً وتسخيراً، وهذا جانب يقوده الشهداء من العباد. أما الصالحون فهم الذين يستثمرون ماأنتجه الشهداء لصلاح أمورهم. فالمثل العليا لاتكفي في هذا العالم المادي رغم أنها لازمة. ولابد من إضافة بند إليها هو بند الصالحين. إذ لاتستطيع المثل العليا بكل مافيها أن تقاوم قنبلة نووية ، أو أن تنتج سيارة أو طائرة ، أو أن تزرع قمحاً و تصنع رغيفاً. لأنها ذاتية تخص الإنسان و العلاقات الإنسانية ، ولابد من أن نضيف إليها القوانين الموضوعية للطبيعة، لنصبح مؤهلين لوراثة الأرض.

إن المجتمع المؤلف من صالحين، مجتمع مادي قوي لكنه جزار متوحش لامكان فيه لإنسانية الإنسان. والمجتمع المؤلف من عابدين، مجتمع طوباوي روحاني لطيف، لكنه هش متخلف يمكن قهره بسهولة. ومن هنا يبلغنا الله في الآية بشكل حازم (لبلاغا) أن الأخلاق الفاضلة والمثل العليا (العابدين) لاتكفي لوراثة الأرض وامتلاكها، بل يجب إضافة بند آخر إليه، هو (الصالحون)، الذين ورد ذكرهم مع الشهداء في قوله تعالى:

- ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا** ﴾ النساء ٦٩.

وبهذا نكون سادة الأرض في عمارتها وفي علاقاتنا الإنسانية بعضنا مع بعض. ونعود إلى قوله تعالى:

- ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم، أولئك يدعون إلى النار، وا لله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ البقرة ٢٢١.

ونلاحظ أن الآية تنهى عن الزواج بالمشركين إلا أن يؤمنوا. ونتذكر أن التنزيل الحكيم فرق بين المشركين وبين أهل الكتاب في قوله تعالى ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة** ﴾ البينة ١. ونفهم أن النهي في الآية عن نكاح المشركين لايعني أبدا أهل الكتاب من يهود أو نصارى، بل يعني الوثنيين. فآية البينة فرقت بوضوح بين أهل الكتاب بالرسالة المحمدية، وبين من قاتل الرسول الأعظم وكذبه، وتحالف مع المشركين ضده. من هنا نرى أن المشركين شيء وأهل الكتاب شيء آخر (انظر "الذنب و السيئة" من هذا الكتاب).

في سياق النهي عن الزواج بالمشركين والمشركات، كل المشركين والمشركات، ورد في الآية ذكر العبد والأمة. ولايخطر لعاقل في رأينا، أن يفهم العبد والأمة في هذا السياق بمفهوم الرق والعبودية، فالشرك والإيمان معتقد لاعلاقة له البتة بالمركز الإجتماعي أو بالوضع الطبقي. لأن المشرك قد يكون أميراً وقد يكون راعيا للغنم بالأجرة، والمؤمن قد يكون نجاراً أو قائداً للجيوش. والعبد هنا مفرد عباد، والأمة هنا مفرد إماء، كما وردت في قوله تعالى :

- ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم ا لله من فضله، وا لله واسع عليم** ﴾ النور ٣٢.

لايسع القارىء العاقل في هذه الآية أبداً، أن يفهم العباد والإماء بمعنى الرق والعبودية. فالآية تخاطب المؤمنين (انظر خاتمة الآية ٣١) وتأمرهم بالزواج من الأرامل ومن الصالحين من عبادهم و إمائهم . و ليس ثمة أي قاسم مشترك يربط بين الأرملة

والرق، يسمح بعطف ثانيهما على أولهما، فالمقامات، بحسب التعبير الرياضي، ليست موحدة بينهما، بمعنى أن الأيمى الأرملة قد تكون عبدة رقيقة وقد لاتكون، والأمة قد تكون أرملة وقد لاتكون.

لكن النقاط تتوضع على حروفها، والإنسجام يشمل الآية، حين ننظر في القسم الأوسط منها، الذي يتحدث عن الفقر، وحين نفهم أن العباد والاماء في القسم الأول هم المأمورون والأتباع والموظفون والعمال. فالفقر هو القاسم المشترك.

وينتج لدينا أن الآية تأمر المؤمنين بالزواج من الأرامل الفقيرات اللواتي فقدن المعيل والسند، وبخاصة إن كان لديهن أولاد، وبالزواج من العاملين الصالحين لديهم، وتأمرهم بألا يمنعهم فقر هؤلاء من الزواج بهم. كما ينتج لدينا أننا بدلالة القسم الأوسط من الآية، لايسعنا بتاتاً اعتبار العباد والإماء رقيقاً، لأن الفقر والغنى أموال وملكيات، والعبيد الأرقاء مملوكون لايملكون أبداً، أي ليس هناك عبيد فقراء وعبيد أغنياء.

ونفهم أخيراً كيف فضل الله تعالى في الآية العلاقة الإنسانية على العلاقة المالية في الزواج. فإذا كان هناك رب عمل عنده عامل صالح، عليه ألا يمانع في زواجه من أخته أوابنته، أو كان عنده عاملة صالحة، عليه ألا يمانع في زواجها منه أو من ابنه. ومن هنا نفهم زواج السيدة خديجة بالرسول الأعظم، ومن هنا نرجح صحة قوله (ص): "إذا جاءكم من ترضون خلقه و دينه فزوجوه".

والغريب أننا كثيراً مانسمع السادة العلماء الأفاضل، يرددون هذا الحديث النبوي في مناسبات عقد القران، لكننا لم نسمع أحداً منهم أبداً يقرأ قوله تعالى في آية النور ٣٢، ربما لأنهم يعتبرونها جاءت لعصر الرق، ولاعلاقة لنا بها الآن.

هذا كله يقودنا إلى استنتاج هام، قد يكون له علاقة بما نبحثه الآن، هو مايسمى في كتب الفقه بلباس الحرة ولباس الأمة. فإذا كان المنطلق في الفهم واحد، أي إذا كان

المقصود بلباس الحرة هي التي لاتباع وتشترى، وبلباس الأمة هي العبدة الرقيقة، فهذا يعني أن لباس المرأة مفهوم اجتماعي ساد في عصر يضم أحرارا وعبيدا، وجاء للتمييز بين الحرة والأمة الرقيقة، وأنه لاعلاقة له البتة بالإسلام من قريب ولا من بعيد، ومع ذلك يصر علماؤنا الأفاضل على اعتباره حجابا شرعيا ولباسا إسلاميا مفروضا على المرأة اليوم، في مجتمعات لم يعد فيها رق ولم يعد فيها عبودية وإماء.

ونقف أخيرا عند مصطلح "تحرير رقبة" الذي ورد في ستة مواضع من التنزيل الحكيم هي:

- ﴿ .. **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ..** ﴾ النساء ٩٢.
- ﴿ .. **فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ..** ﴾ النساء ٩٢.
- ﴿ .. **وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ..** ﴾ النساء ٩٢.
- ﴿ .. **من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ..** ﴾ المائدة ٨٩.
- ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ..** ﴾ المجادلة ٣.
- ﴿ **وما أدراك ما العقبة * فك رقبة** ﴾ البلد ١٢، ١٣.

وأول مانلاحظه أن بعض المفسرين وكتب التراث، اعتبرت تحرير الرقبة في المواضع الستة بمعنى الإعتاق من الرق. لكننا نلاحظ أمراً هاماً في آية النساء ٩٢، هو وصف الرقبة المحررة بأنها مؤمنة، وهذا وصف لانجده في الآيات الثلاث الأخرى.

ونتذكر ونحن نتأمل أن الرقبة مفرد رقاب، وأن الرقاب وردت ثلاث مرات في التنزيل الحكيم بقوله تعالى :

- ﴿ .. **وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ..** ﴾ البقرة ١٧٧.
- ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل ا لله وابن السبيل ..** ﴾ التوبة ٦٠.

- ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب .. ﴾ محمد ٤.

ونبدأ بتحرير الرقبة المؤمنة، كما وردت في سورة النساء. ففي الآية نحن أمام حالة قتل وقعت خطأ. القتيل فيها مؤمن والقاتل فيها مؤمن. والمطلوب من هذا القاتل المؤمن تحرير رقبة مؤمنة. وهذا مستحيل !! لأنه إذا جازت عبودية الرق المؤمن لسيد غير مؤمن، فهي لاتجوز لسيد مؤمن، فإيمان العبد الرق عند مالكه المؤمن كاف لتحرير رقبته.

وننتقل إلى تحرير الرقبة كما ورد في المائدة والمجادلة والبلد، لنجد أن البلد ١٣، تنص على فك الرقبة وليس تحريرها، وننتبه إلى أن آيتي البقرة والتوبة لم تذكرا تحرير الرقاب أو فكها كبند من بنود الإنفاق والصدقات، الأمر الذي يجعلنا نميل إلى القول بأن المقصود في هذه الآيات كلها ليس عتق الرق حصراً، بل يمتد مجازاً ليشمل كل مايغل العنق ويستعبد الإنسان من عقود والتزامات مادية. أي أن الرق وعتقه أحد أبواب الرقاب وفكها، لكنه ليس كل شيء فيها كما يذهب البعض، وقد وصلنا في الصفحات السابقة إلى فهم عبادكم وإمائكم بأنهم العاملون والموظفون عندكم، وبناء عليه فإن من الوارد أن يعمل شخص عند شخص آخر مقابل دين أو دية، لكونه معسراً بالأساس، فهو كالمغلولة عنقه. والتحرير هنا صدقة وزكاة وقربان من الله تعالى.

٤ _ أين يعبد الله ؟

قلنا إن الله خلق الناس أحرارا (عبادا) يعصونه بملء إرادتهم، ويطيعونه بملء إرادتهم، وهذه هي كلمة الله العليا في الخلق .. الحرية. وهذه هي الكلمة التي سبقت من ربك، بأن يكون الناس أحرارا في اختيار قراراتهم وسلوكياتهم، وهي المرتكز الأساسي لمبدأ الثواب والعقاب، إذ لاحساب ولامساءلة إلا مع الحرية.

فعندما يكره شخص شخصاً آخر على إقامة الصلاة، فقد تعدى على حاكمية ا لله وعلى كلمته التي سبقت، ونصب نفسه قيما على الصلاة، وأكره الناس على أدائها، وحول الخلق من عباد لله، إلى عبيد له شخصيا.

وعندما يكره شخص شخصاً آخر على ترك الصلاة، فحكمه كالأول تماما، قد ألغى مبدأ أن تكون كلمة ا لله هي العليا، وقيد حريات الناس في الإختيار، وعطل بالتالي مبدأ الثواب والعقاب القائم على حرية اختيار القرار.

من هنا نفهم أن الثواب والفلاح يأتي من ا لله إلى الإنسان الذي قبل تعاليم رب العالمين وأوامره طائعاً مختاراً، رغم أنها تحد من حريته، والتزم بأدائها دون إكراه، وهذا هو ميثاق الإسلام، أي السير طوعاً على الصراط المستقيم الذي هو عبادة ا لله.

وقلنا إن ا لله سبحانه لايعبد في المساجد ولا في الكنائس ولا في البيع ولا في الأديرة، فهذه كلها بيوت وأماكن أذن ا لله أن تبنى ليذكر فيها اسمه، وليس ليعبد فيها. فعبادة ا لله هي اتباع الصراط المستقيم والوصايا خارج هذه البيوت وليس داخلها.

لقد جاء مفهوم عبادة ا لله باتباع الصراط المستقيم، في فاتحة الكتاب بشكل لالبس فيه، حين قال تعالى: ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾. ويثور السؤال في فكر السامع حين يسمع هذا القول: وكيف نعبده سبحانه؟ وكيف نستعين به؟ ويأتي الجواب مباشرة موضحاً: ﴿ **إهدنا الصراط المستقيم** ﴾. وتتوالى بعدها الآيات لتزيد الأمور وضوحاً في ذهن السامع، فالكتاب، أي التنزيل الحكيم، هو الهدى المشار إليه في الفاتحة كما تنص البقرة ٢. والمهتدون به هم المتقون المفلحون، الذين يؤمنون با لله ويوقنون بالآخرة ويؤمنون بما أنزل إلى محمد (ص) وإلى من سبقه ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ا لله (البقرة ٢، ٣، ٤، ٥). ولايحتاج المتأمل إلى وقوف طويل ليدرك أن هذا الهدى يجمع الإسلام وأركانه والإيمان وأركانه كما سبق تفصيلهما في بحث "الإسلام والإيمان".

ولايكاد يجاب على سؤال كيف نعبد الله، حتى يثور سؤال كيف نستعين به، وهذا شأن التنزيل الحكيم في مخاطبة ذوي العقول والألباب، وفي التوجه إلى الذين يعقلون والذين يتفكرون. ويأتي الجواب في قوله تعالى :

- ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ البقرة ٤٥.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين** ﴾ البقرة ١٥٣.

ونتذكر أن "المعين" و "الصبور" من أسماء الله الحسنى، ونلاحظ أن الله يدلنا كيف نعبده، وكيف نستعين به. ونفهم أن للاستعانة شقين هما الصبر والصلاة، يتعلقان بالإنسان شخصياً كفرد، أما العبادة فعلاقتها بالمجتمع الإنساني كله. كما نلاحظ كيف أن العبادة جاءت قبل الصلاة لأنها من أركان الإسلام، أما الصلاة فمن أركان الإيمان، أي أننا نؤمن بالله أولا كمسلمين ونعبده ﴿**إياك نعبد**﴾، ثم نستعين به كمؤمنين ثانيا ونقيم الصلاة ﴿**وإياك نستعين**﴾. وهكذا نرى أن كل أو معظم الناس حين يقعون في ضائقة أو مأزق فإنهم يلوذون إلى الله ويصبرون بعد أن يستنفذوا كل الإمكانيات المادية الإنسانية المتوفرة لديهم، أي علينا أن نساعد أنفسنا ونطلب من الله المساعدة.

ونقف عند قوله تعالى: ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ ونحن نسأل: من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ويأتي الجواب في قوله تعالى:

- ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا** ﴾ النساء ٦٩.

وهكذا نرى أن عبادة الله تتجلى في تعاليم الإسلام ووصاياه التي بدأت بنوح وختمت بمحمد. وفي الإلتزام الطوعي الإختياري بمثله العليا الإنسانية. ومن هنا نشأ مفهوم الإلتزام بالقانون طاعة ومعصية، ولايتعارض هذا مع هذا. فحرية العباد في اختيار الطاعة والمعصية، يقودهم يوم الحساب إلى الثواب والعقاب، وحرية المواطنين في طاعة

ومعصية القوانين يقودهم إلى محاكمة تبرئ الملتزم منهم وتوقع على المخالف العاصي العقاب الرادع.

فإذا ألقينا نظرة على تعاليم الإسلام هذه، نجد في مقدمتها التعليم رقم (١):

أن لاتشركوا به شيئا ←——— شهادة أن لاإله إلا الله ←——— التوحيد رأس الإسلام

وإذا تصفحنا أخبار الأنبياء والمرسلين جميعاً في التنزيل الحكيم، لانجد أحداً منهم جاء ليقول للناس: إن الله موجود، بل جاءوا جميعاً ليقولوا: ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ "التوحيد". ذلك لأن الله سبحانه خلق الإنسان والله موجود في فطرته، ولايحتاج لمن يقول له إنه موجود.

من هنا جاءت عقوبة الإجرام والمجرمين (الإلحاد وإنكار وجود الله) صارمة جداً في التنزيل الحكيم، لأنهم بإجرامهم وإنكارهم خالفوا الفطرة التي فطروا عليها. ومن هنا يمكن القول إن أهل الأرض قاطبة يولدون مسلمين، وإن وجود الله في الذهن الإنساني لايحتاج إلى رسل وأنبياء، إذ هو فطرة جبل الله خلقه عليها، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ..** ﴾ الروم ٣٠.

فإذا انتقلنا إلى التعليم رقم (٢) من تعاليم الإسلام[١]، نراه في بر الوالدين. فكيف يمكن أن يكون ثمة بر بالوالدين إن لم تكن هناك أسرة، وكيف تكون الأسرة دون زواج، وكيف يكون الزواج دون أسس وأركان مادية يقوم بها، من بيت وأثاث وثياب .. الخ.

فإذا انتقلنا إلى البند الثالث من هذه التعاليم الإسلامية، نجده ينهى عن قتل الأولاد بداعي الفقر. فكيف نطبق هذا البند إذا لم يكن هناك مجتمع، ولم تكن هناك أزمات اقتصادية.

---

(١) - نحن نتحدث عن الإسلام وتعاليمه المكتملة بالرسالة المحمدية، وليس عن الإسلام من زاوية التراكم التاريخي على يد الأنبياء والرسل.

وإذا أخذنا البند الرابع، وهو النهي عن الفواحش ماظهر منها ومابطن، فكيف نطبقه إذا لم يكن هناك جنس ورغبات جنسية، والرجل لايرى المرأة إطلاقاً، بل لايرى إلا محارمه. وكيف يمكن تطبيقه على اللواط والسحاق إذا لم يكن هناك جوع جنسي في مجتمع أغلق أبوابه على رجال لوحدهم ونساء لوحدهن خلف أسواره العالية.

وكيف نطبق البند الخامس في النهي عن قتل النفس، إذا لم يكن هناك مجتمع فيه صراعات وثارات وضغائن وأحقاد شخصية (مجتمع حي).

وكيف نأتمر بعدم الإقتراب من مال اليتيم، إذا لم يكن هناك حب للمال في داخلنا، و لم يكن هناك مجتمع يسود فيه مفهوم إكرام اليتيم.

وكيف نوفي الكيل والميزان ونقيمهما بالقسط، إذا لم يوجد مجتمع فيه تبادل تجاري وصناعة وزراعة، تتطلب كلها مقاييس ومواصفات.

وكيف يمكن تطبيق بند ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ إلا في مجتمع إنساني حي فيه معاملات وأناس يختصمون.

وكيف نلتزم بالوفاء بعهد الله، إذا لم يكن هناك دولة ومجتمع ومهن وزواج، ومواثيق تقوم عليها الأحزاب والجمعيات.

وكيف نطبق مبدأ ﴿ **ولاتجسسوا** ﴾ إلا في مجتمع تتوفر فيه إمكانيات التجسس، وقابلية التجسس.

وكيف نلتزم بدخول البيوت من أبوابها، إلا في وجود مدن وقرى وشوارع وبيوت لها أبواب.

من هذه الأمثلة، وغيرها كثير، يتبين لنا أن لتعاليم الإسلام، تطبيقا والتزاما، حقلا واحدا تنصب فيه هو الحياة المعاشة بكل أبعادها. والإنسان الذي يحيا أبعاد هذه الحياة، هو الإنسان الذي يحتاج أن يكون مسلما. لأنها هي حقل توظيف تعاليم

الإسلام، وفيها ومن خلالها يعبد ا لله فيطاع أو يعصى بملء الإرادة والإختيار. أي أننا لانعبد ا لله إلا إذا عشنا الحياة الدنيا بكل أبعادها، إذ لايمكن أن يثاب الإنسان في الآخرة أو يعاقب، إلا إذا عاش الحياة الدنيا، واختار فيها بملء إرادته أن يعمل صالحاً أو أن يعمل طالحاً. فالآخرة كما قلنا ليس فيها عبادة وليس فيها تكاليف، بل فيها حساب وثواب أو عقاب.

من هنا نقول إن الزهد وهجر الدنيا تحت أي اسم وعنوان رفض صريح لعبادة ا لله كما نفهمها. فإذا قال قائل إن الحياة الدنيا جسر ومعبر قصير إلى الآخرة، قلنا وهل يحدد مصير الإنسان في تلك الآخرة إلا عبادته لله في هذه الدنيا، هذه العبادة التي لاتكون إلا بأن يعيش الحياة الدنيا بكل أبعادها.

ومن هنا نقول إن على المسلم العابد لله فعلاً، أن يطلب الدنيا كاملة ليعبد ا لله من خلالها، ولكي يطلب الدنيا عليه أن يفهم ويعي قوانينها، (قوانين الوجود الكوني والإحتماعي)، فعبادة ا لله والإلتزام بمثل الإسلام العليا لاتتحقق إلا بهذا الفهم والوعي.

لقد عرف سبحانه الحياة الدنيا في تنزيله الحكيم تعريف وصف جامع مانع، لاظل فيه للذم أو القدح كما يذهب البعض، ليعلمنا ماهي الحقول التي نوظف فيها تعاليمه لنعبده من خلالها، ونسير طائعين مختارين على الصراط المستقيم الذي رسمته لنا هذه التعاليم، فقال سبحانه:

- **﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من ا لله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾** الحديد ٢٠.

نبدأ بفعل لعب. فاللام والعين والباء كلمتان منهما يتفرع كلمات. فاللعب معروف، والملعب مكان اللعب، واللعبة اللون من اللعب، واللعبة اسم المرة. والثانية اللعاب وهو مايسيل من الفم (ابن فارس ج٥).

وننتقل إلى فعل لهو. فاللام والهاء والحرف المعتل أصلان صحيحان، أحدهما يعني الشغل بشيء عن شيء، والآخر نبذ شيء من اليد. ومن الأول اللهـو، وهـو كـل شـيء شغلك عن شيء وألهاك، ولهوت من اللهو، ولهيت عن الشيء إذا تركته لغيره. ويقولون إذا استأثر ا لله بشيء فاله عنه، أي اتركه ولاتشتغل به. وفي هذا قال تعـالى **﴿لـو أردنـا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾** الأنبياء ١٧.

أما الأصل الآخر فهو اللهوة، وهو مايطرحه الطاحن في ثقب الرحى بيده والجمع لهى. وبذلك سمي العطاء لهوة (ابن فارس ج ٥).

وأما الزينة فهي كل مـايتزين بـه النـاس مـن أشـياء وأمـاكن، والزينـة تدخـل في الشهوات.

فخر : الفاء والخاء والراء أصل صحيح يدل على عظم وقدم. يقولون في العبـارة عن الفخر هو عد القديم. قال أبو يزيد فخـرت الرجـل علـى صاحبـه أفخـره فخـرا أي فضلته عليه. والفخير الذي يفـاخرك بـوزن الحطيـم. والفخـير الكثـير الفخـر. والفـاخر الشيء الجيد. والتفخر التعظم. والناقة الفخور العظيمة الضرع القليلة الدر. (ابـن فـارس ج ٤ ص ٤٨١). ونأتي الآن على شرح آية الحديد ٢٠.

١ ـ يقول تعالى إن الحياة الدنيا لعب، أي أنها لعبة لكل إنسان دور فيها، كبيرا كـان هذا الدور أم صغيراً. وأن هذه الحياة تعاش مرة واحدة، فهي كاللعبة التي لاتلعب إلا مرة واحدة. وعلى الإنسان أن يحرص على أن يلعبها ويؤدي دوره فيها.

٢ ـ ويقول تعالى إن الحياة الدنيا لهو. واللهو كما نفهمه من أصل معانيه واشـتقاقاته، هو المعبر عن حركية الحياة الدنيا، وهو البند الأول لكـي يلعـب الإنسـان دوره، فينتقل (يلهو) من وجه من وجوه الحياة إلى وجه آخر. فالإستيقاظ يلهي الإنسان عن النوم، والأكل يلهيه عن كرة القدم، والخروج من البيت يلهيـه عـن المكـوث

فيه، والسفر يلهيه عن اجترار الأحزان، والحزن يلهي عن الإستمتاع بروائح الزهور، وكلما زادت بنود اللهو عند الإنسان زادت حركية الحياة عنده والعكس صحيح، فكلما كان اللهو عنده أكثر، كانت حياته ديناميكية أكثر. ولهذا نسمي مدينة الملاهي بهذا الاسم، لما فيها من ألعاب تلهي كل منها عن الأخرى، وتلهي بمجموعها عن الأرق والإنقباض والتقوقع. وكذلك يقال في الموسيقى والغناء. أي أن اللهو هو بنود الحياة ذاتها بعجرها وبجرها، وكلما زادت هذه البنود كانت الحياة مليئة أكثر. من هنا فإن أقل الناس لهواً في الحياة هو السجين الذي يحيا داخل جدران أربعة. فبنود الحياة تقلصت عنده إلى حدها الأدنى، والذي لايلهو هو الذي لايفعل شيئاً، وهو الذي لايحيا بنود الحياة، وهذا الوضع أسوأ من وضع البهائم.

ونلاحظ أن العبادة، عبادة الله طاعة ومعصية، واضحة في بنود اللهو وبنود الحياة وفي تنوع هذه البنود. فإذا انتقل الإنسان من حالة الخمول والكسل ليتلهى عنها بالعمل، فهو يعبد الله طاعة لأمره تعالى ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ..** ﴾ التوبة ١٠٥. وإذا أكل وشرب وتحرى الحلال الطيب في مأكله ومشربه، فهو يعبد الله طاعة لأمره في قوله تعالى ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم ..** ﴾ طه ٨١. وإذا أنفق فأسرف، فهو يعبد الله معصية لأوامره، وكذلك اذا غش بالمواصفات ولم يقسط في الكيل والميزان، فهو يعبد الله عاصيا لأوامره. ولهذا نقول كلما زادت بنود اللهو (حركية الحياة) كبرت إمكانية عبادة الله في الطاعة والمعصية، وأصبحت إمكانية إتباع الصراط المستقيم واقعية موضوعية.

حين يقول تعالى ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** ﴾ الأنبياء ١٧. فهو يعني أن خلقه لنا ليس لهوا له، يشغله عن أمور أخرى، إذ اللهو بمعنى الإنتقال والإنشغال بشيء عن شيء لاينطبق عليه، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ثمة دور ولهو سيء يمكن أن يتفرغ له الإنسان، ورد في قوله تعالى:

- ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل ا لله بغير علم ويتخذها هزواً، أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ لقمان ٦.

هنا يتوعد سبحانه بالعذاب المهين، الذين يتفرغون ويجعلون دورهم في الحياة الدنيا تفرغا ليضلوا الناس عن سبيل ا لله، ويهزأون من سبيل ا لله وصراطه، كأن يفرغ الإنسان نفسه وحياته لنشر الفاحشة والدعوة إليها، ولنشر الغش والجريمة قائلاً بسخرية: وماذا أفاد الناس من استقامتهم وصدقهم؟. أما مايذهب إليه البعض في فهم (لهو الحديث) أنه الغناء والموسيقى والرقص وأنواع الفنون الأخرى، فهو ليس عندنا بشيء.

وبما أن عبادة ا لله لاتكون إلا خارج المساجد والكنائس والبيع والصلوات، فنحن نفهم أن المساجد والصلاة لذكر ا لله، وهي لهذا لاتدخل ضمن بنود اللهو، ولهذا فصلها تعالى عن بنود اللهو الأخرى في الحياة بقوله تعالى:

- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر ا لله وذروا البيع ..** ﴾ الجمعة ٩.
- ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً، قل ما عند ا لله خير من اللهو ومن التجارة، وا لله خير الرازقين** ﴾ الجمعة ١١.

٣ - ويقول تعالى إن الحياة الدنيا زينة. ولقد شرحت في (الكتاب والقرآن) مفهوم الزينة في بند الشهوات. فقد وردت الزينة في قوله تعالى:

- ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة و الخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، وا لله عنده حسن المآب** ﴾ آل عمران ١٤.
- ﴿ **.. ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن ..** ﴾ النور ٣١.

وقلنا إن النساء في آية آل عمران ١٤ تعني ماتأخر واستجد من الأشياء وليس جمع امرأة، فالمرأة ليست شيئاً وليست من متاع الدنيا. وأن البنين هي الأبنية وليس الأبناء، فالأبناء ليسوا أشياء ومتاع، وقلنا إن الزينة في آية النور ٣١ هي الزينة المكانية الظاهرة والمخفية. وإن النساء في الآية (أو نسائهن) هم النسل المستجد المتأخر لمن ذكر في الآية كالأحفاد وأبناء الأحفاد.

وهنا نرى أن بنود الزينة هي آلية اللهو، وهي المواضيع المادية المباشرة التي يقع عليها اللهو. فالنوم يحتاج إلى منزل وغرف نوم وفرش وأغطية، واللهو عن النوم بالأكل يحتاج إلى أنعام (لحم، حليب، بيض ..) وإلى خبز يحتاج بدوره إلى زراعة وأدوات زراعية، وهكذا. أي أن الزينة هي الممارسة المادية لبنود اللهو التي يعبد الله طاعة ومعصية من خلالها. وكلما كثرت بنود الزينة تاق الإنسان أكثر إلى مزيد، وزادت بنود اللهو، وبالتالي زادت إمكانية عبادة الله وزادت حركية الحياة.

٤ - ويقول تعالى إن الحياة الدنيا تفاخر بين الناس. وهذا مانراه موضوعياً إذا نظرنا إلى كل أهل الأرض، من الجانب الإيجابي الشيء الجيد هو الفاخر، فنقول لباس فاخر ومنزل فاخر. وفي الصناعة نقول إن المرسيدس فخر صناعة السيارات الألمانية، والإلكترونيات فخر الصناعة اليابانية. أما نحن العرب فليس لدينا سوى التخلف والإستبداد بجميع أنواعه وحجاب المرأة وذكورية المجتمع نفخر بها على الناس كافة. لولا أنه في التخلف يعبد الشيطان وليس الله، لأن مواد اللهو المفيد عندنا شبه معدومة، ومن هنا نقول إننا أقل عباد الله عبادة لله بعد أن ضيقنا على أنفسنا المجالات الحيوية لهذه العبادة.

إن المعنى الإيجابي للتفاخر الذي رسمه تعالى بنداً من بنود تعريفه للحياة الدنيا، هو التفاخر بالإنتاج وبالإستهلاك فهو أساسيات الحياة الدنيا ومن متطلباتها، وعلينا أن

نسعى إليه ونطمح دائماً، طموحنا إلى حياة أفخر وأفضل، وهو من نعم الله على عباده مكمل لنعمة الحياة ونعمة الحرية ونعمة العقل.

من التفاخر بالزينة كبنود للهو، تظهر بنود المثل العليا (الصراط المستقيم) وفيها المجال الموضوعي لعبادة الله طاعة (باتباع الصراط المستقيم) ومعصية (بتركه وانتهاج سبيل آخر غيره).

٥ - ويقول تعالى إن الحياة الدنيا تكاثر بالأموال والأولاد. فإذا نظرنا إلى أهل الأرض، نجد أن التناسل والإنجاب وجمع الثروة هو القاسم المشترك بينهم جميعاً. فلا يوجد شعب من الشعوب ولا أمة من الأمم كانت أو كائنة أو ستكون إلا وجمع المال والإنجاب أساس الأسس عند أفرادها وجماعاتها. فلولا المال لما كان هناك أمانة وسرقة وغش، ولما كان هناك ظلم في الأحكام وشهادة زور، ولولا الأولاد لما كانت هناك أسرة وزواج وعقود ومهور ونفقة وطلاق وميراث، ولما كان هناك حقول يتم صرف المال فيها . بمعنى أننا لايمكن أن نتصور إنساناً في كهف بدائي، ومعه مليون قطعة ذهبية، ونقول هذه هي الحياة الدنيا.

لقد ذهب الكثيرون إلى فهم وصفه تعالى للحياة الدنيا في آية الحديد ٢٠، بأنه سبحانه يذمها ويحط من قدرها، لكننا لانجد في الآية أكثر من وصف دقيق لها لامكان فيه لذم أو قدح. ولو أننا جردنا الحياة الدنيا مما يزعم أنه محط ذم، فماذا يبقى منها؟ تصوروا معي حياة دنيا ليس فيها دور للإنسان (لعب) وليس فيها شيء يشغله عن شيء آخر (لهو) وليس فيها بيوت وأنعام وذهب وفضة (زينة) وليس فيها تكاثر بالأموال والأولاد .. فماذا يبقى من مجالات نعبد الله فيها ؟ وهل يطاع الله في لاشيء أو يعصى في لاشيء؟ وهل تكون حرية الإختيار في لاشيء، ويأتي الثواب والعقاب يوم الحساب على لاشيء ؟.

باختصار، حين نقرر أن هذه الصفات التي وصفها تعالى للحياة الدنيا هي محل ذم، وندعو إلى تركها والزهد فيها، فنحن نقرر ألا نعبد ا لله لاطاعة ولا معصية بعد أن حذفنا كل المجالات التي يطاع فيها ويعصى (يعبد).

لهذا، فالإنسان الذي يؤمن بأن تكون كلمة ا لله هي العليا، هو الذي يطلب الدنيا ويعيشها بكل أبعادها، لأنها لاتتاح له إلا مرة واحدة، وهو الذي يحيا الحياة عابدا ا لله طاعة ومعصية، يريد أن يختبر مصداقية المثل الإسلامية العليا (الصراط المستقيم). أما إذا كان الأمر غير ذلك، فلا معنى للحساب والجنة والنار، ومعناه أن ا لله خلقنا عبثا، تعالى ا لله عما يصفون.

من هنا فإن أول بند من بنود هذه الحياة، التي نحياها مرة واحدة، هو أن نحرص عليها. وأن طموح الإنسان نحو لهو وزينة وتفاخر وتكاثر أفضل هو طموح مشروع وهبه له ا لله.

ينتقل تعالى في الآية بعد ذلك كله، إلى تشبيه الحياة الدنيا ولهوها وزينتها بالغيث يخرج نباتا يهيج ثم يصفر ثم يصبح حطاما. ونفهم أنه تعالى يشير إلى قانون ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ كنهاية لهذه اللعبة واللهو والزينة. وأنه تعالى يذكرنا بأن البيت الفاخر والثوب الفاخر يبلى مع الزمن، وأن على الإنسان ألا ينسى وهو يلعب لعبة الحياة هذه حراً في طاعته ومعصيته، أن السعادة نسبية، وأن كل مايقوم به الإنسان يبلى ويمكن تجاوزه، ماعدا المثل العليا المتمثلة بالصراط المستقيم فهي ثابتة باقية. إذ هي التي يتعبد بها الإنسان سواء كان في خيمة أو في قصر، على جمل أو في صاروخ.

ولولا أن كل شيء يبلى ويمكن تجاوزه، أي لولا قانون كل شيء هالك إلا وجهه، لمات الأمل والطموح، واندثرت الجامعات ومعاهد البحث العلمي، ولتوقفت الصناعة والتجارة والزراعة والخدمات، لأن الهلاك فيه ديناميكية الحياة نفسها. ونلاحظ

أنه تعالى يشبه الحياة الدنيا بالغيث، والغيث لايرد في التنزيل الحكيم إلا في مجال الرحمة، أما المطر ففي مجال السخط والعذاب. كما نلاحظ كيف رسم في صورة النبات قانون التطور والهلاك الذي هو أساس الطموح في هذه الحياة الدنيا، وعصبها ومحركها الأساسي.

ثم تأتي نهاية الآية بقوله تعالى ﴿ .. **وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من ا لله ورضوان ..** ﴾ ، لترتبط لنا بوضوح هذه الصورة والوصف للحياة الدنيا بحرية الإنسان فيها بأن يعصى فله في الآخرة العذاب الشديد، وبأن يطيع فيفوز بمغفرة ا لله ورضوانه. فإذا عشنا الحياة الدنيا بكل مافيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وعبدنا ا لله مختارين الطاعة والمعصية بملء إرادتنا، وصلنا إلى الآخرة حيث الثواب والعقاب بعد الحساب.

ويختم تعالى الآية بقوله ﴿ .. **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ . وذلك ليؤكد على أن الحياة الدنيا بكل ماسبق من وصفها لايمكن أن تصل إلى الكمال، بل هي في تطور من حال إلى حال، وانتقال من طموح إلى طموح تال. فإذا بلغ التطور والطموح حد الكمال مات الأمل كما قلنا، وتوقفت عبادة ا لله طاعة ومعصية. وهذا سر الشهوة الأول عند الإنسان للمستجدات من كل شيء (النساء). فالغرور في الآية هو عدم النضوج والإنتهاء إلى الكمال، ومادامت كذلك فستظل تسير من حال إلى حال أحسن. فليس في الحياة الدنيا نهاية مطاف، بل جيل يتجاوزه جيل، وصناعة تتجاوزها صناعة، وثياب جميلة تحل محلها ثياب أجمل .. وهنا تكمن لذة الحياة والعمل والطموح، وهنا يعبد ا لله سبحانه طاعة ومعصية، وهكذا نفهم قوله تعالى ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ الحجر ٩٩، حيث لاتنتهي العبادة إلا بالموت، هنا لابد من التنويه بأنه إذا عبد ا لله في الحياة الدنيا (البنود المذكورة أعلاه) طاعة دون معصية فهذا يعني أن الإنسان يذكر ا لله (لم ينسه البتة) في ذاكرته وفي عقله، لهذا ختم الوصايا

الخمس الأولى في سورة الأنعام بقوله ﴿ .. **لعلكم تعقلون** ﴾ والأربع التي تليها بقوله ﴿ .. **لعلكم تذكرون** ﴾ والوصية العاشرة ذكر فيها ﴿ .. **لعلكم تتقون** ﴾ تقوى التوحيد والعمل الصالح، وهكذا نفهم قوله تعالى من أن ذكر ا لله أكبر من الصلاة ﴿..**وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر ا لله أكبر، وا لله يعلم ما تصنعون** ﴾ العنكبوت ٤٥. فهذه الآية جمعت بين ا لله في الوجدان (الصلاة) وا لله في الذاكرة والعقل (العبادة)، ولذا أمرنا ا لله تعالى بعد صلاة الجمعة أن نذكره كثيراً بقوله ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل ا لله واذكروا ا لله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ الجمعة ١٠.

وكذلك يمكن الآن أن نربط بين قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، وا لله يحب المحسنين** ﴾ المائدة ٩٣. وبين قوله تعالى ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من ا لله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ الحديد ٢٠. أي أن المجال الذي يتحقق فيه "طعموا" هو الحياة الدنيا بكل بنودها المتتالية التي شرحت أعلاه، لعب ولهو وزينة وتفاخر (منافسة) وتكاثر في الأموال والأولاد.

الفصل الثاني:الشهادة و الشهيد

١_ تمهيد

٢_ الشهيد و الشهادة الحضورية

٣_ الشاهد و الشهادة المعرفية

٤_ جدل الشاهد و الشهيد

جدلية الغيب و الشهادة

جدلية الشهيد الشاهد

جدلية الشاهد الشهيد

جدلية الشهيد الشهيد

جدلية الشاهد الشاهد

٥_ الشاهد و الشهيد عند المتصوفة و الفقهاء

١ _ تمهيد (جاء/أتى/نظر/أبصر/رأى/شهد)

لقد استوقفنا ورود فعل جاء، مع مشتقاته، ٢٧٨ مرة، واستوقفنا ورود فعل أتى، مع مشتقاته، ٥٤٩ مرة في التنزيل الحكيم. أي في أكثر من ١٣٪ من آياته.

ورأينا أن فهمهما يعني فهم ٨٢٧ آية من آيات التنزيل الحكيم، وسألنا أنفسنا: لماذا يستعمل تعالى فعل جاء في آية كقوله ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلين * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون** ﴾ الحجر ٦١_٦٣، ثم يستعمل فعل أتى في آية أخرى كقوله ﴿ **هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا** ﴾ الانسان ١.

ثم ذهبنا إلى أكثر من ذلك، فسألنا أنفسنا: لماذا يستعمل سبحانه فعل جاء وأتى في آية واحدة كقوله ﴿ **يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا** ﴾ مريم ٤٣. أو في آيتين متتاليتين كقوله تعالى ﴿ **قال أو لو جئتك بشيء مبين * قال فأت به إن كنت من الصادقين** ﴾ الشعراء ٣٠، ٣١.

ولما لم نجد فيما بين أيدينا من معاجم، قديمها وحديثها، مايهدينا إلى بغيتنا، ولما كنا نرى أن القول بترادف الفعلين يصرفنا عن التفريق الدقيق بينهما في المعنى، ويبعدنا عن الفهم الدقيق للتنزيل قرآناً وأحكاماً، فقد استعنا با لله، ورتلنا آيات التنزيل التي ورد فيها الفعل جاء، أو أحد مشتقاته، وآيات التنزيل التي ورد فيها الفعل أتى، أو أحد مشتقاته، فاتضح أمامنا ما يلي:

١ - يعبر الفعلان كلاهما، عن حالة بين متكلم ومخاطب. يكون ا لله سبحانه هو المتكلم أحياناً، والمخاطب غيره، كقوله تعالى ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ الحجر ٨٧. والمخاطب هنا هو محمد (ص)، وقوله تعالى ﴿**أتى**

أمر ا لله **فلا تستعجلوه ..** ﴾ النحل ١. والمخاطب هنا هو الناس. أو يكون المتكلم طرفا آخر غير ا لله، والمخاطب غيره أيضا. كقوله تعالى ﴿ **فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ النمل ٢٢. والمتكلم هنا هو الهدهد، أما المخاطب فسليمان (ع)، أو يكون المتكلم طرفا غير ا لله والمخاطب هو سبحانه، كقوله تعالى ﴿ **..فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق** ﴾ البقرة ٢٠٠.

٢ - لكل من الفعلين دائرة يستعمل الفعل ضمنها، وتتحدد هذه الدائرة، أولا، بتعيين الطرف المتكلم والطرف المخاطب. وتتحدد ثانيا، بكون المتكلم والمخاطب من دائرة واحدة، أو من دائرتين مختلفتين.

وسواء أكان المتكلم هو ا لله والمخاطب غيره، أم كان المتكلم غير ا لله والمخاطب أيضا غيره، أم كان المتكلم غير ا لله والمخاطب هو ا لله سبحانه، فالعبرة بالدائرة التي تأتي أو تجيء منها المعلومات. وانظر إلى قوله تعالى ﴿ **إذا جاء نصر ا لله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين ا لله أفواجا** ﴾ النصر ١،٢. ترى أن المتكلم هو ا لله سبحانه، وأن المخاطب هو رسوله الكريم، وأن الذي جاء هو النصر. لكن النصر أمر من خارج دائرة المخاطب، بل هو من دائرة المتكلم، بدلالة قوله تعالى ﴿ **..وما النصر إلا من عند ا لله العزيز الحكيم** ﴾ آل عمران ١٢٦.

وننظر إلى قوله تعالى ﴿ **..فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ النمل ٢٢. فنرى أن المتكلم هو الهدهد، والمخاطب سليمان (ع)، والنبأ اليقين أمر خارج دائرة معلومات سليمان، ولهذا قال الهدهد جئتك.

أما إذا نظرنا في قوله تعالى ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ الحجر ٨٧، نجد أن المتكلم هو ا لله، والمخاطب هو الرسول، والسبع المثاني أمر من دائرة معارف ا لله، ولهذا قال تعالى آتيناك، نسبة إلى دائرة معارفه هو كمتكلم. أما حين

يتكلم الله نسبة إلى دائرة معارف المخاطب، فنجده يستعمل فعل جاء كما في قوله تعالى ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ يونس ٧٦. والمتكلم هنا هو الله، والمخاطب هو الرسول، والحق وصل إلى الناس من خارج دائرة معارفهم، ولهذا قال تعالى جاءهم.

ونعل المثال التالي يوضح المقصود: فإذا كان المتكلم والمخاطب ضمن دائرة واحدة هي البيت، يقول المتكلم للمخاطب: إئتنا بخبز، وهو يتصور أن الخبز موجود في البيت، فإن أجابه المخاطب: لاخبز لدينا، قال له: فجئنا به إذن من السوق.

من هنا ننتهي إلى القول بأن الدائرة التي يحددها فعل جاء، وفعل أتى، دائرة غير ثابتة، يتم تعيينها وتحديدها بمعرفة:

أ ـ من هو المتكلم، وماهي دائرة معلوماته وامكانياته.

ب ـ من هو المخاطب، وماهي دائرة معلوماته وامكانياته.

جـ ـ موضوع الخطاب، ونسبته لدائرة المتكلم أو لدائرة المخاطب.

١ ـ يقول تعالى ﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق وإنا لصادقون**﴾ الحجر ٦١ ـ ٦٤. لقد جاء المرسلون إلى لوط من خارج دائرته ودائرة آله، ولهذا استنكرهم، فقالوا لقد جئناك من خارج دائرتك ودوائرهم بأمر الله فيهم. وأتيناك من دائرتنا بعذاب الله، بعد أن كلفنا الله به بأمره الحق. وكان في قولهم بالآية الأخيرة تعقيب مماثل لجواب قوم لوط في قوله تعالى ﴿ **..فما كان جواب قومه إلا أن قالوا إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ العنكبوت ٢٩.

إئتنا ← بعذاب الله ← إن كنت من الصادقين

وآتيناك ← بالحق ← وإنا لصادقون

ولايفوتنا أن نلاحظ في قول قوم لوط "إئتنا بعذاب الله" أنهم يطلبون منه الاتيان بأمر يعرفونه في دائرتهم ليصدقوه.

٢ - ويقول تعالى ﴿ **واذكر في الكتاب ابراهيم، إنه كان صديقاً نبيا * إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يأبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا** ﴾ مريم ٤١، ٤٢، ٤٣. ونفهم أن ابراهيم يوحى إليه كصديق وكنبي، وأن الوحي جاءه بمعلومات من خارج دائرته، ونفهم أن المتكلم هو ابراهيم وأن المخاطب هو أبوه، كما نفهم أن ابراهيم وأباه من دائرة واحدة، وأن الوحي جاء من دائرة أخرى هي دائرة الله، وهذا سبب قول ابراهيم (قد جاءني من العلم). ونفهم أخيرا أنه لو كان أبو ابراهيم صديقاً ونبياً كابنه، أي يصدق بوجود إله واحد معبود، لأكمل ابراهيم كلامه قائلاً (مالم يجئك). لكن أبا ابراهيم هنا يحصر نفسه في دائرة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني، ولهذا قال ابراهيم (مالم يأتك) مشيراً إلى أن الذي جاءه، إنما جاء من خارج دائرة ابراهيم وأبيه من جهة، ومن خارج دائرة ايمان أبي ابراهيم وتصديقه من جهة أخرى.

٣ - ويقول تعالى:

- ﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين** ﴾ الشعراء ١٠.
- ﴿ **قوم فرعون، ألا يتقون** ﴾ الشعراء ١١.
- ﴿ **فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين** ﴾ الشعراء ١٦.
- ﴿ **قال أولو جئتك بشيء مبين** ﴾ الشعراء ٣٠.
- ﴿ **قال فأت به إن كنت من الصادقين** ﴾ الشعراء ٣١.

ونفهم من الآية الأولى أن القوم الظالمين (قوم فرعون كما تحددهم الآية الثانية) معروفون عند موسى ومن دائرته، ولهذا قال تعالى (إئت). ولما سأل موسى ربه أن يشد أزره بأخيه هارون وأجابه ربه لما سأل، نفهم مرة أخرى أن فرعون معروف عند موسى

وهارون ومن دائرتهما، ولهذا قال تعالى (فأتيا). أما عندما ذهب موسى إلى فرعون حاملا معه آيتين هما العصا واليد، وقال له (أولو جئتك بشيء مبين) فذلك لأن الآيات جاءت إلى موسى من دائرة الله، أي من خارج دائرة موسى وفرعون معا. إلا أن فرعون الذي لايؤمن أساساً بوجود الله، تماماً كأبي ابراهيم، ظن أن هذا الشيء المبين من ضمن دائرته ومعارفه، ومن ضمن دائرة موسى ومعارفه، فقال (فأت به إن كنت من الصادقين).

٤ ـ ونتظر في آياته تعالى:

- ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ الأعراف ٥.
- ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ يونس ٧٦.
- ﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات ..** ﴾ يونس ٧٤.
- ﴿ **.. ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ..** ﴾ يونس ٩٣.
- ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ..** ﴾ الكهف ٥٥.
- ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ماأوتي موسى ..** ﴾ القصص ٤٨.
- ﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى ..** ﴾ القصص ٣٦.
- ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات ..** ﴾ الروم ٤٧.
- ﴿ **.. ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ النجم ٢٣.
- ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر** ﴾ القمر ٤.

ويتضح لنا من هذه الآيات، بلا لبس ولا غموض، أن المتكلم هو الله، وأن المعني هم الناس، وأن الكلام يدور من زاوية نظر الناس ودائرة معارفهم، ولو كان يدور من زاوية المتكلم ودائرة معارفه لقال آتينا، كما في الآيات التالية:

. ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ..** ﴾ البقرة ٨٧.

﴿ **.. وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ..** ﴾ البقرة ٨٧.

﴿ **.. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً ..** ﴾ النساء ٥٤.

- ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ..** ﴾ الاسراء ٥٩.
- ﴿ **ولقد آتينا داوود وسليمان علما ..** ﴾ النمل ١٥.

فالحق والهدى والملك والرسالات السماوية تجيء إلى الناس من خارج دائرتهم، إذا انطلقنا من زاوية الناس في تصوير الأمر، والحق والهدى والملك والرسالات السماوية يؤتيها الله الناس من ضمن دائرته، إذا انطلقنا من زاوية الله المتكلم في تصوير الأمر.

وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان	⟵	ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى
ولقد آتيناك سبعاً من المثاني	⟵	إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز
بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون	⟵	وقل جاء الحق وزهق الباطل
وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء	⟵	فإذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة
أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا	⟵	وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً
قال إني عبد الله آتاني الكتاب	⟵	جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير

٥ - وننظر في قوله تعالى:

- ﴿ **.. فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم** ﴾ الأعراف ١١٦.
- ﴿ **وجاؤوا أباهم عشاء يبكون** ﴾ يوسف ١٦.
- ﴿ **وجاؤوا على قميصه بدم كذب ..** ﴾ يوسف ١٨.
- ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم ..** ﴾ النور ١١.
- ﴿ **لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ النور ١٣.

فنجد أن السحرة سحروا أعين الناس واسترهبوهم، باستعمالهم معارف من خارج دائرة الناس، ولو كانت من دائرتهم ومعروفة عندهم، لما فعلت فعلها السحري فيهم، فالسحرة من وجهة نظر الناس (جاؤوا بسحر عظيم).

ونجد أن أبناء يعقوب كانوا خارج دائرة الحياة اليومية ليعقوب ويوسف، بدليل قولهم لأبيهم (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب)، مما يعني أن يوسف ليس ضمن دائرة حياتهم اليومية، ولهذا قال تعالى (جاؤوا أباهم عشاء يبكون).

ونجد أن الدم على القميص ليس من دائرة دم يوسف، أي أنه (دم كذب) ولهذا قال تعالى (وجاؤوا على قميصه).

أما قوله تعالى (إن الذين جاؤوا بالإفك) فيعني أن أصحاب الافك لم يكونوا من حاضري الحادثة ومن شهودها، وأن الحادثة وقعت خارج دائرة معارفهم، ولهذا فهو تعالى يطالبهم بأن (يجيئوا) على إفكهم بأربعة شهداء، ولما لم يستطيعوا أن يأتوا بشهداء للحادثة من دائرة معارفهم، فقد حق عليهم الوصف بالكذب. ونفهم أن المطالبة هنا هي مطالبة بشهداء رأوا الحادثة حقا، لاتخمينا واتهاماً.

٦ - ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **قالوا تا لله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وماكنا سارقين** ﴾ يوسف ٧٣.
- ﴿ **..قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة..**﴾ يوسف ٨٨.

وواضح من الآيات أن إخوة يوسف انتقلوا من دائرة البدو إلى دائرة الحضر، فكان طبيعياً أن يقولوا عندما اتهموا بالسرقة (ماجئنا لنفسد في الأرض). وواضح أيضا أن البضاعة الرديئة غير المرغوبة التي أحضروها، هي من دائرتهم الأولى التي كانوا فيها، ومن الطبيعي أن يقولوا (وجئنا ببضاعة مزجاة).

٧ - ونتأمل قوله تعالى:

- ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ الفرقان ٣٣.

- ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ الأعراف ٧٠.
- ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ..** ﴾ الأعراف ١٢٩.
- ﴿ **قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾ الأعراف ١٠٦.

نرى في هذه الآيات ورود فعلي جاء وأتى في آية واحدة. ونجد في الأولى أن المتكلم هو الله، والمخاطب هو محمد (ص) والحديث يدور عن الذين كفروا. ونجد أن محمدا (ص) هو وحده النبي الذي يوحى إليه، وأن قومه حين يوردون له الأمثال، وهم لايوحى إليهم، فهم إنما (يأتون) بها من دائرة معلوماتهم. ولهذا قال تعالى (ولايأتونك). ولما كان ماينزل على محمد (ص) من الحق، هو من خارج دائرة معلوماته، فإن الطبيعي أن يقول تعالى (إلا جئناك).

أما في الأعراف ٧٠، فالحوار بين هود (ع) وقومه. ونجدهم يسألونه مستنكرين (أجئتنا) بما ليس معروفا عندنا، ولايدخل في دائرة معارفنا من عبادة الله وحده؟. إن كنت صادقا (فأتنا) بما تزعم من العذاب الذي نعرفه، وتعرضت له قبلنا أمم سمعنا بها. ويتضح جليا أن فعلي جاء وأتى نزلا في مكانهما بالضبط.

وأما في الأعراف ١٠٦، ١٢٩. فالحوار بين موسى (ع) وقومه. فالقوم يطلبون من موسى، إذ كان قد أحضر لهم آية لايعرفونها وليست من دائرتهم، أن يأتيهم بها ضمن معارفهم ودائرتهم، والقصد هنا هو العصا واليد في قوله تعالى ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ الأعراف ١٠٧، ١٠٨. ثم يتابعون القول لموسى: لقد لحقنا الأذى قبل أن تدخل دائرتنا وتعيش حياتنا اليومية، اسرائيلياً مثلنا هارباً من جريمة قتل ارتكبتها، ثم لحقنا الأذى بعد أن جئتنا بما جئتنا به، مما لم يكن لنا به عهد ولا معرفة. ونلاحظ كيف تتغير الدائرة مع فعلي جاء وأتى، بحسب السياق، وبحسب المتكلم، وبحسب المخاطب.

٨ ـ ونقف عند قوله تعالى:

- ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ النصر ١.

- ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ الأنعام ٣٤.

ونجد أنفسنا هنا أيضاً، إما أمام الانطلاق من زاوية المتكلم ودائرة معارفه، ويكون الله هو المتكلم، فينسجم مع هذه الحالة فعل أتى. أو أمام الانطلاق من زاوية المخاطب، وينسجم مع هذه الحالة فعل جاء:

إذا جاء نصر الله (بالنسبة لمحمد (ص)) ⟵ أتاهم نصرنا (بالنسبة لله)

ولقد جاءك من نبأ (بالنسبة لمحمد (ص)) ⟵ ألم يأتكم نبأ (بالنسبة لله)

↓ ↓

"النبأ هنا خارج دائرة محمد كمخاطب" "النبأ هنا داخل دائرة بني اسرائيل كمخاطب"

٩ ـ كما نقف عند قوله تعالى:

- ﴿ **آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا** ﴾ الكهف ٩٦.

لنجد أن فعل أتى يرد مرتين في الآية. فذو القرنين يطلب من قومه أن يؤتوه بقطع الحديد الضخمة، وأن يؤتوه بالنحاس والحديد الذائب ليصبه عليه. ونفهم أن الحديد بشكليه الجامد والمصهور معروف عند القوم، وداخل ضمن دائرة معارفهم.

١٠ ـ وعند قوله تعالى:

- ﴿ **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ الاسراء ٨٨.

- ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ..** ﴾ البقرة ٢٣.

- ﴿ **أم يقولون تقوله بل لايؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ الطور ٣٣، ٣٤.

- ﴿ **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله ..** ﴾ يونس ٣٨.
- ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ..** ﴾ يونس ٣٩.
- ﴿ **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ..** ﴾ هود ١٣.

ونجد أن المتكلم في الآيات هو الله، وأن المخاطب هو محمد (ص)، وأن الحديث يدور عن التنزيل الحكيم، ونفهم الموضوع بالبساطة التالية:

يقول المكذبون إن محمداً (ص) أتى بآيات من عنده، ويقول الرسول الأعظم إنه جاء بها وحياً من الله، ويقول المكذبون إن محمداً (ص) افترى التنزيل، فهو من تأليفه ومن دائرة معارفه، ويقول الرسول الأعظم إنه ليس أكثر من رسول مبلغ، يؤدي إليهم ماجاءه من دائرة معارف ربه، مما لاعلم له به من قبل. ويحسم الحق تعالى الموضوع قائلا للمكذبين:

أ ـ إن كنتم في ريب من دعواه، وتزعمون أنه أتى بالتنزيل من عنده، فأتوا أنتم بسورة مثله تفترونها من عندكم، كما فعل هو بزعمكم.

ب ـ لكنكم لن تستطيعوا الاتيان بمثله ولو استعنتم بالجنس البشري كله، يدعمه جنس الجن كله.

جـ ـ لسبب منطقي بسيط، هو أن هذا التنزيل جاء من دائرة الله، ولم يأت من دائرة البشر، ولأن فيه أموراً لم تحيطوا بها علماً، ولم تنته إلى دائرة معارفكم تأويلا.

١١ ـ وننتقل إلى قوله تعالى:

- ﴿ **وهل أتاك حديث موسى** ﴾ طه ٩.
- ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ ص ٢١.
- ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ الذاريات ٢٤.
- ﴿ **هل أتاك حديث الجنود** ﴾ البروج ١٧.
- ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ الغاشية ١.

لنجد أن ا لله يسأل رسوله الكريم سؤال العارف، هل هذه الأحاديث والأخبار من ضمن دائرة معارفك قبل أن نذكرها لك هنا ؟.

١٢ ـ ونأخذ قوله تعالى:

- ﴿ ... أينما تكونوا يأت بكم ا لله جميعاً، إن ا لله على كل شيء قدير ﴾ البقرة ١٤٨.
- ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بآخرين ، وكان ا لله على ذلك قديرا ﴾ النساء ١٣٣.
- ﴿ ..إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على ا لله بعزيز ﴾ ابراهيم ١٩،٢٠.
- ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على ا لله بعزيز ﴾ فاطر ١٦،١٧.
- ﴿ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها ا لله، إن ا لله لطيف خبير ﴾ لقمان ١٦.

لنجد أن الحديث في الآيات يدور حول قدرة ا لله وعزته ولطفه وخبرته، ولما كانت كل الموحودات من داخل دائرة هذه القدرة العزيزة اللطيفة الخبيرة، فقد ورد فعل أتى للتعبير عن ذلك.

أما قوله تعالى:

- ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة، قل بلى وربي لتأتينكم .. ﴾ سبأ ٣.
- ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك، يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانُها .. ﴾ الأنعام ١٥٨.
- ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب ا لله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون﴾ يوسف ١٠٧.

- ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ الأنعام ٤.
- ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم ..** ﴾ الأعراف ١٦٣.

ففيه عرض للمواضيع التي يشك بها الكافرون ويكذبها الفاسقون كالساعة والملائكة واليوم الآخر، لأنها ليست ضمن دائرة معارفهم، رغم أن دلائلها وبيناتها واضحة في الآيات التي يعرضون عنها، وفيه تأكيد على أن هذه المواضيع ستدخل دائرة وعيهم ومعارفهم حين تصبح واقعا قائما أمام أعينهم.

وأما قوله تعالى:

- ﴿ **.. ولكن البر من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة ..** ﴾ البقرة ١٧٧.
- ﴿ **وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ البقرة ٤٣.
- ﴿ **.. والمقيمين الصلوة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون با لله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما** ﴾ النساء ١٦٢.
- ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وإيتاء الزكاة، وكانوا لنا عابدين** ﴾ الأنبياء ٧٣.
- ﴿ **.. ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة ويطيعون ا لله ورسوله ..** ﴾ التوبة ٧١.

فهو عن الصدقات والزكاة، التي لايصح نصابها ولايقع التكليف بها إلا إذا توفر المال في دائرة المكلف ومتناوله، لهذا قال تعالى إن المؤمن هو الذي يأتي ويؤتي الزكاة، ولم يقل يجيء بها، فالمرء يأتي بالشيء من دائرته، ويجيء به من دائرة أخرى. والذي يدفع المال يجب أن يحوزه أولاً ويملكه، ويؤكد قولنا أن التنزيل الحكيم لايستعمل في مواضيع الصدقات والزكاة سوى فعل أتى.

تماماً كما يستعمل سبحانه فعل أتى في معرض الحديث عن الفاحشة، وانظر قوله تعالى:

- ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم .. ﴾ النساء ١٥.
- ﴿ .. إلا أن يأتين بفاحشة مبينة .. ﴾ النساء ١٩.
- ﴿ .. فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات .. ﴾ النساء ٢٥.
- ﴿ .. أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ الأعراف ٨٠.
- ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ النمل ٥٤.

فالفاحشة تأتي من عند الانسان ودائرته ولاتجيء من دائرة أخرى.

ونقف أخيراً عند قوله تعالى:

- ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفا ﴾ الفجر ٢٢.
- ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ الصافات ٨٣، ٨٤.
- ﴿ يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ الشعراء ٨٨، ٨٩.
- ﴿ .. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا ﴾ طه ٧٤.
- ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ طه ٧٥.

لقد ورد فعل جاء في الآية الأولى، للدلالة على أن (أمر ربك) من دائرة أخرى غير دائرة الملائكة الواقفين صفاً صفاً.

أما في الآية الثانية، الصافات ٨٤، فيجدر الوقوف المتأمل، والمقارنة الدقيقة. فالسباق يتحدث عن نوح (ع) وأهله، وعن إنقاذهم وإغراق الآخرين، ليصل في الصافات ٨٣ إلى القول (وإن من شيعته) ونفهم أن الهاء هنا تعود على نوح، أي أن ابراهيم من شيعة نوح بالتأكيد. ثم تليها الآية ٨٤ لتقول (إذ جاء ربه بقلب سليم). لقد ذهب بعض المفسرين في فهم هذه الآية (الدر المنثور للسيوطي) إلى نفس المذهب الذي فهموا به آية الشعراء ٨٩:

١ - ربه : خالقه وبارئه

٢ ـ سليم : بريء من الشك والريبة والوسواس

٣ ـ جاء : أتى

ونحن نقول، بناء على كل ماتقدم من شواهد في الصفحات السابقة، إن العبد يمثل أمام الله ربه بقلب بريء من الشك عامر بالإيمان، إما من دائرة معارف العبد، ويتوجب هنا فعل أتى، أو من دائرة معارف الله، ويتوجب هنا فعل أتى، وتؤكد آية الشعراء ٨٩ قولنا هذا.

أما أن يجيء ابراهيم إلى الله ربه بقلب مؤمن بريء من الشك، من خارج دائرة معارفه هو، أو من خارج دائرة معارف الله، فهذا مستحيل !!

ونصل بعد التأمل إلى القول بأن:

١ ـ ربه : آزر الرجل الذي رباه.

٢ ـ سليم : مملوء بالشك والريبة.

ونتذكر ونحن نرجح هذا الفهم قوله تعالى ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي ..** ﴾ يوسف ٢٣. هنا يطلق يوسف لقب (ربي) على العزيز الذي اتخذه ولداً ورباه وأكرم مثواه.

ونتذكر أيضا الخلاف بين جمهور أهل النسب، ومنهم ابن عباس، والمفسرين ومنهم الطبري وابن كثير، في اسم والد ابراهيم. أما المفسرون فقد اعتمدوا آزر والداً لابراهيم ، محتجين بالتنزيل الحكيم ، وأما ابن عباس والنسابون فاعتمدوا تارح والداً لابراهيم ، دون أن يتكلف أي من الطرفين مشقة استقصاء هذا الخلاف ، و هذا مادعا بعض أهل الكتاب من اليهود إلى الطعن بالتنزيل الحكيم والقول بخطئه في هذه المسألة، حين اعتبر ـ في زعم المفسرين ـ أن والد ابراهيم هو آزر.

ونحن نقول، لقد وقع التضاد من الخلط بين الأب والوالد، ومن اعتبارهما شيئا واحدا، رغم دقة التنزيل الحكيم في التفريق بينهما. فالأب قد يكون والدا وقد لايكون، فإن لم يكن والدا كان أبا، ربا ً، صاحبا ً، مربيا. ومن هنا جاءت كنية ابراهيم (ع) أبو الضيفان ، ومن هنا جاءت تسميات رب البيت ورب العمل ورب الأسرة ورب الخورنق والسدير. وإلا فمن المستحيل أن يكون ابراهيم والداً للضيفان، وأن يكون رب العمل هو إله العمل و خالقه.. وهذه إحدى كوارث الترادف(١) .

أما قولنا إن القلب السليم هنا، هو المملوء بالشك، وليس البريء من الريبة، فلأن السليم من الأضداد كما عند الأنباري . والعرب تسمي الملدوغ سليما لأنه مسلم لما به ، و تسمي الصحراء المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز.

نفهم مما تقدم، أن ابراهيم إذ كان من شيعة نوح المؤمنة، فقد جاء إلى أبيه آزر، بقلب فيه مافيه من النقمة على الأصنام، وفيه مافيه من الايمان بالواحد الأحد، الذي وصله من دائرة أخرى غير دائرة آزر وقومه، وهنا يرد فعل جاء في مكانه الصحيح ودلالته الصحيحة، وبخاصة إذا تابعنا سياق مابعد هذه الآية، حيث نجد ابراهيم حانقاً على الأصنام وعبادتها، ينهال عليها ضرباً وتكسيراً، وهذا كله لاينسجم مع مافهمه المفسرون في تفسيرهم للآية ٨٤.

ونأتي أخيراً إلى قوله تعالى في طه ٧٤ و ٧٥، لنفهم دلالة التنزيل القطعية بأن الايمان و الاجرام من دائرة خيار الانسان واختياره، وليس من خارجها، ولايفرضان عليه فرضاً مسبقاً، ونفهم بأن الجبرية لامكان لها البتة في التنزيل الحكيم.

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر بحثنا في التفريق بين الأب والأم والوالد والوالدة.

(1) ورد فعل نظر ومشتقاته ١٢٩ مرة في ١١٥ آية من التنزيل الحكيم، تبدأ بالبقرة ٥٠ وتنتهي بالغاشية ١٧. كما ورد فعل بصر ومشتقاته ١٤٨ مرة في ١٣٩ آية من التنزيل الحكيم، تبدأ بالبقرة ٧ وتنتهي بالانشقاق ١٥. وورد فعل رأى ومشتقاته ٣٢٨ مرة في التنزيل الحكيم، في ٢٩٣ آية تبدأ بالبقرة ٥٥ وتنتهي بالنصر ٢. وأخيراً ورد فعل شهد ومشتقاته ١٦٠ مرة في ٨٣ آية من التنزيل الحكيم. أي بمجموع قدره ٧٦٥ مرة في ٦٣٠ آية للأفعال الأربعة، مايعادل ١٠٪ من التنزيل.

ومرة أخرى تجدنا أمام مجموعة ألفاظ، لو اعتبرناها دالات مترادفة متماثلة لمدلول واحد، لتعذر علينا فهم قسم من آيات التنزيل وأحكامه بالدقة المطلوبة. وتصوروا معنا ونحن نعتبر أن (شهد = رأى) في قوله تعالى ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ..** ﴾ البقرة ١٨٥. لانطبق التكليف بالصيام على اثنين أو ثلاثة فقط من الأمة، بدلالة قوله (ص)، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته. ولكن الأمر ليس كذلك. ولقد أصاب الإمام السيوطي في دره، حين اعتبر (شهد) في الآية بمعنى (حضر). فأنت تشهد المعركة، مثلا، بمعنى أنك تحضرها، وليس بمعنى أنك تراها، فقد تحضرها في مستودع الذخيرة، أو في خيمة لإسعاف الجرحى . و تصوروا معنا ونحن نعتبر أن (رأى - أبصر) في قوله تعالى: ﴿ **... يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ..** ﴾ الصافات ١٠٢. سينطبق ذلك على (أرى) في أول الآية، أما (ترى) الثانية فهي من الرأي وليس من الرؤية، أو قل هي من الرؤية الفؤادية وليس من الرؤية البصرية. ولو كان معنى ترى في الآية بمعنى تبصر، لوجب أن يكون جواب اسماعيل: إني أراك تحمل سكيناً!!

---

(1) لقد اقتبسنا هذا البحث (اعتباراً من هذه الصفحة) من مخطوط بعنوان " في الخطاب القرآني / رؤية حديدة " للمهندس عماد درويش ت١ ١٩٩٤ ، ونحن له بالشكر لاذنه لنا بالاقتباس . - المؤلف -

النظر : هو عملية توجيه العين لإبصار شيء أو لرؤية حدث. فنحن ننظر لنرى ونبصر. ونقرأ بهذا المعنى قوله تعالى:

- ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ البقرة ٥٠.
- ﴿ .. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً .. ﴾ البقرة ٢٥٩.
- ﴿ .. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ الأنعام ٩٩.
- ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني .. ﴾ الأعراف ١٤٣.
- ﴿ ومنهم من ينظر إليك، أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون ﴾ يونس ٤٣.

وقد تدخل تاء الجهد على فعل نظر، فيصبح انتظر، وهو النظر المديد الطويل في ترقب رؤية الشيء وإبصار الحدث. وبهذا المعنى نقرأ قوله تعالى:

- ﴿ فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ يونس ١٠٢.
- ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه، فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ يونس ٢٠.
- ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ هود ١٢٢.

وقد تدخل ألف التعدية على نظر، فيصبح أنظر، بمعنى أمهل وأجل. ونقرأ بهذا المعنى قوله تعالى:

- ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .. ﴾ البقرة ٢٨٠.
- ﴿ خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ آل عمران ٨٨.
- ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين ﴾ الأعراف ١٤،١٥.
- ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾ الأنبياء ٤٠.

أما البصر، فعملية الرؤية ذاتها في حاسة الابصار وهي العين. تماما كما أن حاسة السمع في الأذن. ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **ختم ا لله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ..** ﴾ البقرة ٧.
- ﴿ **.. قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾ الأنعام ٥٠.
- ﴿ **لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير** ﴾ الأنعام ١٠٣.

وقد لايقتصر الابصار على الجانب المادي للرؤية، فينسحب جوازا على الادراك الراسخ والوعي المحقق الذي لايقل عن الابصار المادي. ومن هنا جاءت البصيرة والتبصرة، أو لينسحب جوازاً على ماهو واضح جلي كالصورة في العين، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ ق ٨.
- ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ ق ٢٢.
- ﴿ **بل الانسان على نفسه بصيرة** ﴾ القيامة ١٤.
- ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ الجاثية ٢٠.
- ﴿ **ا لله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ..** ﴾ غافر ٦١.
- ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين** ﴾ النمل ١٣.

وأما الرؤية في فعل رأى، فهي ماينتج عن عمليتي النظر والبصر. ولكن لما كان النظر والبصر مادياً حقيقياً من جانب، مجازياً معنوياً من جانب، فقد جاءت الرؤية ذات وجهين: عينية، وفؤادية. ونلاحظ أن الرؤية العينية تقتضي وجود الناظر المبصر خارج الشيء أو الحدث المرئي، أما الرؤية الفؤادية فتستوجب وجوده داخله. فأما في الرؤية العينية، فنقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى ا لله جهرة ..** ﴾ البقرة ٥٥.
- ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها ..** ﴾ البقرة ١٤٤.
- ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ..** ﴾ البقرة ٢٦٠.

- ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ آل عمران ١٤٣.
- ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي ..** ﴾ الأنعام ٧٦.

وأما في الرؤية الفؤادية فنقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حباً، إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ يوسف ٣٠.
- ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ..** ﴾ الحج ١٨.
- ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ..** ﴾ النمل ٩٣.
- ﴿ **ماكذب الفؤاد مارأى** ﴾ النجم ١١.
- ﴿ **.. ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ..** ﴾ الأنعام ٩٣.

وقد تجتمع الرؤية العينية والرؤية الفؤادية في آية واحدة كما في قوله تعالى:

- ﴿ **.... ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا ....** ﴾ البقرة ١٦٥.
- ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن ..** ﴾ الأنعام ٦.
- ﴿ **ثم لترونها عين اليقين** ﴾ التكاثر ٧.
- ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا** ﴾ الجن ٢٤.
- ﴿ **الذي خلق سبع سموات طباقا ، ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ..** ﴾ الملك ٣.

" انتهى الاقتباس"

٢_ الشهيد و الشهادة الحضورية

كان يجب أن نختم قولنا السابق بفعل شهد، وكان يجب أن نقارن بينه وبين نظر وأبصر ورأى، لكننا رأينا أن ندخل في مقصدنا، تحاشيا للإطالة ولتكرار الشواهد من الآيات. والمقصد الذي نقف أمامه، هو قوله تعالى:

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون * ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون * وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ الزمر ٦٩ - ٧٣.

ونلخص التسلسل الوارد في الآيات أعلاه، ونحدد العناصر فيها، لنستخلص بعد ذلك معنى مصطلح الشهداء الوارد في الآية ٦٩.

١ - أشرقت الأرض بنور ربها

٢ - وضع الكتاب

٣ - جيء بالنبيين والشهداء

٤ - قضي بينهم بالحق

٥ - وفيت كل نفس ماعملت

٦ - سيق الذين كفروا إلى جهنم

٧ - سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة

ونتوسع في هذه العناصر:

١ - أضاءت الأرض بنور ربها بعد أن لفتها ظلمات الساعة والصور والصعقة.

٢ - وضع كتاب الكون بأعمال مخلوقاته وأحداث تاريخه، والكتاب هنا هو الامام المبين الذي يحفظ سجلات الأعمال والأحداث.

٣ - تم إحضار النبيين والشهداء من دائرة غير الدائرة التي حشر فيها الخلق، بدلالة فعل جاء، ودبجهم ا لله في زمرة واحدة مختلفة عن بقية الناس، إشارة إلى أنهم لايحشرون يوم يحشر الناس.

٤ - وكان إحضار النبيين والشهداء ضرورياً لاكتمال مجلس الحكم، والقضاء بين الناس بالحق، إذ لايستقيم قضاء بدون شهود وشهادة.

٥ - ثم يأتي التسديد بعد الحساب، فتوفى كل نفس ماعملت.

٦ - ويساق الكفار إلى دائرة أخرى غير دائرة مجلس الحكم، هي جهنم، بدلالة فعل (جاؤوها).

٧ - ويساق المتقون إلى دائرة ثالثة هي الجنة، بدلالة فعل (جاؤوها).

وهنا نقف أمام عنصر هام من عناصر يوم الحساب، هو عنصر الشهادة. ومن هنا ندخل لنفهم اسم ا لله الشهيد، ومعنى وصفه لذاته العلية بأنه عالم الغيب والشهادة، ولنفهم أخيراً الفرق بين الشاهد والشهيد، سواء بالنسبة لله تعالى، أو بالنسبة للأنبياء والناس.

فالشهيد هو الحاضر العارف وعكسه الغائب. والمعرفة عند الشهيد، بالشيء أو بالحدث الذي شهده، معرفة حضورية سمعية بصرية. وهو يفسر أن علم ا لله الشهيد بكل الأشياء والأحداث، علم حضوري سمعي بصري. ولهذا نرى أن أسماء السميع البصير هي من أسمائه الحسنى.

السميع البصير ←———— الشهيد

ولما كان ا لله كامل المعرفة بكل شيء، سمعياً وبصرياً وحضورياً (دون تجسيد) فقد كان الشهيد على كل شيء دون حضور ذاتي، ودون حلول في الكون. ولذا قال سبحانه ﴿ .. **يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ومايننزل من السماء ومايعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، وا لله بما تعملون بصير** ﴾ الحديد ٤. فهو يعلم مايحصل في الطبيعة، ويبصر الناس، لأنه معهم دون تجسيد أينما كانوا. وهذا هو تعريف الشهيد، ويقول سبحانه ﴿ **ألم تر أن ا لله يعلم مافي السموات ومافي الأرض، مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن ا لله بكل شيء عليم** ﴾ المجادلة ٧. ومرة أخرى تشرح الآية علم ا لله بما يحصل في الطبيعة، وتشرح حضور ا لله سبحانه مع الناس أينما كانوا، ومهما بلغ عددهم، ومهما بالغوا في التستر والتخفي، وهذا هو جوهر اسم الشهيد.

لذا ، فشهادة الشهيد ، شهادة حضورية سمعية بصرية ، وشهادة ا لله الشهيد كسميع بصير ، ترتبط لزوماً بكمال معرفته وتمام علمه كعليم، وترتبط معها عددا من الأسماء الأخرى بوشائج واضحة، كالمحيط والخبير والقيوم.

فإذا رتلنا آيات الذكر الحكيم، التي ورد فيها فعل شهد، أو أحد مشتقاته (شاهد/ شهيد/ شهداء/ شاهدين/ شهود/ أشهاد/ شهادة/ وغيرها ..) رأينا أن الشهادة تنقسم من حيث الطرف الذي يؤديها إلى قسمين:

١ ـ شهادة يؤديها شاهد.

٢ ـ شهادة يؤديها شهيد.

والشهيد والشاهد، اسمان مفردان مختلفان في الاشتقاق من أصل واحد هو شهد. ورد جمعهما عند الزمخشري وغيره: أشهاد/ شهود/ شهداء. لكن اسم الشهيد إن كانت

نسبته لله فلا جمع له، وإن كانت نسبته للمخلوق فجمعه شهداء وأشهاد، وقد يجمع على شهود. أما الشاهد فيجمع على شاهدين فإذا كان هناك شهداء وشاهدين معاً جمعناهم على شهود وأشهاد. ونسأل بعد هذا التنويه اللغوي: هل هناك فارق بين شهادة الشهيد وشهادة الشاهد؟ ونجيب: نعم.

١ - فشهادة الشهيد، كما أسلفنا، شهادة حضورية، وعلم الشهيد بموضع الشهادة علم حضوري، حصل عن طريق السمع والبصر. والشهيد هو العارف بالشيء أو بالحدث الذي أدى شهادته للآخرين، أو هو على الأقل مستعد لأدائها أمامهم. أي أن للشهيد، ليكون شهيدا، شرطين:

أ - الحضور بالسمع والبصر.

ب - أداء الشهادة، أو الاستعداد لأدائها حين يطلب منه ذلك.

ونجد ذلك واضحا في قوله تعالى ﴿ **يأأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولايأب كاتب أن يكتب كما علمه ا لله، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق ا لله ربه ولايبخس منه شيئاً، فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لايستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، ولايأب الشهداء إذا مادعوا، ولاتسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، ذلكم أقسط عند ا لله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها، وأشهدوا إذا تبايعتم، ولايضار كاتب ولاشهيد، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم، واتقوا ا لله، ويعلمكم ا لله، وا لله بكل شيء عليم** ﴾ البقرة ٢٨٢.

ونلاحظ أن الآية أطلقت اسم الشهيد على الانسان الذي شهد البيع والعقد سمعيا وبصريا وأدى شهادته بما شهد، ثم حظرت الاضرار به. كما نلاحظ أن الآية

اشترطت دعوة (شهيدين من رجالكم) حين الحاجة، أي رجلين ممن حضروا الواقعة. ونجد فائدة في الاشارة إلى قوله تعالى (من رجالكم) فهو سبحانه قال ذلك لأن الشهيد لامؤنث له، فالرجل شهيد، والمرأة شهيد. ولو كان مؤنث الشهيد شهيدة لما أتبعها بقوله (من رجالكم)، ولكان قوله هذا حشواً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ومن هنا نتبين أن شهادة المرأة مقبولة وتعادل شهادة الرجل في كل شيء ماعدا عقود البيع فقط.

٢ ـ أما شهادة الشاهد فهي شهادة معرفة وخبرة مكتسبة، وليست شهادة حضورية سمعية وبصرية. نقول هذا، وأمامنا قوله تعالى واضحاً مؤيداً ماذهبنا إليه: ﴿**قال هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم**﴾ يوسف ٢٦، ٢٧، ٢٨.

نحن هنا أمام حادثة حصلت خلف أبواب مغلقة، في غرفة ليس فيها سوى يوسف وامرأة العزيز، ولم يكن ثمة من حضرها ليكون شهيداً عليها. لكن الشاهد الذي شهد من أهلها، إنما شهد من واقع خبرته بالأدلة، وبكيفية سير الأمور ومنطقية الأحداث بنتائجها. فالرجل الذي يهاجم امرأة ليعتدي عليها، يهاجمها بصدره، بحيث لو قاومته، فإن آثار مقاومتها ستنطبع على وجهه وصدره وثيابه من أمام. أما حين تطارد المرأة رجلاً هارباً منها، وتحاول الامساك به، فستنطبع آثار ذلك على ظهره وثيابه من خلف. وكانت النتيجة أن ظهر كذب امرأة العزيز، وصدق يوسف، بدلالة الآثار. لكن هذا يدل، وبشكل قطعي لالبس فيه، على أن الشاهد لم يكن حاضراً. وهذا هو المعنى الثاني للشهادة عندما تكون من شاهد.

فالذي يؤدي شهادة، انطلاقاً من خبرة أو دراية أو أرضية معرفية، هو شاهد وليس شهيداً. والذي شهد حضورياً رأي العين انهيار بناء، ثم أدى شهادته بما رأى فهو

شهيد. أما الذي رأى البناء منهاراً، وأخذ عينات منه، وقام بتحليل وفحص المخططات والأساسات، ثم أدى شهادة على شكل تقرير فني، يشرح أسباب الانهيار الذي لم يكن حاضرا ساعة حدوثه، فهو شاهد وليس بشهيد.

وهنا ندرك أن شهادة الشهيد أقوى من شهادة الشاهد. فقد يتوفر لدينا عدد كبير من الشاهدين والخبراء، يدلون بشهادات الخبرة المعرفية، لكن يكفي شهيد واحد ليطيح بكل شهاداتهم وبكل خبراتهم، وهو مايطلق عليه خطأ اسم شاهد النفي أو شاهد الاثبات، في حين هو شهيد وليس بشاهد. وهنا أيضا نتبين مدى خطورة أداء الشهادة الصادقة عند الشهيد، ومدى خطورة أداء شهادة الخبرة الكاذبة عند الشاهد، ونتبين أهمية أن نفهم عائدية فعل شهد، هل هي على الشاهد أم على الشهيد.

ثمة فارق آخر بين شهادة الشاهد وشهادة الشهيد، فالذي يقدم معلومات عن نفسه شاهد وليس بشهيد، لأنه يعرف نفسه، وليس لأنه يسمع ويبصر نفسه، فهو يصف نفسه للآخرين من خلال معرفته بها، وليس من خلال رؤيته لها، ولذا:

شهد

- **أدى شهادة حضورية عن أي شيء غير نفسه، فهو شهيد وهم شهداء**
- **أدى شهادة معرفية عن أي شيء بما في ذلك نفسه، فهو شاهد وهم شاهدون**

شهود

٣_ الشاهد و الشهادة المعرفية

يقول تعالى في معرض تعريف الآخرين على نفسه ﴿ **شهد ا لله أن لاإلـه إلا هـو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لاإله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ آل عمران ١٨.

ويقـول تعـالى ﴿ **ماكـان للمشـركين أن يعمـروا مسـاجد ا لله شـاهدين علـى أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم ..** ﴾ التوبة ١٧.

هنا يعرف ا لله بنفسه بأنه لاإله إلا هو، لكن هذه شهادة شاهد لاشهادة شـهيد، لأن الشهيد يشهد الحدث والشيء من خارجه، أما الشاهد فيشهده من داخله. وكذلك شهادة الملائكة وأولي العلم، هي شهادة شاهد وليست شهادة شهيد. بمعنى أنهم لم يروا رأي العين أنه لاإله إلا هو. وبمعنى أنه لاأحد رأى الذات الإلهية، ثم قدم شهادته بما رأى حضوريا. ونفهم بعد ذلك كله، طلـب موسـى مشـاهدة ا لله حضوريـا فقـال ﴿ **..ربـي أرني أنظر إليك ..** ﴾ ، لينتقـل مـن مقـام الشـاهد الـذي شـهد ا لله معرفيـا، إلى مقـام الشهيد الذي يريد أن يرى واحديـة ا لله حضوريـا. كمـا نفهـم بعـد ذلـك كلـه أن ا لله شاهد على نفسه، شهيد عليم بصير سميع محيط خبير بكل ماهو غيره. ونفهم أخيراً، أن أول مهمة من مهمات الرسل هي أن يشهدوا بأن لاإله إلا ا لله، شهادة معرفية لاشـهادة حضورية، إذ لاأحد منهم رأى ا لله، ثم شهد بوحدانيته.

لقد بدأت الرسالة المحمدية بالدعوة إلى التوحيد (الشهادة بالوحدانية) وبهذا كان محمد (ص) شاهدا وليس شـهيداً، بدلالـة قولـه ﴿ **يـا أيهـا النـبي إنـا أرسـلناك شـاهداً ومبشراً ونذيرا** ﴾ الأحزاب ٤٥. إلا أن شهادة التوحيد المعرفية هذه لم تجـيء إلى محمـد (ص) ليبقيها لنفسه، بل لينقلها إلى الناس مع ماينقل من رسالات ربه، ثم ليكون شاهداً معرفياً على شهادة الناس المعرفية بوحدانية ا لله. وفي هذا يقول تعالى ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا** ﴾ المزمـل ١٥. فـإذا شـهد النـاس

شهادة شاهد لاشهادة شهيد بأن لاإله إلا ا لله، أتبعوا ذلك بشهادة معرفية ثانية، هي أن محمداً رسول ا لله، أي:

إنا أرسلناك شاهداً شـــهادة أن لاإلـــه إلا ا لله	←	إنا أرسلنا إليكم رسولا شهادة أن محمداً رسول ا لله

ولهذا، فنحن شاهدون بأن لاإله إلا ا لله شهادة شاهد معرفية، لأننا لم نر ونسـمع ونحضر واحدية ا لله ووحدانيته، وشاهدون بأن محمداً رسول ا لله شهادة شـاهد معرفيـة، لأننا لم نحضر قرار ا لله ببعث محمد رسولاً.

لقد كان طلب الشهادة بوحدانية ا لله من الناس، هو القاسم المشترك بين الأنبيـاء والرسل جميعاً، بدلالة قوله تعالى ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً ..** ﴾ الأنعام ١٥١. وقوله تعالى ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلـك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ الزمر ٦٥.

لقد قلنا إن الذين آمنوا بوحدانية ا لله وشهدوا بهـا، وآمنـوا برسـالة محمـد (ص) وشهدوا بها، هم مع الشاهدين وليس مـع الشـهداء. ولهـذا، فنحـن نسـتغرب أن يفسـر الامـام السـيوطي في الـدر المنثور قولـه تعـالى ﴿ **.. جـيء بـالنبيين والشـهداء ..** ﴾ بقـوله : أي بمحمـد و أمتـه يشـهدون للرسـل بـالبلاغ !! يقـول هـذا وأمامـه قولـه تعالى:

- ﴿ **ربنـا آمنـا بما أنزلت واتبعنا الرسـول فاكتبـنا مـع الشـاهدين** ﴾ آل عمران ٥٣.
- ﴿ **وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض بالدمع مما عرفوا من الحـق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ المائدة ٨٣.

- ﴿ **ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ..** ﴾ التوبة ١٧.
- ﴿ **.. قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ آل عمران ٨١.
- ﴿ **قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ المائدة ١١٣.
- ﴿ **وماكنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين** ﴾ القصص ٤٤.
- ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾ الأنبياء ٥٦.

فشهادة الشاهدين (ج شاهد) في الآيات كلها شهادة معرفية وليس شهادة شهيد حضورية، و (الشاهدين) في الآيات كلها ليسوا الشهداء، والشهداء في الزمر ٦٩ ليسوا الشاهدين.

لقد قلنا إن الشاهد يجمع على شاهدين وشهود، وسبق لنا أن قلنا (١) : إن البنين والبنون جاءت من الأبنية وليس من الأبناء. وقد يقول قائل: فإن قوله تعالى ﴿ **وجعلت له مالاً ممدودا * وبنين شهودا** ﴾ المدثر ١٢،١٣ ينقض ماقلت في كتابك. أجبنا، قد يقوم البناء شاهداً على مجد أو حضارة، فتكون الأبنيةفي هذه الحالة شهودا. وتوهم التناقض جاء من اعتبار أن الشاهد والشهود محصورة بالعاقل، غير أن الأشياء يمكن أن تكون شاهدة على شيء ما، وإلا فما معنى قوله تعالى: قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق؟

---

(١) ـ "الكتاب والقرآن / قراءة معاصرة" دار الأهالي بدمشق ١٩٩٠ ص ٦٤٤.

أما قوله تعالى ﴿ **قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾ البروج ٤ ـ ٧. فأصحاب الأخدود الجالسون حول النار يحرقون المؤمنين، شهداء لأنهم حاضرين، وشاهدين في نفس الوقت لأنهم الذين رتبوا بأنفسهم الخنادق والنيران. ومن هنا نفهم أن مصطلح الشهود في التنزيل الحكيم مصطلح خاص. فجمع شهيد شهداء، وجمع شاهد شاهدون، وجمع الشاهد الشهيد هو الشهود.

شهيد ← شهداء
شاهد ← شاهدون
(شهداء + شاهدون) ← شهود

ويوضح ذلك ويؤيده قوله تعالى ﴿ **وماتكون في شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**﴾ يونس ٦١.

فالحديث هنا عن الكتاب المبين، أرشيف أحداث الطبيعة وأحداث التاريخ الانساني بأدق تفاصيلها، ولهذا وردت كلمة شهود لتدل على أن الله شهيد لها وشاهد عليها في الوقت نفسه، أي أن معرفته بها:

معرفة حضورية ← سميع بصير ← شهيد
معرفة إخبارية ← عليم خبير ← شاهد

ننتقل بعد ذلك إلى مصطلح قرآني آخر من أصل شهد، هو مصطلح الأشهاد. ونلاحظ أنه يرد حصراً في مقام اليوم الآخر بقوله تعالى:

- ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ غافر ٥١.

- ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ هود ١٨.

ونرى أن الشهود هم جمع الشاهد والشهيد في الحياة الدنيا، وأن الأشهاد هم جمع الشاهد والشهيد والنبي في الآخرة. أي أن:

النبيين + الشهداء + الشاهدين = الشهود في الدنيا

النبيين + الشهداء + الشاهدين = الأشهاد في الآخرة

وننظر الآن في مصطلح الشهيد، فالشهيد اسم من أسماء الله الحسنى. ولقد قلنا إن الشهيد يشهد على غيره شهادة حضورية سمعية بصرية، وهو الذي أدى، أو مستعد لأداء الشهادة عند الطلب. ومن هنا نفهم قوله تعالى:

- ﴿ .. **والله شهيد على ماتعملون** ﴾ آل عمران ٩٨.
- ﴿ .. **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ المائدة ١١٧.
- ﴿ .. **إن الله على كل شيء شهيد** ﴾ الحج ١٧.
- ﴿ .. **وهو على كل شيء شهيد** ﴾ سبأ ٤٧.
- ﴿ .. **أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ فصلت ٥٣.

هذا بالنسبة لله كشهيد، أما الرسول كشهيد، فقد ورد في قوله تعالى:

- ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾ النساء ٤١
- ﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ النحل ٨٩.

لقد بدأ الاسلام بنوح (ع)، وتم واكتمل بمحمد (ص)، والرسل التي جاءت إلى الأمم المختلفة، كانت حلقات في سلسلة واحدة هي الاسلام. وهؤلاء الرسل شهداء على أممهم (من أنفسهم)، ولما كان تعالى قد أخذ ميثاق النبيين (آل عمران ٨١) والميثاق

هو التوحيد كقاسم مشترك بين النبوات والرسالات، فإن خاتم الرسل والأنبياء سيكون شهيداً يوم القيامة على كل من سبقه، لأن الأمة سلوك. ولهذا نراه تعالى يقول:

- ﴿ **ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا ا لله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ المائدة ١١٧.
- ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ النساء ١٥٩.

وأما بالنسبة للانسان العادي كشهيد، فنقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **إليه يرد علم الساعة، وماتخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه، ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك مامنا من شهيد** ﴾ فصلت ٤٧.
- ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ ق ٣٧.
- ﴿ **وماكنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين** ﴾ القصص ٤٤.

في الآية الأولى، يعتذر الذين أشركوا با لله، ويضعون الأمر بين يديه تعالى، إذ ليس فيهم من شهد حضوريا انفتاق البراعم عن الثمرات، ولايعلم أي منهم ماتحمل وماتضع إناث النبات والحيوان والانسان. ولقد تكرر القول بهذا المعنى مرارا في التنزيل الحكيم (الأنعام ١٤٣، ١٤٤ والرعد ٨ ولقمان ٣٤).

وفي الآية الثانية، يوضح لنا سبحانه الفرق بين الشاهد والشهيد، فالأمور التي عددها سباق الآية فيها ذكرى وعظة وهدى لمن كان له قلب. أي لمن له عقل وادراك

قادر على استنباط النتائج. وهذا هو الشاهد. وفيها أيضا ذكرى وهدى لمن يستعمل حواسه فيرى ويسمع. وهذا هو الشهيد.

تأتي الآية الثالثة لتؤكد ماذهبنا إليه في التفريق بين الشاهد والشهيد. فالخطاب موجه إلى الرسول الأعظم (ص) يرد على من قال من المكذبين بالوحي والرسالة، إن محمداً عرف هذه الأخبار من علماء النصارى وأحبارهم. وتنفي الآية أن يكون (ص) شهيداً حاضراً بجانب الجبل حين كلم موسى ربه. وتنفي أن يكون قد اجتمع لديه من المعلومات والأدلة ما يجعله شاهداً، يستنتج ذلك ويستنبطه. وهنا نفهم قول إبراهيم (ع) :

- ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾ الانبياء ٥٦.

فإبراهيم هنا شاهد وليس بشهيد، إذ لم يكن ثمة خلق رأى وسمع وحضر عملية انفطار السموات والأرض، لكنه استدل واهتدى بقلبه إلى أن الله رب السموات والأرض هو الذي فعل ذلك.

وننتقل الآن إلى الزنا، وإلى الشهادة على الزنا، في قوله تعالى:

﴿ **لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء، فإذا لم يأتوا بالشهداء، فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ النور ١٣.

﴿ **و اللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ..** ﴾ النساء ١٥.

﴿ **واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما، إن الله كان تواباً رحيما** ﴾ النساء ١٦.

ونحن هنـا، فيمـا نـرى، أمـام ثـلاث حـالات مـن الفاحشـة: الزنـا، والسـحاق، واللواط. ومايهمنا منها في هذا الصدد هـو موضـوع الشـهادة، وحدودهـا، وحكـم ا لله فيها.(١)

ففي الآية الأولى، يطلب سبحانه ممن يرمي الناس بالزنا، أن يأتي بأربعة شـهداء، والشهداء جمع شهيد ذكورا وإناثا. ولهذا قلنا بأن شهادة المرأة في مقـام شـهادة الرجـل بكل شيء ماعدا عقود البيع. أي أنه تعالى أمر بـأن تكـون الشـهادة علـى الزنـا شـهادة حضورية وليس معرفية، وحدد عدد الشهداء بأربعة.

وفي الآية الثانية، طلب سبحانه لإقامة حد السحاق، شهادة حضورية، من أربعـة شهداء، الفاعل أو زوجه ليس من بينهم، بدلالة قوله (منكم).

أما في الآية الثالثة، فلم يطلب سبحانه شهادة حضورية إطلاقاً لفاحشـة اللـواط. مما نفهم منه أن إثبات (إتيانها) والقيام بها، يمكن أن يكون بشهادة شاهد واحـد خبـير، كالطبيب مثلا، إذ لم تحدد الآية أي عدد للشاهدين.

وأمـا حـين لايتوفـر الشـهداء مـن حـاضري حادثـة الزنـا، أي ممـن رأوا وسمعـوا حضورياً، فقد قال تعالى:

- ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكـن لهـم شـهداء إلا أنفسـهم، فشـهادة أحدهـم أربع شهادات با لله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنـة ا لله عليـه إن كـان من الكاذبين** ﴾ النور ٦، ٧.

ومرة أخرى نجد أن الحلف با لله في آية الملاعنة المذكورة، يجـب أن يتكـرر أربـع مرات ليغطي شهادة الشهداء الأربعة المطلوبين في إثبات الزنا بآية النور ١٣.

---

(١) ـ لمزيد من التفصيل حول تعريف الفاحشة، انظر مقالنا "أقوال في الذنب والسيئة".

ونقف، ونحن في جانب الانسان كشهيد، عند قوله تعالى:

- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فا لله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن ا لله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ النساء ١٣٥.
- ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا ا لله، إن ا لله خبير بما تعملون** ﴾ المائدة ٨.

ونلاحظ لأول وهلة أن البداية والخاتمة في الآيتين واحدة:

ياأيها الذين آمنوا .. ← ياأيها الذين آمنوا ..

.. فإن ا لله كان بما تعملون خبيرا ← .. إن ا لله خبير بما تعملون

لكن الملفت للنظر أن آية النساء جعلت القوامية بالقسط مقدمة على الشهادة لله، بينما جعلت آية المائدة القوامية لله مقدمة على الشهادة بالقسط. وأول مانفهم من الآيتين أن الشهادة والقوامية لله، وأن الذين آمنوا مأمورون بالقوامية وبالشهادة وبالقسط. وماعلينا لنفهم هذا التبديل إلا أن نرجع لموضوع الآية الأولى، ولموضوع الآية الثانية.

فآية النساء تتحدث عن الشهادة على النفس والوالدين والأقربين. والانسان ميال بطبعه إلى حب نفسه، وإلى الانحياز لوالديه وأقاربه، ولأنه كذلك، وجب أن يتقدم عنده حس العدالة والضمير على الشهادة التي يؤديها لله، والتي يجب أن تكون صادقة، يتغلب فيها الانسان على أنانيته (حبه لنفسه) وتعصبه (انحيازه لوالديه وأقربائه). فإذا تحقق له هذا الحس بالعدل (القوامة بالقسط)، تقدم لتقديم الشهادة.

قوامين بالقسط ← شهداء لله

↓ ↓

حس العدالة والتغلب على الأنانية والتعصب ← أداء الشهادة الصادقة

أما آية المائدة، فتتحدث عن الشهادة على أناس آخرين، لاتربطه بهم رابطة نعصب أو قربى، ولكن يوجد بينه وبينهم كره أو بغضاء تميل به إلى الجانب الآخر. فإذا وجد ذلك، وجب ألا يحمله على ألا يعدل. وهنا تأتي الشهادة الصادقة أولاً، التي يأمر بها ا لله، عند الانسان المتقدم للشهادة، والذي يبتغي وجه ا لله بشهادته، مع غياب مايؤثر على هذه الشهادة من تعصب وميل، أو من نفور وكره.

قوامين لله ← شهداء بالقسط ← ولايجرمكم شنآن قوم على ألا تعدلوا

↓ ↓

الايمان با لله وبأداء الشهادة الصادقة ← حب العدالة ونبذ عواطف العداء إن وجدت

أي أن على الانسان في الحالة الأولى (آية النساء) أن يكبح عواطف حب الذات والأقارب، ثم يؤدي الشهادة. وعليه في الحالة الثانية (آية المائدة) أن يؤدي الشهادة كابحاً عواطف بغض وكره الآخرين إن وجدت.

ونرى في الآيتين قمة من قمم الحضارة الانسانية، وحجر أساس في الاجراءات القضائية بالعالم المتحضر، يجب ألا يخلو منها أي دستور، لأي دولة متحضرة.

فعندما يقرر الانسان أداء الشهادة على نفسه، أو على والديه وأقاربه، فهذا دليل على نمو حس العدالة والصدق لديه. وعليه ألا يسأل عن النتائج، وألا يتبع الهوى،

فتعرقل شفقته وهواه شهادته ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فا لله أولى بهما ولاتتبعوا الهوى﴾.

فإذا خاف من النتائج، فقد أعطاه ا لله الحق بالاعراض وعدم الشهادة، ولم يتوعده على إعراضه هذا ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا فإن ا لله كان بما تعملون خبيرا ﴾.

إن للانسان مطلق الحرية بأن يشهد ضد نفسه، انطلاقاً من حس العدالة لديه، وله أن يشهد ضد والديه أو أقاربه، لكن له أيضاً أن يعرض عن ذلك ويرفضه(١)

وننتقل إلى قوله تعالى:

- ﴿ .. أم كنتم شهداء إذ أوصاكم ا لله بهذا، فمن أظلم ممن افترى على ا لله كذبا ليضل الناس بغير علم، إن ا لله لايهدي القوم الظالمين ﴾ الأنعام ١٤٤.
- ﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن ا لله حرم هذا، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾ الأنعام ١٥٠.

---

(١) ونستنتج:

١ - لايجوز إرغام المتهم، أو دعوته للشهادة ضد نفسه، إلا إذا طلب هو ذلك علنا. وكل اعتراف أو أقوال تؤخذ بالقوة باطلة، وعلى الجهة المدعية تقديم البينات على دعواها، وليس الاعتراف.

٢ - تنبيه المتهم إلى أن كل مايقوله، سيؤخذ بمثابة شهادة منه على نفسه، وقراءة حقوقه عليه عند اعتقاله، هي من جوهر الاسلام، لأنه قد يغيب عنه ذلك أو لايعرفه.

٣ - لايجوز إرغام أحد، أو دعوته إلى الشهادة ضد والديه وأقاربه، إلا إذا طلب هو ذلك شخصيا.

٤ - عندما يتبرع الانسان بأداء شهادة أمام محكمة في قضية هو ليس طرفا فيها، فعليه أن يكون قواما لله وأن يشهد بالعدل ولو كان بينه وبين المتهم عداوات سابقة. هكذا نفهم قوله تعالى ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ المعارج ٣٣

بشهاداتهم ⟵ شهداء لله + شهداء بالقسط

قائمون ⟵ قوامون بالقسط + قوامون لله

تتحدث الآيتان عن أمر شائع في هذه الأيام، هو تحريم بعض الأشياء على الناس، ونسبته إلى الله تعالى، آخذين ذلك من كتب غير كتاب الله، ثم الحكم على الناس طبقاً لهذا التحريم، فنرسل فريقاً إلى الجنة و فريقاً إلى النار.

ونحن نرى أن الله وحده هو الأصل في التحليل والتحريم، وأنه وحده الذي يحلل ويحرم، أما الناس فيسمحون ويمنعون. ونرى أن الخلط بين العيب والحرام قد فشا، حتى أصبحنا لانفرق بينهما. ونراه سبحانه يحذرنا في الآيتين أن نأخذ الحرام والتحريم من مصادر غير كتابه حصراً. أما سماح الناس والمجتمع بأمور، ومنعهم لأمور، حتى لو جاء هذا المنع والسماح من النبي أو الصحابة (كما يزعم البعض) فهذا لاعلاقة له بالتحريم.

وعلى هذا، فنحن نفهم أن نطلب الشهادة من كل من يحرم أمراً لم يرد تحريمه في كتاب الله، وهو غير قادر عليها بدليل قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم). وهؤلاء الذين يضلون الناس بغير علم، وما أكثرهم في يومنا هذا، ويفتحون أبواب التحريم على مصراعيها بدعوى سد الذرائع حيناً، وبدعوى التقوى والحذر حيناً، وبدعوى المزاودة على الله حيناً، وينذرون من لايطيعهم بالنار وعذاب القبر، وكأن جهنم ملك لهم، هؤلاء هم المفترون الظالمون الذين خاطبهم سبحانه بقوله:

- ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ القلم ٣٥ ـ ٤٠.

كيف نفهم فعل شهد عند وروده في التنزيل الحكيم، وكيف نميز فاعله، هل هو شاهد أم شهيد؟

إن ذلك يتم من فهم سياق الآية. فقد ورد فعل شـهد ومشـتقاته في آيـات، نجـد لدى تأملها أن فاعل الفعل يمكـن أن يكـون شـاهداً، ويمكـن أن يكـون شـهيداً، وكأنـه يحمل المعنيين معاً. وأبرز مثال على هذا النموذج هو قوله تعالى:

- ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقـان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ..** ﴾ البقرة ١٨٥.

فمن شهد هلال رمضان، بمعنى أنه رآه مشاهدة، فهو شهيد على ولادة الشـهر. ومن أخبر بذلك معتمداً على شهادة الشهيد، أو معتمـداً علـى علـم وخـبرة (حسـابات فلكية) فهو شاهد على ولادة الشهر. وكلا الشهيد والشاهد في هلال رمضان مقبول.

أما الاصرار على فهم ظاهر اللفظ في التكليف، والاصرار على حصر فعـل شـهد في الآية بحدود الدلالة الحضورية، وأما اعتبـار قـدرة العلـوم الفلكيـة علـى معرفـة لحظـة ولادة الهلال، تخريصا لايخرج عن دائـرة كـذب المنجمـين، وأما اعتبـار القـائل بكرويـة الأرض كافرا، فهذا جهل يتناقض مع روح التنزيل، ويتعارض مع جوهر الاسلام.

لقد نزلت الآية في زمن، كان الاحتمال الوحيد القـائم فيـه لاثبات ولادة هـلال شهر الصوم، هو المشاهدة رأي العين. ولهـذا فقـد أتبـع سـبحانه ذلـك بأحكـام تضبـط التكليف ضمن الأطر المعرفية لزمن النزول. فجاءت أحكام (غم عليكم) وجاءت أحكام (يوم الشك) وغيرها. لكن الدقة العلمية في مجال الفلك وصلت إلى مرحلـة لامحـل فيهـا لأن يغم علينا بضباب أو بغيره، ولامجال معها للشك في بدء الصوم وانتهائـه، ولاعلاقـة لها بالتخريص والتنجيم واستنطاق الرمل وطاسات الزيت.

ثمة أمر آخر، هو أننا لو طبقنا قضية المشاهدة العينية الحضورية بحرفيتها الظاهرية، لما سرى التكليف بالصوم إلا على مشاهدي الهلال حصراً، بينما نرى الرسـول الأعظـم قد صام رمضان بدلالة رؤية غـيره لـه. فهـو يسـتدل بشـهادة الشـهيد، ليخلـص إلى أن

يشهد كشاهد أن الصيام قد وجب. ويوضح لنا هذا جانباً مهماً من جوانب الموضوع ، هو أن العلن شرط من شروط الشهادة. فالشهيد الذي لايعلن عما رأى وسمع ليس بشهيد، والشاهد الذي لايعلن ماأوصلته علومه وخبراته إليه ليس بشاهد.

مثال آخر عن فعل شهد، بمعنى الشهيد والشاهد معا، هو في قوله تعالى:

- ﴿ **والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ الفرقان ٧٢.

فالشهادة هنا، شهادة شهيد حاضر، وشهادة شاهد خبير.

ومن هنا نفهم أن أسماء الله الحسنى ظهرت بعد خلق الكون، وتجلت من خلال الوجود في الآفاق والأنفس. فعندما كان الله ولاشيء معه، كان شاهداً على نفسه بالوحدانية، وشاهداً على الموجودات قبل وجودها، وشهادته هنا معرفية. أما بعد وجود الموجودات، فقد تجلت فيها الأسماء الحسنى من سميع وبصير وشهيد، فهو شهيد على كل شيء، وشهادته في الأشياء والخلق والموجودات هي شهادة حضورية، بعد أن تشيأت. ولهذا فنحن لانجد اسم الشاهد بين أسمائه الحسنى.

نخلص من هذا كله، إلى أن الله سبحانه وتعالى شاهد منذ الأزل على احتمالات السلوك الانساني، شهيد على الاحتمال المعين الذي اختاره الانسان لنفسه. ومن هنا نفهم لفظة شاهدين في قوله تعالى ﴿ **وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ الأنبياء ٧٨.

وننتقل إلى القسم الثاني من الآيات التي ورد فيها فعل شهد، وفاعله الشهيد فقط، مثال ذلك قوله تعالى:

- ﴿ **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم ..** ﴾ الحج ٢٨.

فالخطاب هنا عن الحج، أي السفر إلى بيت الله الحرام والطواف والوقوف بعرفة، وهذا لايكون إلا حضورياً. فالذي شهد الحج ومناسكه في التلفزيون ليس بحاج، والشهادة في (ليشهدوا) بالآية، هي شهادة شهيد وليس شهادة شاهد.

وقوله تعالى:

- ﴿ **قال فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ الأنبياء ٦١.

وواضح أن الشهادة في (يشهدون) هي شهادة شهيد، بدلالة قوله تعالى (على أعين الناس).

وقوله تعالى:

- ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام** ﴾ البقرة ٢٠٤.

والكلام هنا عن شهادة الله، وبما أن الله على كل شيء شهيد، فالشهادة في (يشهد) شهادة شهيد هو الله.

وقوله تعالى:

- ﴿ **حتى إذا ماجاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** ﴾ فصلت ٢٠.

ولا نعتقد أن هناك شهادة أكثر حضورية من هذه المذكورة في الآية. لأنها اقترنت بالسمع والبصر والحس، فجاءت نموذجاً مثالياً لشهادة الشهيد.

أما فعل شهد، وفاعله الشاهد، فنأخذ قوله تعالى:

- ﴿ .. **وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله** .. ﴾ الأحقاف ١٠.
- ﴿ .. **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل** .. ﴾ يوسف ٢٦.

وواضح في الآيتين نصاً وصراحة أن الشهادة فيها شهادة شاهد.

وقوله تعالى:

- ﴿ .. قالوا شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ الأنعام ١٣٠.

والشهادة في (شهدنا) و (شهدوا) هي شهادة شاهد، لأنها شهادة على النفس بالكفر، والكفر موقف، ولأنها ليست شهادة أمام طرف آخر تمت الشهادة أمامه. فإذا عرفت على نفسك إلى الغير فأنت شاهد، وإذا شهدت على نفسك أمام الغير فأنت شهيد.

وقوله تعالى:

- ﴿ وإذ أخذ ا لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ آل عمران ٨١

واضح في الآية أن الميثاق ميثاق معرفي، وليس ميثاقاً حضورياً، ليفهمنا أن الاسلام بدأ بنوح (ع) وختم بمحمد (ص)، وأن الرسالة المحمدية جاءت مكملة لكل الرسالات التي قبلها، ومصدقة وخاتمة لها. وهنا يكمن أيضاً سر القصص القرآني الذي يظهر لنا بوضوح وجلاء تطور الاسلام وتراكمه من نوح (ع) إلى محمد (ص). ولما كان الميثاق معرفياً، فالشهادة معرفية، إذ لم يكن هناك أصلاً خلق وأنبياء ورسل، ولهذا قال (فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين). كل هذا ليبين ا لله لنا أن التطور من المملكة الحيوانية إلى الانسانية، وأن الرقي في المعارف والتشريع، خطة مسبقة وإرادة من رب العالمين في رسم درب الحياة على شكلها هذا .

وأخيرا في قوله تعالى:

- ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم ا لله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من ا لله، وما ا لله بغافل عما تعملون ﴾ البقرة ١٤٠.

فالخطاب موجه في الآية إلى اليهود والنصارى الذين جاؤوا بعد موسى وعيسى (ع)، والحديث عن إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط، ممن كانوا قبل المعنيين بالخطاب. ولهذا فالشهادة في الآية هي شهادة شاهد، أولاً لقوله ﴿ **أأنتم أعلم أم ا لله** ﴾ ثانياً لأنه أتبعها باتهامهم بكتمان المعلومات التي تفصح عن حقيقة هؤلاء المذكورين من الرسل والأنبياء.

٤- جدل الشاهد والشهيد

يقول تعالى في تنزيله الحكيم:

- ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون** ﴾ الزمر ٦٩.
- ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، وماجعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى ا لله، وما كان ا لله ليضيع أيمانكم، إن ا لله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ البقرة ١٤٣.
- ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم ا لله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء، وا لله لايحب الظالمين** ﴾ آل عمران ١٤٠.
- ﴿ **وجاهدوا في ا لله حق جهاده، هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ..** ﴾ الحج ٧٨.

- ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا ﴾ النساء ٦٩.
- ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ الرعد ٩.

لقد شرحت مفهوم الغيب والشهادة(١) ، وقلت بأنه مفهوم منسوب إلى غير الله (الانسان) فعند الله لايوجد غيب وشهادة. فعالم الشهادة هو هذا الوجود المشهود، واليوم الآخر جزء من عالم الغيب، ولكنه معرفة في علم الله وصفه لنا. ولذا فقد سمى نفسه سبحانه عالم الغيب والشهادة. ولما كان هو خالق قوانين الجدل (التسبيح)، فإنها لاتنطبق عليه، فهو متكبر متعال عن هذه القوانين، ولهذا أتبعها بقوله (الكبير المتعال).

أما المعرفة الانسانية فتقوم على الجدليات التالية:

١ - جدلية الغيب والشهادة.

٢ - جدلية الشاهد والشهيد.

جدلية الغيب والشهادة

عندما تمت أنسنة الانسان كان عالم الشهادة، في معظم معظمه، مجهولاً عنده، عدا ماهو مشخص مباشر أمامه. وكان عاجزاً عن تفسير كل الظواهر الطبيعية. صحيح أن بعضها كان ماثلاً أمامه يراه ويسمعه ويحسه، لكن معظمها كان غائباً عنه، وتفسيرها كلها كان غيباً أيضاً.

ومع تقدم الانسان والانسانية، بدأ كثير من الغيبيات ينتقل إلى عالم الشهادة. وبما أن الشهادة نوعان (شهادة شهيد وشهادة شاهد) فقد بدأ هذا الانتقال بشهادة الشاهدين (النبيين)، الذين جاءتهم معلومات عن الله غائبة عنهم وعن معاصريهم، فكانوا شاهدين مثلاً على وحدانية الله، إذ لايمكن لشهيد أن يرى ويسمع وحدانية الله

(١) - "الكتاب والقرآن / قراءة معاصرة"، دار الأهالي بدمشق ١٩٩٠، ص ٢٦٦ - ٢٦٩.

ثم يشهد بذلك شهادة حضور. ومن هنا فإن كل من شـهد أن لاإلـه إلا ا لله منـذ نـوح وإلى أن تقوم الساعة، فشهادته شهادة شاهد، وليس شهادة شهيد.

هكذا كانت بداية الانتقال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، عـن طريـق نبـوات الأنبياء الشاهدين. حتى محمد (ص) في نبوته بالقرآن والقصص كان شاهداً. والذين معه كانوا شاهدين. أي صدقوه بدون شـهادة شـهيد. ولهـذا أرسـل ا لله مـع رسـله وأنبيائـه دلائـل ماديـة (معجـزات) ليشـهدها النـاس حضوريـاً، وليصدقـوا النبـوات وبالتـالي الرسـالات . أي لتصـديق شـهادة الشـاهد بالمشـهود (البينـات المباشرة).

لكن خاتم النبيين كـان لـه وضـع خـاص. فقـد كـانت نبوتـه تصديقـاً لرسـالته، وكانت هي البينة المباشرة. إلا أن كل الأخبار التي جـاءت بهـا نبوتـه كـانت مـن عـالم الغيب بالنسبة للناس، ولم تأت بأشياء مشهودة يكون الناس شهداء عليها. وبقيت مهمة تحويل مهمته من شاهد إلى مشهود، أي من شهادة شاهد إلى شهادة شهيد، هـي مهمـة الناس الذين يأتون بعده، ليقدموا مصداقية هـذه النبـوة بشـهادة شـهيد وشـاهد. ولهـذا، فالشهادة باقية لاتنقطـع إلى أن تقـوم السـاعة. ولهـذا فنحـن ننظـر إلى النبـوة والشـهادة كعناصر في جدليـة الغيـب والشـهادة، وهـي المحـرك المعـرفي للانسـانية في علـوم الآفـاق (الكونيات) والأنفس (العلوم الانسانية). أي أن الأنبيـاء والشـهداء هـم محركـو جدليـة الغيب والشهادة في المجتمعات الانسانية.

لهذا، فإن القوة المحركة لتقدم الانسان بعد الأنبياء هي جدلية الشاهد والشهيد في علوم الآفاق والأنفس. التي تنقسم إلى مرحلتين:

الأولى ـ جدلية الشاهد والشهيد في عصر النبوات، حتى محمد (ص).

الثانيـة ـ جدلية الشاهد والشهيد في عصر مابعد ختم النبوات، أي بعد محمد (ص).

المرحلة الأولى :

لقد بدأ الانسان بالابتعاد عن المملكة الحيوانية بعد الأنسنة، وكان بحاجة إلى قفزات معرفية لوضعه على مسار التقدم والتطور العلمي والاجتماعي، ومعرفة الوجود بالتدريج، وبالتالي انعكاس هذه المعرفة على العلاقات الاجتماعية والأخلاقية لهذه المجتمعات. فكان أن جاءت هذه المعرفة عن طريق النبوات، وجاء التشريع (العلاقة بين الناس) عن طريق الرسالات. وجاء الأنبياء والرسل شاهدين للنبوات التي تأتيهم، أي قدموا شهادات معرفية جاءتهم عن طريق الوحي. فمن كان معهم كان شهيداً لهم وكانوا هم شهداء لمن كان معهم.

لقد زود تعالى أنبياءه ورسله ببينات مادية مشهودة. سماها التنزيل الحكيم بينات، وكل من شاهد هذه البينات من الناس، كان شهيداً لها، وشاهداً على ذلك بالنبوة والرسالة.

كان الرسل بحاجة إلى بينات أكثر من الأنبياء، لأن الرسول شاهد للرسالة، فإذا صدقه الناس كانوا شاهدين معه على الرسالة، وليسوا شهداء. والناس في هذه الحالة قسمان:

قسم شهد بينات الأنبياء حضورياً فهو شهيد لهم ولها، وشهد بالرسالات تصديقا، وهؤلاء هم الصديقون، الصحابة من محمد (ص)، والحواريون من عيسى (ع). أي أن الصديقين هم الناس الذين عاصروا الأنبياء والرسل، شهداء على النبوة شاهدين على الرسالة.

فالصحابي الذي آمن بنبوة محمد (ص) حضوريا، لأنه رأى البينات رأي العين، صدق ماجاء في رسالته دون بينة، وآمن برسالته غيباً دون دليل. فقد قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك ا لله أحسن الخالقين**﴾ المؤمنون ١٢ ـ ١٤.

فآمن الصحابة، وكل من عاصر الرسول، بما جاء في الآية إيمان تصديق، وكانت شهادتهم لها شهادة شاهد، إذ لم يكن علم الجنين في زمنهم قد تطور ليروا ذلك رأي العين، وتكون شهادتهم شهادة شهيد. و لهذا فقد قرن الصديقين بالنبيين في النساء ٦٩.

أما القسم الثاني، فهو الذي لم يشهد حضوريا بينات النبوة، وصدق بنبوة محمد (ص) دون بينة مشهودة بالعين، فشهادته بالنبوة شهادة شاهد، وشهادته بالرسالة شهادة شاهد. وهذا القسم رغم أنه عاش في عصر النبوة إلا أنه لم يلتق بالنبي ولم يره رأي العين، ومثال هذا القسم، أهل اليمن وقد جاءهم معاذ بن جبل، وأهل مصر وقد جاءهم دحية الكلبي.

وأما الشهداء الذين قرنهم التنزيل الحكيم بالنبيين في آية الزمر ٦٩، والذين وصفهم الرسول الأعظم بأحبابه في حديثه الشريف، والذين شهدوا لنبوة محمد، دون أن يروه ويروا بيناته، شهادة شهيد، وشهدوا لمصداقية رسالته شهادة شاهد. نقول وأما هؤلاء فهم الذين عاشوا بعد عصر النبوة، شأننا مثلاً، وهم من سنتحدث عنهم في المرحلة الثانية. ولهذا فنحن نرى اليوم أنه لايكفي التصديق بنبوة محمد (ص)، بل لابد من تقديم البينات المشهودة على مصداقية الرسالة، تماماً كما فعل العلماء الذين وضعوا أسس علم الجنين ، فجاء عملهم هذا تصديقاً حضورياً يفقأ العين ، لما ورد في سورة المؤمنون. وإقامة البينات المشهودة لايتم إلا بالعلم و التأويل .

لذا فإن المرحلة الأولى للجدل في زمن النبوات سيطرت عليها جدلية:

(الأنبياء ←——→ الصديقين)　　　←——　　　(شاهد ←——→ مصدق)

المرحلة الثانية:

مرحلة مابعد النبوات ومابعد محمد (ص).

كان السؤال المحير دائماً، بعد نزول الرسالات السماوية، أو ظهور الأديان الأخرى، هو في استمرارية النبوة والرسالة بعد موت النبي والرسول. لقد أجابت اليهودية على هذا السؤال بالأحبار، كنوع من الاستمرارية. وأجابت النصرانية على هذا السؤال بالآباء، كشكل آخر من أشكال الاستمرارية. وليس البابا عند الكاثوليك إلا استمرارية لحضور المسيح على الأرض.

وقد انطرحت هذه المشكلة عند أتباع محمد (ص)، فتم حلها عند الشيعة بمفهوم الإمامة وعصمة الإمام، فجعلوا من الإمام استمراراً للوجود النبوي على الأرض. كما تم حلها عند السنة والمتصوفة بمفهوم البدل والقطب والغوث حيناً، أو بمفهوم اجماع الصحابة وعدالتهم حيناً آخر. وقدم الشيعة تبريرات مختلفة تدعم مفهوم استمرارية النبوة في الأئمة، لكنها كانت كلها تبريرات لاعلاقة لها بالتنزيل الحكيم، وقدم أهل السنة تبريرات مختلفة، تحت شعار "العلماء ورثة الأنبياء" ، ولووا معنى العلم والعلماء حتى بات يشمل رجال الدين، وبتعبير أدق موظفي المؤسسة الدينية. لكن هذه التبريرات كلها كانت بدورها لاعلاقة لها بالتنزيل الحكيم، فالذي يعلّم - بزعمه - الناس الصلاة ومفسداتها والصوم وأركانه والحج وشعائره والزكاة ونصابها، ليس بعالم، لأن هذه أمور جاءت سهلة مبسطة أمام كل الناس.

فماذا يقول التنزيل الحكيم ذاته عن هذه الاستمرارية، وهو لابد أن يقول، لما للموضوع من أهمية وعمق أثر، أي ماذا بعد محمد (ص)، وهو خاتم الأنبياء والرسل ؟ ومن سيقود البشرية بعد ختم النبوات والرسالات وانقطاع الوحي ؟

ونحن نرى أننا حين نفهم الشهادة والشاهد والشهيد، نعلم تماماً ماهو مطلوب من الناس بعد الأنبياء والرسل، وبالذات بعد محمد (ص).

لقد طلب الله من الناس، بعد محمد (ص)، أن يكونوا شهداء إضافة إلى كونهم شاهدين. وأصبح لزاماً على الناس وهم المسلمون، وعلى أتباع محمد (ص) وهم

المؤمنون، أن يقدموا الدليل المادي المرئي المسموع (شهادة الشهيد) أو الدليل العقلي المعرفي (شهادة الشاهد) على مصداقية رسالته ونبوته.

وهذا الدليل بشقيه، كان مفقوداً عند الصحابة والتابعين (الأرضية المعرفية التي تدعم شهادة الشاهد والتطور العلمي الذي يساند شهادة الشهيد). فبعد أن انتهى عهد النبوات، وتقلص عهد الصديقين، تأتي الشهادة مصدقة للنبوة، لتصبح في نفس الوقت استمرارية التقدم العلمي والاجتماعي للجنس الانساني، الذي لم يعد بحاجة إلى وحي (نبوة ورسالة)، ولكنه بحاجة إلى شهداء. فالشهداء هم استمرارية النبوة والرسالة ولكن بدون وحي، بعد أن أصبح بمقدور الانسان أن يقدم الدليل على النبوة والرسالة (مادي وعقلي). ليس طفرة واحدة، بل خلال تطور تاريخي يمتد إلى أن تقوم الساعة: لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

بعد محمد (ص)، يبقى الانسان شاهداً على وحدانية الله وربوبيته شاهداً على اليوم الآخر. فالإيمان بالله واليوم الآخر إيمان معرفي وليس إيماناً حضورياً، نشهده كشاهدين ونسلم به كمسلمين. ومن هنا نفهم قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** .. ﴾ البقرة ١٤٣، وقوله تعالى ﴿ .. **ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** .. ﴾ الحج ٧٨.

أما ماعدا ذلك، فكله يخضع للبحث والعقل (شاهد)، وللحواس (شهيد)، أي يخضع للمعرفة الحسية والعقلية.

فما هي جدلية الشاهد والشهيد، التي هي أساس الحياة الانسانية قاطبة بدون استثناء، وأساس اكتشاف أسرار الكون والانسان والمجتمعات، التي لها وجود حقيقي موضوعي، لكنها غائبة عن الناس؟

أ ـ جدلية الشهيد الشاهد :

١ ـ عندما اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية، كانت من عالم الغيب، فنقلها إلى عالم الشهادة، وصار شهيدا عليها، ثم قدم شهادته بما رأى وسمع للناس. أما الناس الذين لم يشهدوها معه شهادة حضورية، فقد صدقوه وشهدوا له شهادة شاهد معرفية. وكان لهذا معنى تطبيقي، إذ قاموا بدراسة الدورة الدموية وتركيبها، وتوسعوا فيما رآه وشاهده ابن النفيس، وحدث من جراء ذلك تقدم في علم الطب والتشريح، وصلح حال الناس من هذا التقدم واستفادوا منه، فدعم ذلك تصديقهم لشهادته. لقد قدم ابن النفيس بأمانة شهادته كشهيد، فتطابق عند الناس ماهو موجود في الأذهان، مع ماهو موجود في الأعيان، واستفاد الناس، وأثمرت شهادته بصلاح أمرهم، وهؤلاء هم الصالحون الذين استفادوا من شهادة الشهيد ثم من شهادة الشاهد، فصلح أمرهم.

٢ ـ عندما يبحث عالم الآثار وينقب في الأرض، يكتشف فيها آثاراً وبقايا من أبنية أو ألواح أو رسوبيات، فنقول إن هذا العالم شهيد الآثار. فهو قد رآها ولمسها حضورياً. لكنه عندما يصطحب مكتشفاته إلى المختبر، لتحليلها، ومعرفة عمرها، والاستدلال بها عن كيفية حياة الناس في وقتها، نقول إنه شاهد على العصور التي أتت منها هذه الآثار. فهو يستطيع تقديم صورة عن حياة أناس، رغم أنه لم يعش معهم، أي لم يكن شهيداً عليهم. ومن فحص الآثار (شهيد) وصل إلى علم أحوال الناس الذين خلفوها، وأصبح شاهداً لهم، فهو شهيد لآثارهم بعد موتهم، شاهد على أحوالهم في حياتهم.

٣ ـ مراسل صحفي حضر معركة، وعرض نفسه للخطر، ليصورها تصويراً حضورياً، فهو شهيد المعركة (وليس قتيلها كما يتصور البعض). لأنه يحضر المعركة ويكتب أخبارها وينشرها على الناس، فيعلموا بها، ويصبحوا شاهدين عليها. ولهذا نرى

أن الصحفيين الذين يتابعون الأحداث حضورياً، ويسافرون للحصول على الحقائق المشهودة، هم من أشرف الشهداء، لأنهم قدموا شهادتهم لكل الناس.

لقد قلنا إن الصالحين هم الذين يستفيدون من شهادة الشهيد، ويحولونها إلى معارف تصلح بها أمورهم وأحوالهم. فإذا سأل سائل، ماحكم الشهيد الذي يقدم شهادته الحضورية للناس صادقة، لكنهم لايستفيدون منها ؟ أقول نحن هنا أمام حالتين:

إما أن هذه الشهادة سابقة لزمنها، وتمثل قفزة معرفية، لم يفهمها الناس من المعاصرين، فيستفيدوا منها، لكن الناس في المستقبل سيستفيدون منها، فيبقى الشهيد شهيدا، والصالحون هم المستفيدون من شهادته.

أو أن ماقدمه مفهوم باد للعيان، يمكن لمن حوله فهمه واستخدامه لصلاحهم، لكنهم لايريدون ذلك، فهم كالأنعام بل هم أضل. وهذا يذكرنا بقوله تعالى ﴿ **إنك لاتهدي من أحببت ولكن ا لله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ القصص ٥٦.

فقد اعتاد القائلون بالجبر أن يستشهدوا بهذه الآية حجة على مايقولون به. وهم يفهمون من الآية أن فاعل (يشاء) يعود على ا لله سبحانه. تماماً كما هو الحال في قوله تعالى، وفي آيات أخرى كثيرة:

- ﴿ **إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ..** ﴾ الأعراف ١٥٥.
- ﴿ **وماتشاؤون إلا أن يشاء ا لله رب العالمين** ﴾ التكوير ٢٩.
- ﴿ **.. ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ..** ﴾ الشورى ٥٢.
- ﴿ **.. ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء ا لله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ الأنعام ١١١.

فوصلوا بذلك إلى أن مشيئة ا لله سابقة قاهرة، سواء شاء الانسان أم لا، وإلى أن المهتدي مسعود مهما فعل، وأن الضال شقي مهما فعل، بعد أن سبقت مشيئة ا لله في ضلال هذا، وهدى ذاك. وكان طبيعياً بعد ذلك كله أن يؤدي بهم قولهم هذا، إلى عبثية

يوم الحساب، وإلى أن يتحول الثواب والعقاب في اليوم الآخر إلى مسرحية معروفة النتائج مسبقاً، تعالى الله عما يصفون.

ونحن نرى، في عجالة ايجازنا هذا، أن المشيئة الالهية لو كانت محسومة مكتوبة سابقة قاهرة، لوجب أن يأتي فعل المشيئة بصيغة الماضي دائماً. كأن يقول مثلا في آل عمران ٢٦:

- قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من شئت، وتنزع الملك ممن شئت، وتعز من شئت، وتذل من شئت.

لكننا نجدها في التنزيل الحكيم بصيغة الحاضر:

- ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير**﴾ آل عمران ٢٦

ونفهم من هذا أن المشيئة الالهية ليست محسومة جامدة، قاهرة سابقة، بل مرنة متحركة متروك أمر حسمها للحاضر بمعطياته التي من بينها عمل الانسان نفسه.

ونرى أن الذي يبتغي وجه الحق والهدى، يبحث عنه، وكله رغبة في أن يجده.

ونرى أن فاعل (يشاء) في القصص ٥٦ يعود على (من)، وإلا فكيف نفهم قوله تعالى:

- ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ولتسألن عما كنتم تعملون** ﴾ النحل ٩٣.

هنا يستحيل أن يكون فاعل (يشاء) هو الله، وإلا لاستحال سؤال الانسان عن عمله .

ب ـ جدلية الشاهد الشهيد :

هناك كثير من الاكتشافات العلمية، تم تأسيسها العقلي نظريا، ثم تلا ذلك إجراء التجارب عليها. والذي يقدم الاكتشاف نظريا هو شاهد، أما الذي يجري التجارب، ويثبت صحة الاكتشاف عمليا، فهو شهيد.

١ - عندما وضع أينشتاين نظريته النسبية، وقدمها للناس كمعلومات، كانت شهادة شاهد، أما مجموعات العلماء الذين أجروا التجارب لقياس سرعة الضوء، وإثبات أنه ينحرف عندما يمر بجانب الشمس، فهم الشهداء، والشاهد هنا سبق الشهيد.

وأما من أخذ شهادة الشاهد وشهادة الشهيد واستفاد منها تطبيقياً في تقدم الانسانية وتطور العلوم وصلاح أمور الناس، فهؤلاء هم الصالحون. أي أن جدلية (الشهداء ← الصالحون) هي الموجه للشهداء والمحرض لهم على العمل، تماماً مثلما أن جدلية (الأنبياء ← الصديقون) هي الداعم الأساسي للأنبياء، لحاجتهم إلى من يصدقهم ويقف ويتحمل الأذى معهم.

٢ - كل علماء الرياضيات يعتمدون على عالم العقل (المعقول)، ويقدمون نظرياتهم الرياضية بدون مخابر، فهم لهذا شاهدون على مايقدمونه للناس. ثم يأتي بعد ذلك علماء الفيزياء والطبيعة والهندسة وكافة العلوم الأخرى ليأخذوا هذه المعادلات، ويضعوا لها معاني فيزيائية لظواهر الطبيعة، ويجروا عليها التجارب، فتظهر وتثبت مصداقية هذه المعادلات.

وعلماء الرياضيات والفلاسفة شاهدون، وعلماء الطبيعة والفيزياء هم شهداء، أما علماء الفيزياء التطبيقية الذين أخذوا ماسبقهم ووظفوه فيما ينفع الناس فهم الصالحون.

٣ - كان القول بكروية الأرض شهادة شاهد، ثم جاء ماجلان، فكان شهيداً على رحلته حول الأرض، مؤيداً لشهادة الشاهد الذي سبقه. أما الذي طار إلى الفضاء، ورأى بأم عينه الأرض كروية، فهو الشهيد على كروية الأرض. وبعد أن قدم لنا شهادته مدعومة بالصور، وعرض علينا على شاشة التلفزيون مارآه، ورأيناه نحن بدورنا، فقد أصبحنا شهداء على كروية الأرض، وكنا قبل ذلك شاهدين.

وهكذا نرى لدينا الجدليات التالية:

جدلية النبيين ـ الصديقين

↓ ↓

جدلية الشهداء ـ الصالحين

جدلية الشاهد ـ الشهيد

جدلية الشهيد ـ الشاهد

يبقى لدينا أمر واحد بعينه، هو وحدانية الله، لايمكن أن يخضع لجدلية الشاهد الشهيد أو الشهيد الشاهد. فما دامت الوحدانية الالهية لاتخضع للمشاهدة رأي العين، فستبقى شهادتنا بوحدانية الله شهادة شاهد إلى يوم يبعثون، دون أن تتطور لتصبح شهادة شهيد .

لقد قدم لنا التنزيل الحكيم مثلاً حياً على حدلية الشاهد ـ الشهيد عند ابراهيم الخليل (ع)، الذي كان شاهداً على إحياء الله الموتى، وطلب أن يكون شهيداً. قال تعالى:

- ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، و اعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ البقرة ٢٦٠.

ونفهم من قوله (قال أو لم تؤمن قال بلى) أن ابراهيم كان شاهداً على إحياء الله للموتى. كما نفهم من قوله (رب أرني كيف تحيي الموتى) أنه يطلب أن يكون شهيداً لهذا الإحياء حضورياً. ونفهم من باقي الآية أن الله استجاب لطلب خليله كرماً وفضلاً، فصار بذلك هو الشاهد الشهيد. وبهذا أصبح ابراهيم أباً للشهداء إضافة إلى كونه أب للشاهدين الأنبياء. ولكن العلاقة الجدلية بين الشاهد الشهيد والشهيد

الشاهد، علاقة حنيفية، ففي مسيرة التطور الانساني تظهر أخطاء في هذه العلاقات، يقوم الشاهدون الشهداء من التابعين بتصحيحها، ويحنفون بها عما قبلها إلى مسارها الصحيح. ومن هنا كان ابراهيم أبو الحنفاء. أي أن إمامة ابراهيم للناس التي نص عليها قوله تعالى ﴿ **وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماما..**﴾ البقرة ١٢٤. هي إمامة تتجلى في شاهدية إبراهيم وشهيديته وحنيفيته.

فالدين الاسلامي يقوم على التسليم با لله واليوم الآخر ← شاهد. والوجود الحضوري (عالم الشهادة) يقوم على جدلية الشاهد الشهيد والشهيد الشاهد. والسلوك الفردي الانساني يقوم بتطور حنيفي غير مستقيم على جدلية الحسنة السيئة. وقد شرحت ذلك تفصيلا في مكانه من هذا الكتاب فانظره.

ومن هنا، فالصلاة والزكاة — أي الشعائر عامة — لاتدخل في مبحث الشاهد الشهيد أو الشهيد الشاهد، لأنها لاتحمل الطابع الحنيفي، فهي ليست جدلية. ومن هنا أيضا نفهم قوله تعالى ﴿ **.. ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ..** ﴾ أي في الايمان با لله واليوم الآخر تسليماً. ثم تأتي تتمة الآية لتورد أهم أركان الايمان غير الحنيفية ﴿**..فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا با لله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ الحج ٧٨.

كما نفهم من الآية أن علينا كتابعين لمحمد (ص)، بعد انقطاع النبوة والرسالة، أن نتابع الاستمرار بالشهادة، وتقديم البينات المادية والعقلية على نبوته ورسالته، لنحتل مركز الصدارة (أمة وسطا) ولنصبح إذا أخذنا هذه المهمة على عاتقنا (شهداء على الناس)، ويكون الرسول عند ذلك شهيداً علينا.

والسؤال الآن هو: هل فعلنا نحن المؤمنين ذلك ؟ والجواب: كلا !! بل الذي فعله أناس غيرنا من ملل تؤمن با لله واليوم الآخر. أما المؤمنون أتباع محمد (ص) فقد اكتفوا

ـ بعد وفاته ـ بممارسة أركان الايمان (الصلاة ــ الزكاة ــ الحج) التي يكفيها شهادة الشاهد، وتركوا شهادة الشهيد لغيرهم من الأمم.

ونقرأ قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ..** ﴾ الزمر ٦٩. ونفهم لماذا أسقط في هذا المقام الصديقين والصالحين، وأبقى على النبيين والشهداء.

فالصديقون هم غالبية مجتمع الأنبياء وعامته، والأنبياء هم الخاصة، وهذا في زمن النبوات، أما بعده، فالصالحون هم العامة والشهداء هم الخاصة، وقد تم في يوم القيامة عند الحساب اسقاط العامة (الصديقين والصالحين)، والإبقاء على الخاصة (النبيين والشهداء)، الذين جيء بهم من دائرة أخرى غير دائرة العامة، دلالة على أنهم لايبعثون مع العامة.

ولما كانت مهمة النبيين والشهداء تقديم الشهادة على العامة، وقد قدموها، فقد تلا ذلك بالقول (وقضي بينهم بالحق ووفيت كل نفس ماكسبت). وهؤلاء هم الأشهاد الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى:

- ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ هود ١٨
- ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ غافر ٥١.

وبما أن عهد النبوات وعصر الوحي قد انتهى، وبقيت الشهادة، فقد صدق من قال: الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر.

أصبح بإمكاننا الآن أن نوضح أسس العقيدة الاسلامية:

١ ـ بالنسبة للوجود الكوني المادي الحالي، فالوجود فيه سابق الفكر، أي أن الشهيد سبق الشاهد. لأن المعلومات الأولى تأتي عن طريق السمع والبصر والفؤاد، طبقاً

لقوله تعالى ﴿ **وا لله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ النحل ٧٨. ثم تأتي مرحلة التطور: شهيد ← شاهد تتحول فيها الحضورية بالسمع والبصر إلى معلومات وخبرة. لتأتي بعدها مرحلة تطور أخرى: شاهد ← شهيد، يبرهن فيها الانسان رأي العين ماتم التوصل إليه بالعلم والخبرة .. وهكذا !!

أي أن أساس العقيدة الاسلامية فيما يتعلق بالوجود المادي والاجتماعي (الآفاق والأنفس) هو جدلية بين الوجود المشهود في الأعيان، وصور الموجودات في الأذهان التي تعتمد على التحليل والتركيب (الفكر والعقل).

الشهيد ← الشاهد	المادية العقلانية: وتعتمد على الانتقال من المشخص الجزئي إلى الكلي بواسطة الفكر والعقل (الاستقراء).
الشاهد ← الشهيد	العقلانية المادية: وتقوم على تقديم البينات المادية الجزئية على القوانين الكلية العقلية.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم..** ﴾ الحج ٥.

يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ← قانون كلي يعتمد على الشاهد

↓

فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة .. ← قانون جزئي مادي مشهود يعتمد على الشهيد

أي

البعث ← **قانون التطور** **شاهد ـ شهيد**

قانون التطور ← **البعث** **شهيد ـ شاهد**

وبما أن المعرفة تبدأ بالسمع والبصر والفؤاد، وهذه هي أدوات الشهيد، فقد قرن سبحانه الشهداء مع الأنبياء، ولم يذكر الشاهدين، لأنه بدون مشهود لايوجد شهيد، وبدون شهيد لايوجد شاهد. وهذه العلاقة الجدلية الحنيفية بين الشاهد والمشهود هي أساس تطور المجتمعات الانسانية قاطبة في كل شيء.

لهذا نرى أن أساس العقيدة الاسلامية، بالنسبة للوجود المادي والاجتماعي، يتجلى في جدليتين:

١ ـ المادية (المشهود قبل الشهداء) ← العقلانية (الشاهد) "وتعتمد على الاستقراء من المشخص الجزئي إلى المجرد الكلي"

٢ ـ العقلانية (الشاهد) ← المادية (المشهود) "وتعتمد على تقديم البينة على العام العقلي بالخاص المادي الجزئي"

كما يتجلى في حنيفية هاتين الجدليتين. والذي يحدد الحنيفية (التطور والتحول) هو مصداقية هذا النتاج المادي العقلاني ـ العقلاني المادي في صلاح أمور الناس (الفرد والمجتمع). ومن هنا نفهم مراده تعالى في قوله: ﴿..**كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض** ..﴾ الرعد ١٧.

أي أن مصداقية النبوات كبينات للرسالات لاتظهر إلا من خلال التطور التاريخي منذ محمد (ص) إلى أن تقوم الساعة. أي أن التاريخ فيه مصداقية كلام الله. هذه المصداقية التي لايحكمها قول صحابي أو تابعي أو فقيه.

٢ ـ بالنسبة للوجود الالهي واليوم الآخر. فيقوم على الشاهد لاعلى الشهيد، أي أن علينا تقديم الأدلة المادية على مصداقية نبوة محمد (ص)، بتأويل آيات القرآن من التنزيل الحكيم، لدعم شهادة الشاهد بوحدانية الله، وبالوحي المنزل على رسوله، وهذه الأدلة هي كونية تاريخية علمية اجتماعية. وبهذا وحده نصبح شهداء على مصداقية نبوته

ورسالته، ولكن نبقى شاهدين لله بالوحدانية ولمحمد (ص) بالرسالة، ولمن قبله من الأنبياء والرسل. أي يبقى الايمان با لله واليوم الآخر مسلمة تدخل بصاحبها دائرة الاسلام. فالشاهد على وحدانية ا لله واليوم الآخر مسلم شاء البعض أم أبى. اقرأ معي قوله تعالى:

- ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ البقرة ٦٢.

أي أن العمل الصالح الذي ينفع الناس، ويؤدي إلى صلاح المجتمعات، هو الذي يقدم البينات المادية والعقلانية التي تدعم مصداقية الرسالة والنبوة، وبالتالي تدعم الايمان با لله واليوم الآخر. لكن المطلوب أصلاً وأولاً، هو هذا الايمان التسليمي القائم على شهادة شاهد، با لله واليوم الآخر.

يبقى أمامنا أخيراً، أن نوضح أن جدلية الشاهد الشهيد، وجدلية الشهيد الشاهد، قد لاتتجليان في زمن واحد ومرحلة بعينها. فإذا التزمنا بمقطع زمني محدد من سلم التطور، وبمرحلة معينة منه، نجد لدينا جدليتين إضافيتين هما: جدلية الشاهد الشاهد، وجدلية الشهيد الشهيد.

أ - **جدلية الشاهد الشاهد** : هي جدلية تقوم على الخطا والصواب. فقد يعتمد شاهد أول في شهادته على معطيات بعينها، ويأتي شاهد ثان لنفس الظاهرة في نفس الفترة الزمنية، فيعتمد في شهادته على معطيات أخرى أقل أو أكثر، أصح أو أدق، فيصل الشاهدان إلى نتائج مختلفة فيما بينها، متعارضة أحياناً. وهنا يكمن جدل الخطأ والصواب الناتج عن اختلاف زاوية رؤية الأشياء في زمن واحد ضمن أدوات معرفية واحدة. أما مع اختلاف الزمن واختلاف الأدوات فجدل الخطأ والصواب يقوم عليهما أو على واحدة منهما. ولهذا نرى أن كل المؤتمرات العالمية في العالم، وكل مجالس العلوم

فـــي الدنيـــا ، تقـــوم على جدلية الشاهد الشاهد، وهي ضروريـة جـدا لفـرز الخطأ من الصواب، وبدونها لاينكشف الخطأ.

ب - جـدلية الشهيد الشـــهيد : و تقـــوم علـــى الصدق والكـذب. ويدخـل فـــي ذلـــك خطـــأ الحـــواس أو خطـأ المشـاهدة. وهنـا تكمـن جدليـة أخلاقيـة في الصـــدق و الكـــذب، وجـــدلية معـــرفية فـــي مصـــداقية آليـــة المشـــاهدة (الأذن ، العين ، الحس ، مكبرات الصوت ، المجهـــر ، التلسكوب .... إلخ). ومـن أجـــل هـــذا تعقـــد المؤتمرات و تقـــام المعـــارض، لعرض تقدم الأجهزة الـــعلمية و المخبريـة. ويكمن فـــي جـدليـــة الصـــدق و الكـــذب رأس الفضائل الأخلاقيـة كلـــها، وهـــو الصدق. فـفـي جـدليـــة الشهيد الشـهيد يمكـن كشـف الكـــذب بســـهولـــة ، أمـــا فـــي جـدليـــة الشـاهـد الشـــاهد فيصـــعب ذلـــك كثـــيراً.

وكل نظام سياسي أو اجتمـاعي يحقـق داخلـه جـدل الشـاهد الشـاهد والشـهيد الشـهيد، ويضـــمن حريـــة التعـــبير للـــرأي والـــرأي الآخـر، هـــو نظـام ديمـــوقراطي بحـق. أمـا النـظـــام الـــذي لاتـــتحـــقق فـيـــه هـــاتـــان الجدليتان، ولاضمـــانة فيـــه لحريـــة التعبير عـن الـرأي والـرأي الآخـر، فهـو نظـام إرهـــابي استبدادي.

و نحـــن نـــرى أن الدنيـــا كلهـــا تقـــوم على شـهادة الشـاهد وشـهادة الشهيد، ونرى أن اليوم الآخر أيضاً يقوم عليهما، عندما يحشر الناس، فيصبح يومـاً مشهوداً. ونرى أن لاشيء في هذا الوجود أكـــبر من الشهادة، إلا ا لله، تعالى عن الشيئية، بدلالة قوله سبحانه وتعالى:

- ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله، شهيد بيني وبينكم، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لاأشهد، قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ الأنعام ١٩ (١)

---

(١) قد يخامر البعض سؤال : فأين قتلى الحرب الذين قال عنهم تعالى ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ آل عمران ١٦٩ ؟ أليسوا هم الشهداء ؟ ومامعنى تلك المدافن التي نسميها مقابر الشهداء؟

نقول: إذا استعرضنا جميع آيات التنزيل الحكيم، وبخاصة تلك التي ورد فيها ذكر الشهادة والشهيد، لانجد فيها البتة أية إشارة إلى قتل أو قتال لافي سبيل الله ولافي سبيل غيره. نحن نجد أن الشهيد من أسماء الله الحسنى، ونجد أن الشهيد هو الذي شهد عقد البيع، لكننا لانجد أبدا مايربط بين الشهيد والمقتول في سبيل الله أو في سبيل غيره .

إن مصداقية قوله تعالى في آل عمران ١٦٩، ومصداقية قول رسوله - إن صح - قائمة لاشك فيها ولاريب، إنما يبقى الربط بين القتلى والشهداء غائباً في التنزيل الحكيم وغير موجود .. فمن أين جاء هذا الربط بين الشهداء والذين قتلوا في سبيل الله ؟

نحن نرى أن هذا الربط جاء من حضور الشهيد للقتال الذي قتل فيه، فحين تحصل المعركة بين فريقين، يعتبر جميع من شارك فيها شهداء، لأنهم حضروها، سواء قتلوا فيها أم لم يقتلوا. وشهداء المعارك وحاضروها هؤلاء، منهم من يقتل في المعارك، ومنهم من يبقى حياً، ليشهد أمام من لم يحضرها، وليبلغه خبرها، وماجرى فيها من أحداث، فيصبح سامعوه شاهدين على المعركة التي كان هو شهيدها.

من هذه الزاوية بالذات، زاوية الحضورية، نقول إن جميع من حضر معارك بدر وأحد مثلا، من الصحابة والمشركين هم شهداء. ونقول إن جميع من حضر الحرب العالمية الثانية سواء في صفوف المحور أم في صفوف الحلفاء هم شهداء، ينطبق عليهم هذا الاسم أحياء وأمواتاً. ولاحظ هنا معي أن الله غفر في تنزيله لمن شهد بدراً وهو مع النبي (ص) وفي صفوفه، أما شهداء المعركة من المشركين سواء قتلوا أم لم يقتلوا فلا !!

ولكن يبقى أقوى دليل وأوضح بينة وأدمغ إثبات على حضور الرجل لمعركة ما، هو أن يقتل فيها، فهذا هو المحرز الذي يفقأ كل عيون الشك. ومن هنا، ذهب الناس إلى إطلاق اسم الشهداء على الذين يقتلون في الحروب، وإلى تكريمهم ورفع ذكراهم. لكن العجيب أن الناس ينسون الشهداء الذين لم يقتلوا في المعارك، رغم أنه لولا شهادتهم الحضورية، لما تواترت إلينا أخبار تلك الحروب وأحداثها، ولما علمنا بها وصرنا شاهدين عليها.

وأما وضع قوله تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا .. الآية) على أبواب مقابر الشهداء. فهو عندنا للتبرك من جهة، ونوع من أنواع الفبركة من جهة أخرى. ذلك لأننا حين نقول إن الذين قتلوا في معركة ما، هم شهداء وأحياء عند ربهم يرزقون، فهذا قول فيه إجحاف لاعلاقة للتنزيل الحكيم به. وهذا أولا.

ثانيا، ثمة الملايين من الناس المسلمين والمؤمنين، قتلوا في معارك سيقوا إليها قسرا كالغنم. وهناك خصومات سياسية وقبلية وعشائرية، تم زج مئات الناس فيها دون اختيار، وتم قتل العشرات منهم دون ذنب. وهنا تصبح الفبركة ضرورية، ويصبح التلبيس المقصود مطلوباً، حتى لايثور هؤلاء الناس، ولايثور أهاليهم ويتمردون على الاشتراك في معارك وخصومات لاناقة لهم فيها ولاجمل، وهي أساسا ليست في سبيل الله.

صحيح أن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، لكن إضافة الشهيد والشهداء إلى التنزيل الحكيم، سحبا للمعنى، وتجويزا من عندنا أمر آخر. فالذي حدد أن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم، هو الله ذاته، ولم نجد أنه أعطى الصلاحية لأحد بأن يضيف إلى ماقال شيئا، لاتأويلا ولا اجتهادا ولا اتكاء بفتوى. فإذا فعل أحد ذلك كان إفكاً وافتراء وتقويلا لله بما لم يقل، تعالى الله عما يصفون.

هكذا تطور استعمال كلمة شهيد، ومع أن هذا التطور لايناقض ماورد في التنزيل الحكيم من معاني الشهادة، إلا أن علينا أن نكون دقيقين. فإذا ذكرنا الشهداء كقتلى، وجب أن نذكر شهداء ماذا. شهداء بدر أم شهداء معارك فلسطين أم شهداء الحرب العالمية الثانية. وإذا قلنا إن فلانا مات غرقا، أو بحادث طيارة، وأطلقنا عليه شهيد، وجب أن نقول شهيد ماذا، ونحدد الحادث والتاريخ الذي دفع فيه هذا الشهيد حياته ثمنا لشهادته الحضورية.

أما سبب هذا التطور في المعنى، فنراه في أن الناس يذكرون الأموات أكثر من الأحياء. وتصوروا معي معركة حصلت بين جيشين، لم يقتل فيها أحد. سينسى الناس أمرها بعد فترة وجيزة، ولن يسجلها التاريخ، وستنتهي بشهداء دون شاهدين.

٥- الشاهد والشهيد عند المتصوفة والفقهاء

لقد قلنا إن الشهادة بوحدانية الله هي شهادة شاهد، إذ لم ير أحد رأي العين حضوريا أن الله واحد أحد، لتكون شهادته شهادة شهيد.

وقلنا إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا شهداء على النبي (ص) بحضورهم معه، شهداء على تبليغه رسالته للناس، شاهدين على نبوته ورسالته.

وقلنا إن ابراهيم الخليل خير مثال لجدلية الشاهد الشهيد، الذي آمن بربه وبأنه المحيي المميت، ثم طلب أن يكون شهيدا على إحياء الموتى، واستجاب تعالى لدعاء خليله. أما موسى (ع) فكان خير مثال لجدلية الشهيد الشاهد، إذ كان شهيدا لتكليم الله له من وراء حجاب، ثم آمن بوحدانية الله تسليماً، بعد أن ثبت لديه من خبر الجبل استحالة رؤيته تعالى.

وقلنا إن مهمة سائر الخلق أن يشهدوا بأن لاإله إلا الله شهادة شاهد، وتقديم البينات من خلال الوجود كله على وحدانيته. وخلصنا إلى أن مهمتنا نحن اليوم بأن نكون شاهدين على وحدانية الله من خلال كوننا شهداء على خلقه. وبأن نكون شاهدين على رسالة محمد (ص) ونبوته، من خلال كوننا شهداء على مصداقية هذه النبوة والرسالة في الآفاق والأنفس. وأن نقوم بتقديم البينات بعد النبوة والرسالة. ولهذا، فكل من يدعي النبوة والرسالة والوحي بعد محمد (ص) هو برأينا مشعوذ دجال، لأننا الآن في عصر الشهداء والصالحين، وليس في عصر الأنبياء والصديقين.

لقد أرادت الصوفية أن تحول شهادة الشاهد بالوحدانية إلى شهادة شهيد حاضر. وأرادت أن تحول شهادة الشاهد بالنبوة والرسالة إلى شهادة شهيد حاضر، فوقعت بالوهم في الحالتين. ومن هنا برز عندها مصطلح "الحضرة الالهية" ومصطلح "الحضرة

المحمدية". فأغفلت بذلك الوجود الكوني والانساني بأكمله، وبقي عندها الوجود ثنائيا الله ـ الانسان، لاوجود فيه للكون.

بكلمات أخرى، لقد أرادت الصوفية أن يتعرف الانسان على الله (الحضرة الالهية) شهيداً، وأطلقت على من يفعل ذلك "العارف بالله"، وأرادت أن تتعرف على الرسالة المحمدية (الحضرة المحمدية) تعرف شهيد لاشاهد. فاخترعت لذلك أدوات هي: الذل والزهد والأوراد والأذكار واغماض العيون. واخترعوا معنى القلب الذي هو قلب الصدر لاالدماغ. وبما أن العين والأذن تنتهي بالدماغ لابقلب الصدر، فقد أغمضوا عيونهم عن الوجود الكوني والاجتماعي، وصموا آذانهم عنه، فانحرفوا بذلك انحرافاً كبيراً أوقعهم في الوهم. فبدلاً من أن يكونوا شهداء على الوجود الكوني والانساني، ويقدموا البينات من خلال هذه الشهادة على أنهم شاهدو التوحيد والرسالة المحمدية، وأن محمداً هو النبي والرسول الخاتم، وبدلا من أن يكون الشهداء عندهم هم شهداء الوجود الكوني والانساني، ويصبحوا قادة الحضارة الانسانية وقادة تقديم البينات على الرسالة والنبوة، استبدلوا لقب الشهيد بلقب الولي. وحتى يحترموه وضعوا له الخوارق. بينما الخوارق الطبيعية المقبولة لدى كل الناس هي خوارق شهداء العلوم، علم المعادن وعلم الحركة والسرعة والهيدروليك والترموديناميك. فخوارق هؤلاء الشهداء أنتجت لنا أمراً خارقاً هو الطائرة. وبدلاً من أن يقتصر أمر ممارسة الخوارق على الولي، كما عند المتصوفة، فيذهب إلى الحج خلال ثوان (كذا) ويبقى ذلك وقفا عليه لأنه ولي (كذا) أصبح كل الناس يستفيدون من خوارق الشهداء، الذين قدموا نتاج شهادتهم للناس، طائرات وسيارات وبرادات وعقاقير طبية، فاستعملها الناس وصلح بها أمرهم. ورغم أن خوارق هؤلاء الشهداء مشهودة وموضوعية في متناول الجميع، إلا أن السادة المتصوفة يرفضون أن يطلقوا عليهم لقب"قدس الله سره".

إن هـذه الثنائيـة (ا لله ـ الانسـان) عنـد المتصوفـة، متجـاوزين الوجـود الكونـي والانساني، جعلت من معتنقيها أمما غارقة في التخلف والأوهام. علما أن مـن المسـتحيل تماما، وبدلالة التنزيل الحكيم، شهادة وحدانية ا لله شهادة شهيد، بل هي شهادة شـاهد، كانت ومـازالت وستبقى كذلـك إلى أن تقـوم السـاعة، وهنـا يكمـن مفهـوم الاسـلام والتسليم بوحدانية ا لله وباليوم الآخر.

ونقول بناء عليه، إن كل من يدعي بأنه رأى ا لله في المنـام، فهـو إمـا كـاذب أو ممسوس، وكل من صدق هذا الادعاء، فهو لايقل جنونا عن صاحبه.

أما جدل الشـاهد والشـهيد عنـد الفقهـاء فمختلـف تمامـا، عمـا هـو عليـه عنـد المتصوفة ـ فالحضرة الالهية والحضرة المحمدية لاعلاقة للفقه والفقهاء بها من قريب ولامن بعيد، طالما أن الفقهـاء مستنبطو أحكـام (إفعـل ـ لاتفعـل). لـذا، فـإن جـدل الشـاهد والشهيد عندهم هو مصداقية الخبر. وبما أننا نتكلم عن رسالة محمـد (ص) ونبوتـه، وبمـا أن الفقهاء هم أهل الرسالة (الأحكام)، فقد وضعوا لمصداقيـة الخـبر أسسـا، لمـا لهـا مـن أهمية كبيرة، لكن تبقى هذه الأسس في المحصلة من وضع الفقهاء أنفسهم، أي من وضع البشر.

لقد تم وضع أسس لتصديق الشاهد بناء عليها، حتى يصدق الشهيد. وأول هـذه الأسس هو التواتر. والتواتر بالتعريف، هو استحالة تواطؤ النـاس كلهـم علـى الكـذب. وبما أن الفقهاء جميعهم بدءا مـن النعمـان والأوزاعـي، هـم مـن الشـاهدين وليسـوا مـن الشهداء، فلذلك لايمكن تصنيفهم مع الشهداء الذيـن قرنتهـم الآيـة بـالنبيين، فالشـهداء هؤلاء هم أمثال ابن النفيس وابن الهيثم. وإذا نظرنا في التاريخ رأينـا أن عـدد الشـاهدين أكثر بكثير من عدد الشهداء. لأن الشاهد يقوم على النقل والمحاكمة، بينما الشهيد يقوم على المشاهدة الحضورية، ثم المحاكمة والاستنتاج. ويجب علينا، والحالة هذه أن نميز بـين أمـرين مختلفـين تمامـاً: الأول يتعـلق بالشهيد فهو إما صادق أو كاذب. والثاني

يتعلق بالشاهد، فهو إما مخطيء أو مصيب أو كاذب على شاهد آخر (كذب أحد الرواة).

وبما أننا الآن شهداء القرن العشرين ، شاهدي المعلومات التي توصلت إليها الانسانية حتى نهاية القرن العشرين ، نستطيع انطلاقاً من ذلك تقييم صحة بعض الأحاديث النبوية من خلال النص فقط دون النظر إلى السند وإلى علم طبقات الرجال، علماً بأنه حين أخذ علماء الحديث ينقحون الحديث، استبعدوا ورفضوا الكثير الكثير منه، مستخدمين أدواتهم المعرفية الانسانية في زمنهم، كالبخاري ومسلم وغيرهما. ومع ذلك لم يتهمهم أحد بإنكار السنة والحديث. وتمثل فيهم جميعاً مايلي:

١ - استخدموا أدوات معرفية إنسانية بحتة في التنقيح، ثم في التثبيت أو الاستبعاد. أي أنهم كانوا شهداء عصورهم، شاهدين للمعارف التي توصل إليها من سبقهم، ولهذا لايمكن أن يدخل ماوصلوا إليه في عالم الكمال المطلق، فنغلق باب التنقيح إلى غير رجعة.

٢ - أن الله لم يوح إليهم صحة هذا الحديث وخطأ ذاك، ولم يوح إليهم اعتماد هذا الحديث واستبعاد ذاك، ولم يكونوا من الأنبياء الموحى إليهم، بل كانوا من الناس العاديين، ليس لديهم أي بعد معلوماتي إضافي من وحي أو غيره.

٣ - وبما أن ذلك كذلك، ولما كان قد مضى أكثر من ألف عام على اكتمال كتب الحديث، أصبحت خلالها الانسانية تمتلك أدوات معرفية أرقى كثيراً مما كان سائداً متاحاً في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد وجب علينا إعادة الكرة في التنقيح. مع الانتباه إلى أن مانصل إليه اليوم بفضل معارف القرن العشرين، لايعتبر نهائياً ملزماً، فثمة معارف أخرى ستحملها القرون القادمة ليست بمتناولنا الآن، ستفرض على أهلها إعادة الكرة في تنقيح مانقحناه ونسوق الأمثلة التالية :

١ - عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا .. الحديث".

ونحن نرى أن هذا الحديث غير صحيح، رغم وروده في صحيح البخاري ص ٢٢٩٩ تحت رقم ٥٨٧٣، لعدد من الأسباب:

أ - لقد وردت هذه العبارة نصاً في الاصحاح الأول من سفر التكوين في كتاب العهد القديم (أي التوراة): ".. وخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه..". والأهم من ذلك أن هذا الحديث المزعوم يرسخ مقولة أن الله خلق آدم إنسانا كاملاً ناطقا معتدلاً مستوياً، وهذه هي المقولة التوراتية بعينها، مناقضاً قوله تعالى: ﴿ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ الانفطار ٦،٧.

ب - لقد انتقد كثير من الأئمة هذا الحديث، ومنهم المقريزي في الخطط، وابن حجر في الفتح فقال: ويشكل على هذا من الآن، آثار الأمم السالفة كديار عاد وثمود، الذين تدلنا مساكنهم (بقايا عظامهم عند المقريزي) على أن قاماتهم لم تكن مفرطة في الطول على حسب مايقتضيه الترتيب الذي ذكره أبو هريرة. وأنكر مالك هذا الحديث.

ج - لقد خلق الله الانسان متناسباً مع الطبيعة من جهة، متناسباً مع نفسه من جهة أخرى، فإذا كان طوله ٦٠ ذراعاً، أي ٤٢ متراً، فهذا يعني أنه يعادل طول بناء برجي من ١٥ طابقاً. فإذا أخذنا بالنسب الانسانية، نتج أن طول رأسه ٤,٥ متراً، وطول أسنانه ٤٠ سم. وإذا كان ذلك كله متناسباً مع الطبيعة، لوجب أن يكون آدم قد ظهر في العصر الجوراسي منذ ١٢٥ مليون سنة، مع الديناصورات والأشجار العملاقة، وهذا مستحيل. لأن كل شواهد التنقيب تؤكد غير ذلك، إضافة إلى أن التنزيل الحكيم ليس فيه مايؤكد هذا الخبر تصريحاً ولاتلميحاً.

لقد عرض البخاري لهذا الحديث فصححه ولم يرفضه أو يستبعده، لأن معارف القرن الثاني والثالث الهجريين (ولد البخاري ١٩٤ هـ وتوفي ٢٥٦ هـ) التي كان

البخاري شاهداً عليها لم تكن تسمح له بذلك. لذا فنحن نقول تعليقاً على هذا الحديث، لقد أخطأ الراوي وصدق الله ورسوله.

٢ - حديث ابن عمرو رضي الله عنه: خرج علينا رسول الله (ص) وفي يده كتابان فقال: أتدرون ماهذا الكتابان؟ فقلنا: لايارسول الله إلا أن تخبرنا. فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً. فقال أصحابه: ففيم العمل إن كان أمراً قد فرغ منه ؟ فقال: سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل، ثم قال رسول الله (ص) بيديه فنبذهما ثم قال: فرغ ربكم من العباد (فريق في الجنة وفريق في السعير).

ونحن نرى أن هذا الحديث غير صحيح، سبقنا إلى تحليله الزميل سامر اسلامبولي في كتابه "علم الله وحرية الانسان" ص ٩٦، ٩٧. ورغم أن الامام الترمذي صححه هو وغيره، فإن من المؤسف أن يوضع هذا الحديث وأمثاله أساس الأسس في العقيدة الاسلامية، لمخالفته تماماً روح التنزيل الحكيم ونصه، ولإقراره العقيدة الجبرية بشكل مطلق على الناس.

١ - يقول الحديث: كتابان في أحدهما أسماء أهل الجنة وفي الآخر أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم.

وتعالوا معي نحسب هذه الحسبة البسيطة على أكثر الفرضيات سماحة:

١ - نترك أهل الأرض ماقبل محمد (ص). ونترك أهل الأرض مابعد اليوم.

٢ ـ نكتفي بفترة ١٤٠٠ سنة فقط، أي مما بعد محمد (ص) إلى الآن.

٣ ـ نفترض أن عدد سكان الأرض اليوم خمسة مليارات.

٤ ـ ونفترض أن عددهم زمن الرسول ٢٠٠ مليون.

٥ ـ ونفترض أن وسطي عمر الجيل ٥٠ عاما.

٦ ـ وأن قياس صفحة الكتاب ٢٥×٢٥ سم من الورق الرقيق وزن ٢٠ غ/م٢

٧ ـ عدد السطور في الصفحة ٤٠ يستوعب كل سطر خمسة أسماء.

كم تتصورون ستبلغ سماكة الكتاب الواحد ؟

سنحتاج إلى ٢٠٠ مليون ورقة سماكتها ٤٠ كم، ووزنها ٢٥٠ طنا.

فإذا عرفنا أن الحديث يعود لزمن كان فيه عبد الله بن عمرو نفسه يحتاج إلى زاملتين ودابة، يحمل عليها الصحائف التي كانت بحوزته من علوم أهل الكتاب وكتبهم، وأن الكتب كانت من البردي وجلود الحيوانات، لأدركنا كم سيكون وزن الكتاب من هذا النوع في ذلك الزمن !!

٢ ـ يقول الحديث: .. ثم قال رسول الله (ص) بيديه فنبذهما ..

ونحن نسأل: وأين هما الآن؟ فنحن لم نجد في جميع ماقرأنا من تراجم وأخبار أي ذكر للكتابين بعد أن نبذهما الرسول الأعظم. ونسأل أيضاً: ألم يكن بين الصحابة الحاضرين فضولي يخطر في باله أن يبحث عن اسمه، في أي الكتابين هو؟ رغم أن الموضوع خطير ويستحق الفضول؟

٣ ـ يقول الحديث: ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً.

ولقد رجعنا إلى فعل أجمل فوجدنا أن: أجمل الحساب أي جمع أعداده. ولم نجده في هذا المعنى يتعدى بحرف الجر (على). ووجدنا أن الرسول (ص)، رغم ورود اجمال الحساب وجمعه، لم يذكر رقماً يدل عليه.

٤ - من الثابت المشهور أن الرسول (ص) أمي، لايقرأ المخطوط ولا يخطه، فكيف عرف مافي الكتابين ؟ ومن أحضرهما له قبل أن يخرج بهما ؟

٥ - يقول الحديث والرواية لعبد الله بن عمرو: خرج علينا .. فقلنا .. إلا أن تخبرنا..

ونفهم نحن أن عبد الله داخل في ضمير (نا) كراو، لكننا لانفهم قوله بعد ذلك: فقال أصحابه ... وكأنه يخرج نفسه من (أصحاب رسول الله)، وكأنه بعد أن كان راويا داخلا في (نا) أصبح راويا خارجا منها. إلا إن كانت الجملة في الأصل: فقال بعض أصحابه .. فيستقيم عندها أن يخرج نفسه من البعض.

٦ - يقول الحديث: .. فقال أصحابه: ففيم العمل إن كان أمر قد فرغ منه ؟

أولاً، وردت لفظة (أمر) مرفوعة وكان حقها النصب، كما في قوله تعالى: وكان أمرا مقضيا.

٧ - كان أصحاب الرسول عرباً، لابل من فصحاء العرب، وقولهم (إن كان) فيه تشكيك لايليق لابالصحابة ولا بالرسول الأعظم، وكان حقهم أن يقولوا (إذا كان)، لأن مابعد إذا محقق الوقوع، على خلاف إن، فما بعدها يحتمل عدم الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ..** ﴾ فالنصر والفتح واقعان لاريب.

٨ - كان سؤال الصحابة (ففيم العمل) سؤالاً وجيهاً في محله، نابعاً من خطورة ماخرج عليهم الرسول به.

٩ - يقول الحديث: سددوا وقاربوا .. ويعتبره جواباً من الرسول الأعظم على سؤال الصحابة (ففيم العمل إن كان أمر قد فرغ منه). فأي جواب هذا ؟! وماذا يعني تحديدا ؟ وماعلاقة التسديد والمقاربة بما ورد في الحديث من صريح الدعوة إلى نفض اليدين من كل مافي الوجود ؟ وهل يعقل لرسول ونبي خاتم أن يجيب على سؤال واضح

محدد، بجواب غائم غامض يضيع فيه مسلمو العالمين ومؤمنو كل الأزمان حتى تقوم الساعة؟ ولماذا نشم في هذين الفعلين رائحة العامية، التي نجل الرسول الأعظم وهو أفصح الفصحاء عن التكلم بها؟ لقد اعتدنا أن نفهم في لغتنا المحكية من (المساددة والمقاربة) معنى المناورة لبلوغ الهدف، ومعنى القبول بالتنازلات لبلوغ القصد، فأين هذا كله من الجنة والنار ؟

١٠ ـ يقول الحديث: .. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل .. ويقول سبحانه في تنزيله الحكيم:

- ﴿ .. إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾ الكهف ٣٠.
- ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى .. ﴾ الكهف ٨٨.
- ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .. ﴾ التوبة ١٠٥.

ونرى بوضوح لالبس فيه أبداً، مهما اخترع البعض من تخريجات، ومهما جهد في تقديم التبريرات، أن الحديث يقول شيئاً يتضاد تماماً مع ماورد في التنزيل. ونحن لانندهش من واضع الحديث الذي يستخف بعقول الناس، بقدر ماننده من الذين اعتمدوه وصححوه، فلا حول ولاقوة إلا با لله.

٣ ـ سيد الشهداء رجل قام إلى حاكم ظالم فأمره ونهاه فقتله.

وهذا، فيما نرى، حديث صحيح. إذا عرضناه على التنزيل الحكيم، وجدناه متطابقاً تماماً معه. فالشهيد تعني الحضور وأداء الشهادة والعلنية، والانسان الذي يعيش في مجتمع حاكمه ظالم، إذا قام يعلن شهادته على الظلم بالنصح والتوجيه، وكلفه ذلك حياته، كان سيد الشهداء بحق. والعالم الطبيب الهولندي، الذي شهد داء الكوليرا في أندونيسيا، وعرض نفسه للمرض، ليستطيع أن يشعر كطبيب بما يشعر به المريض بالكوليرا، فيساعده ذلك على التشخيص والعلاج. ثم مات فعلاً ودفع حياته ثمناً لشهادته هذه، كان سيد الشهداء بحق.

وتاريخ العلوم الكونية والانسانية يعطينا مئات الأمثلة والأسماء عن سادة الشهداء، وكل الذين وقفوا حياتهم ودفعوها ثمنا لشهادتهم في جميع المجالات الكونية والاجتماعية والسياسية.

الفصل الثالث:الأبوان والوالدان

١_ التبني واتخاذ الولد
٢_ النكاح والالقاح
٣_ الأخ والأخت
٤_ الزواج وملك اليمين

لابد وأنت تقرأ في التنزيل الحكيم، من أن تمر بآيات ورد فيها ذكر : الأب والأم، والوالد والوالدة، والأبوين والوالدين، والابن والابنة، والأخ والأخت.

ولابد لفهم ذلك كله، من التفريق بين الأب والوالد، والأم والوالدة، والأبوين والوالدين، والولد والابن. ونبدأ أولاً بالمعاجم اللغوية.

١ً - ولد : الواو واللام والدال أصل صحيح، وهو دليل النجل والنسل، ثم يقاس عليه غيره. والولد للواحد وللجميع، ويقال للواحد ولد أيضاً وللأنثى وليدة جمعها ولائد، وتولد الشيء عن الشيء حصل عنه (ابن فارس ج٦ ص ١٤٣).

٢ً - أم : الهمزة والميم أصل واحد تتفرع منه أربع أبواب هي : الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة . وبعد ذلك أصول ثلاثة هي المقامه والحين والقصد. قال الخليل الأم للواحد والجمع أمهات، وربما قالوا أم وأمات. وفلانة تؤم فلاناً أي تغذوه وتربيه . قال الخليل كل شيء يضم إليه ماسواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أماً، ومن ذلك أم الرأس وهو الدماغ.

قال الخليل كل مدينة هي أم ماحولها من القرى، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها أم مثوى وللرجل أبو مثوى. وأم النجوم السماء، وأم كلبة الحمى، وأم كفات الأرض، وأم الكف اليد. ومن الدين جاء معنى الأمة ﴿ .. إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ الزخرف ٢٣. ومن الاجتماع والاتباع جاء معنى الإمام والإمامة ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين** ﴾ النحل ١٢٠. ومن الحين أي الفترة الزمنية جاء قوله تعالى ﴿ **وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله..** ﴾ يوسف ٤٥.

وبمعنى القصد جاءت في قوله تعالى ﴿.. **ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم** .. ﴾ المائدة ٢. أي يقصدونه. والأم: الرئيس. يقال هي أمهم.

٣ً - أب : الهمزة والباء في المضاعف أصلان، أحدهما المرعى، والآخر القصد والتهيؤ. فأما الأول فقوله تعالى ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ عبس ٣١. قال أبو زيد الأنصاري لم

أسمع للأب ذكراً إلا في القرآن. قال الزجاج الأب جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية.

أما الأصل الثاني فقال الخليل وابن دريد الأب مصدر أبَّ فلان إلى سيفه، إذا رد يده إليه ليستله. والأبُّ في قول ابن دريد النزاع إلى الوطن، والأبُّ التهيؤ إلى المسير. وقال الخليل وحده أبَّ هذا الشيء إذا تهيأ واستقامت طريقته. والأبُّ القصد. يقال أببت أبه، وأممت أمه. (ابن فارس ج١ ص ٧).

ونلاحظ في هذا كله أمراً هاماً جداً، هو أن الأم من فعل أم، والأب من فعل أب، لاعلاقة لهما البتة بفعل ولد. ونفهم أن الوالد والوالدة هما المعنيان بفعل الولادة، وأن الأبوين شيء والوالدين شيء آخر.

فإذا استعرضنا آيات التنزيل التي وردت فيها هذه المصطلحات، وجدنا أن هذه غير تلك، ووجدنا التنزيل يتوسع في تعريفها وتحديد معانيها بدقة.

سنقوم هنا بقراءة معاصرة لهذه المصطلحات، كما وردت في التنزيل الحكيم، انطلاقا من أننا شهداء القرن العشرين، شاهدون على معارف الطب والوراثة والحمل والجنين التي أرستها الحضارة الانسانية، منوهين إلى أنها قراءة ليست مطلقة، بل مرهونة بزمانها ومكانها.

الوالد هو صاحب الحيوان المنوي الذي بدونه لايتولد جنين. والوالدة هي صاحبة البويضة التي بدونها لايتولد الجنين. إذ يقوم تولد الجنين على اجتماع حيوان منوي وبويضة في الرحم، بدون أحدهما لايتولد شيء. وفي هذا نقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ..** ﴾ آل عمران ٤٧.

انظر هنا إلى دهشة مريم، بعد أن بشرها الله بكلمة منه اسمه المسيح، فهي تعرف جيداً أن الوضع يأتي بعد الحمل، وأن الحمل يحتاج إلى لقاح، وأن اللقاح يلزمه بشر يمسها. وهي تستغرب أن تحمل.

ونقرأ قوله تعالى :

﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً، إن هذا لشيء عجيب ﴾ هود ٧٢.

وانظر هنا إلى دهشة امرأة إبراهيم، واستغرابها من الولادة وليس من الحمل، فهي متزوجة وعندها من يمسها، لكن زوجها شيخ، وهي ذاتها عجوز عقيم (الذاريات ٢٩). فلا هي أبقى لها العقم والعجز بويضات، ولا زوجها أبقت له الشيخوخة حيوانات منوية، فمن أين تأتي الولادة والتوليد ؟.

هناك إذن لقاح وهناك إذن تولد للجنين من عنصرين مذكر ومؤنث، تأتي بعدها مرحلة سماها التنزيل مرحلة الحمل، وذلك في قوله تعالى :

- **﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ﴾** مريم ٢٢.
- **﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وماتزداد .. ﴾** الرعد ٨.
- **﴿ .. وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه .. ﴾** فصلت ٤٧.
- **﴿ .. فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً .. ﴾** الأعراف ١٨٩.

تأتي بعد ذلك عملية خروج الجنين من الرحم، التي أطلق عليها التنزيل الحكيم اسم الوضع، وذلك في قوله تعالى :

- **﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى .. ﴾** آل عمران ٣٦.
- **﴿ .. وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن .. ﴾** الطلاق ٤.
- **﴿ .. وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن .. ﴾** الطلاق ٦.
- **﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .. ﴾** الحج ٢.

فالمولود يخرج إلى النور نتيجة لقاح وحمل ووضع، والوالدة هنا هي صاحبة البويضة وهي الأم التي حملته ووضعته، ولهذا قال التنزيل إن المسيح كان براً بوالدته، أي

أن البويضة الأنثوية كانت من مريم، وهي التي حملته ووضعته في آيات أخرى. ونخلص إلى أن للوالد مرحلة واحدة لايتعداها هي مرحلة الالقاح، أما الوالدة فهي صاحبة البويضة يليها بعد اللقاح الحمل والوضع فتصبح أماً، ﴿ .. **وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم** .. ﴾ النجم ٣٢، ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** .. ﴾ النحل ٧٨. فإذا تلازم البويضة والحمل والوضع في أنثى واحدة فهي والدة وأم حاملة للجنين وواضعة، وهذا واضح في قوله تعالى:

- ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسناً** .. ﴾ العنكبوت ٨.
- ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين** .. ﴾ لقمان ١٤.

أي يولد المولود (الوضع) والذكر والده، والأنثى والدته وأمه الحاملة للجنين والتي وضعته، والمولود ولدهما.

ولد:
- الذكر ← والد (صاحب الحيوان المنوي)
- الأنثى ← والدة البويضة - أم في الحمل والوضع

هنا نلاحظ أن التنزيل الحكيم يطلق مصطلح الأم على التي تحمل الجنين، لأنها تغذيه من دمها وترعاه في بطنها أثناء الحمل، ولهذا فهي أم ووالدة اجتمعت فيها الصفتان بقوله تعالى :

- ﴿ .. **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق** .. ﴾ الزمر ٦.

أما الولادة بمعنى الوضع وخروج المولود إلى النور من الرحم، فقد جاءت في قوله تعالى:

- ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ مريم ١٥.
- ﴿ **ووالد وما ولد** ﴾ البلد ٣.

- ﴿ .. **واخشـوا يومـاً لا يـجزي والـد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً..**﴾ لقمان ٣٣.

المولود بعد الولادة مباشرة، يسميه التنزيل الحكيم وليداً، كما في قوله تعالى: ﴿**قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين**﴾ الشعراء ١٨. ولما كانت الأنثى أماً تحمل وتضع، ووالدة تولد البويضة، ويخرج وليدها من فرجها ، فقد قال تعالى: ﴿ **وا لله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ..** ﴾ النحل ٧٨. ولما كان خروج الوليد من فرج أمه، والتي هي في غالب الأحيان والدته، خصوصية مقصورة عليها حصراً، ولا تنسحب على أية امرأة أخرى، فقد استنكر سبحانه الظاهرة التي كانت فاشية في الجاهلية، كأن يقول أحدهم لزوجته: أنت علي كظهر أمي. واعتبر ذلك منكراً وزوراً في قوله تعالى:

- ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ..** ﴾ المجادلة ٢.
- ﴿ .. **وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ..** ﴾ الأحزاب ٤.

ولما كان للوالد مهمة واحدة هي الالقاح، فالوالد هو الملقح، بغض النظر عن طريقة الالقاح، سواء بالنكاح أو بغيره، وبغض النظر عن شرعية النكاح (زواج) وعدم شرعيته (زنا). أما الأب فله وضع آخر تماماً غير الوالد. فإذا رعى الذكرُ الوالدُ الأمَّ في حملها، وأنفق عليها وساعدها (قصدها وأب إليها) فهو أب، أما إذا لم يفعل فهو والد فقط.

من هنا نفهم أن اليتيم ليس يتيم الوالدين، بل يتيم الأب أو الأم أو الأبوين معاً. فالأب من القصد والعناية والتربية، والأم من التغذية والحنو (تؤم جنينها) قبل الوضع وبعده.

ونفتح التنزيل الحكيم لنقرأ قوله تعالى: ﴿ **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا** ﴾ نوح ٢٧. لنجد أن الولادة في الآية جاءت بمعنى التربية

والتشكيل الايديولوجي والعقائدي في المجتمع، وأن فعل "يلدوا" لايعني مطلقاً الولادة من حمل ووضع وأمومة، لأن الانسان لايولد كافراً فاجراً ولايولد مؤمناً تقياً، كما يتوهم البعض، بل يخرج من بطن أمه صفحة بيضاء نقية بدليل قوله تعالى: ﴿ **وا لله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ..** ﴾ النحل ٧٨. أي أن هناك أولاداً بالولادة، وأولاداً بالتربية، فالتربية هي التي تجعل منهم كفاراً فجاراً، أو تجعل منهم مؤمنين صالحين. والمربون في هذه الحالة هم الآباء وليس الوالدين. فإذا قام الوالدان بالتربية المادية والمعنوية، بالرعاية والانفاق، أصبحا أبوين. وإذا قام غير الوالدين بهذه التربية والرعاية كانا أبوين أيضاً. ومن هنا نجد للآبائية معنيين في التنزيل الحكيم.

الأبوان هما اللذان يقدمان الرعاية والانفاق والتنشئة للوليد بعد الولادة، فإن كان وليدهم فهما والداه أيضاً. وهنا يتضح معنى الأب الذي يقوم بالتربية والانفاق والقصد على تنشئة الوليد، فإن كان والده، فهو أبوه أيضاً. أما إن كان ليس بوالده فهو أبوه فقط. وكذلك الأم التي تقوم على التربية والرعاية، فإن كانت والدته، فهي أمه ووالدته، أما إن كانت ليست بوالدته فهي أمه فقط.

ومن هنا نرى إمكان أن يكون للانسان أكثر من أم، أم والدة، وأم مربية، وقد تجتمع أمومة الولادة وأمومة التربية في امرأة واحدة. ولهذا نجد تحريم النكاح في التنزيل شمل الأم و لم يخص الوالدة. وذلك في قوله تعالى: ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم ..** ﴾ النساء ٢٣. وهذا طبيعي ينسجم مع باقي آيات التنزيل التي تعتبر المرضعة أماً، وتعدها من المحارم مع أنها ليست والدة، ذلك في قوله تعالى : ﴿ **.. وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ..** ﴾ النساء ٢٣. ونقرأ قوله تعالى : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم ..** ﴾ الأحزاب ٦. ونفهم من الآية أمرين: الأول أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين وليس والدات المؤمنين، الثاني أن كونهن كذلك أدخلهن في محارم النكاح في قوله تعالى ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم ..** ﴾ .

وهكذا نرى الفرق جلياً واضحاً بين الوالد والأب، والوالدة والأم، والوالدين والأبوين. فمن الناحية البيولوجية لابد للوليد من والد ووالدة، ومن ناحية التربية والحماية والرعاية والتنشئة لابد له من أب وأم. وإذا كان التنزيل قد ميز وفرق بدقة بين الوالد والأب في المصطلح والمعنى، فحصر الأول بالإلقاح والثاني بالإنفاق والرعاية والتربية، فهو قد وحد في مصطلح الأم بين جميع وجوه الأمومة، البيولوجية في الرحم والمولود جنين والتربوية والعقائدية بعد الوضع. ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى** ﴾ طه ٣٨.
- ﴿ **إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ..** ﴾ طه ٤٠.

ونفهم أن أم موسى، كانت والدةً وأماً بالولادة، وبقيت أماً بالكفالة والرضاعة والتنشئة.

ولعل خير مثال على الفصل والتفريق بين الوالدين والأبوين، هو مانعرفه اليوم بالتبني، وللتبني مصطلح خاص يطلقه التنزيل الحكيم عليه هو اتخاذ الولد. وإذا كنا قد اقتصرنا حتى الآن، في الحديث عن الوالدية والآبائية، على زاوية الأب والأم، والأبوين والوالدين، فإن هذا ينقلنا إلى الحديث من زاوية الولد. ونبدأ بقوله تعالى :

- ﴿ **وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ..** ﴾ يوسف ٢١.
- ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون** ﴾ القصص ٩.

ومن المعلوم أن المصري وامرأته لم يكونا والدي يوسف، وأنهما أرادا أبوة التربية والتنشئة باتخاذه ولداً. تماما مثل فرعون وامرأته، لم يكونا والدي موسى، وأرادا أن يصبحا أبويه باتخاذه ولداً.

ونعود إلى التنزيل الحكيم لنجد أن الله سبحانه نفى عن نفسه الصفتين معا، صفة الوالدية وصفة الأبوية، فهو ليس بوالد، وليس بأب.

أ- نفي الوالدية، وقد ورد في قوله تعالى :

- ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ الصافات ١٥١،١٥٢.
- ﴿ الله الصمد * لم يلد ولم يولد ﴾ الاخلاص ٢،٣.
- ﴿ .. إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد .. ﴾ النساء ١٧١.
- ﴿ بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة .. ﴾ الأنعام ١٠١.

ب- نفي الأبوية (التبني) وقد ورد في قوله تعالى :

- ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد، سبحانه .. ﴾ مريم ٣٥.
- ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله .. ﴾ المؤمنون ٩١.
- ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك .. ﴾ الاسراء ١١١.
- ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ الأنبياء ٢٦.
- ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء .. ﴾ الزمر ٤.

وهكذا نرى أن النفي المزدوج للوالدية والأبوية عن الله سبحانه وتعالى واضحة تماما في التنزيل الحكيم.

لنستعرض التنزيل الحكيم لنرى كيف ورد الأب بمعنى الوالد، وكيف ورد بمعنى الراعي المربي. أما في الأب الوالد، فنقرأ قوله تعالى:

- ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا .. ﴾ يوسف ٤.

ومع أن يعقوب والد يوسف وأبوه، فقد استعمل مصطلح الأب، للدلالة على أن يوسف دخل دائرة الوعي في الدنيا وهو في كنف والده يعقوب وتحت رعايته، ودليل وعيه أنه يقص على أبيه ووالده مارآه في الرؤيا.

- ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا .. ﴾ يوسف ٨.

إخوة يوسف هنا واعون مدركون، ويشعرون بالغيرة والحسد من حب أبيهم ووالدهم ليوسف وأخيه.

فإذا ماتابعنا سورة يوسف كلها، وجدنا الآيات تتحدث عن يعقوب الأب وعن الأبوين، و لم نجدها تذكر الوالد أو الوالدين (انظر الآيات ٩، ١١، ١٦، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٨٠، ٨١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ١٠٠).

وننتقل إلى إبراهيم، ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء**﴾ إبراهيم ٣٩.
- ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء** ﴾ إبراهيم ٤٠.
- ﴿ **ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ إبراهيم ٤١.

ونلاحظ أن مصطلح الأب يرافق إبراهيم في جميع الآيات التي تتحدث عن إبراهيم، عدا هذه الآية بعينها، التي ورد فيها استغفار إبراهيم لوالديه. وأنه كان شيخاً كبيراً، وأباً ووالداً لإسماعيل وإسحق. مما نستبعد معه أن يكون والداه حيين. نقول هذا ونحن نتذكر قوله تعالى: ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ التوبة ١١٤.

ونلاحظ أن براءة إبراهيم من أبيه في التوبة ١١٤، لاعلاقة لها بوالدي إبراهيم في إبراهيم ٤١، بقدر ماتتعلق بقوله تعالى: ﴿ **واغفر لأبي إنه كان من الضالين** ﴾ الشعراء ٨٦. وبقوله تعالى: ﴿ **.. إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ..** ﴾ الممتحنة ٤. فمن هو أبو إبراهيم، الذي لاعلاقة له البتة بوالدي إبراهيم؟

إنه آزر، الذي عناه سبحانه في قوله :

- ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ الأنعام ٧٤.

- ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ الأنبياء ٥١ ـ ٥٤

ونقف عند قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ..) ونتذكر إلى جانب ذلك قوله تعالى: (إذ قال يوسف لأبيه ياأبت ..) ونلاحظ أنه سبحانه قد سمى الأب عند إبراهيم، و لم يسمه عند يوسف. فلماذا؟

ونقف عند قول إبراهيم لأبيه آزر: إني أراك وقومك .. و لم يقل إني أراك وقومي .. فلماذا ؟

هذا كله يدلنا على أن آزر ليس والد إبراهيم، بل هو أبوه بالتربية والرعاية وربما بالعقيدة. ويدلنا على أن ثمة عددا من الآباء المربين في محيط إبراهيم خص منهم سبحانه وتعالى آزر بالذكر فسماه. ويقودنا إلى استنتاج أن لآزر علاقة وثيقة بالمعابد والتماثيل، إما في نحتها وصنعها، أو في خدمتها كهامان، أي كرجل دين في المعابد. وهذا يفسر لنا سبب قرب إبراهيم من هذه الأصنام ومن المعابد ، وحريته في الدخول إليها متى شاء، باعتباره تحت إشراف آزر التربوي. كما يفسر لنا حرص إبراهيم على هداية أبيه الروحي بدافع المحبة والبر والعرفان بالجميل. ومن هنا نجد في حواراتهما مصطلح الأب، ولانجد أبدا مصطلح الوالد.

واستفاق إبراهيم من غفوة السير في ركاب أبيه وقوم أبيه، بعد أن آتاه الله رشده، فكانت ردة فعله عنيفة، ونقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم * إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكاً آلهةً دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم** ﴾ الصافات ٨٣ ـ ٨٩.

ونفهم من الآيات أن إبراهيم جاء إلى آزر بقلب يملؤه الشك والغيظ، ليسأل أبيه وقوم أبيه مستنكراً : ماذا تعبدون ؟ ..

أما مافهمه السيوطي في الدر المنثور، من أن إبراهيم جاء إلى ا لله بقلب لاتشوبه شائبة شك أو كفر، فليس عندنا بشيء. فقد فات السيوطي أمور، منها أن كلمة "سليم" من الأضداد ، ومنها أن فعل جاء ليست مثل فعل أتى في قوله تعالى: ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى ا لله بقلب سليم** ﴾ الشعراء ٨٨ - ٨٩ . (١)

إن فهمنا السالف لسورة الصافات ٨٣ ـ ٨٩، يفسر لنا مشكلتين لم يستطع السيوطي أن يحلهما في دره المنثور، وأخذهما بعض المستشرقين ذريعة لنسب الخطأ إلى التنزيل الحكيم:

١ً - لم يفرق المفسرون بين الأب والوالد في التنزيل، فذهبوا إلى أن آزر، هو والد إبراهيم وأبوه. وهبَّ علماء الأنساب العرب يهوداً ومسلمين، ينكرون هذا ويؤكدون أن والد إبراهيم رجل آخر اسمه تارح، وكان ابن عباس على رأس النسابين المسلمين الذين قالوا بذلك. وتم طمس ماقاله ابن عباس حرصاً على عدم تغليط المفسرين، وكانت فرصة للمستشرقين أن يتكئوا على هذا الغلط في التفسير، ليزعموا أنه غلط في التنزيل نفسه.

٢ً - كيف يسمح إبراهيم لنفسه أن يستغفر لوالده آزر، بعد أن وضح له خطأ استغفاره له أول مرة، وتبرأ منه ؟

لقد ظهر هذا التناقض الكبير، حين لم يميز المفسرون كما ميز التنزيل بين الأب والوالد، ونحن نرى هنا أنه لايوجد تناقض بتاتاً لأن إبراهيم تبرأ من أبيه آزر واستغفر لوالديه. ولأن أبا إبراهيم آزر شخص ووالد إبراهيم شخص آخر، ولايضيرنا في شيء أن يكون اسمه تارح كما قال ابن عباس، أو غير ذلك.

---

(١) ـ انظر شرحنا المفصل للفرق بين جاء وأتى في مكانه من هذا الكتاب.

ونختم حديثنا عن الأب الوالد في التنزيل الحكيم، لننتقل إلى الأب المربي، حيث ورد مصطلح الأب بهذا المعنى في العديد من الآيات لعل أبرزها قوله تعالى:

- ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم** .. ﴾ الحج ٧٨.
- ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** .. ﴾ الأعراف ٢٧.
- ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾ البقرة ١٧٠.
- ﴿ **قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ الزخرف ٢٤.

لقد ورد مصطلح الأب في الآية الأولى، بمعنى المربي العقائدي بشكل لالبس فيه. إذ يوجد في العالم اليوم أكثر من مليار مسلم مؤمن منهم الهنود والعرب والترك والأوربيون والأفارقة، والمسلمون غير المؤمنين أكثر من ذلك، ولايمكن أن يكون إبراهيم والد هؤلاء جميعاً، ومن هنا نفهم أن إبراهيم أبو المسلمين وليس والدهم.

وكذلك في الآية الثانية، فآدم ليس والد الآدميين، وأبناء آدم ليسوا أولاده لا بالولادة ولا بالتبني، بل هو أبوهم الذي بدأ به الوجود الانساني العاقل، تماماً كما نقول بأن مندلييف أبو الكيمياء، ولانقول والدها، ونقول أبو الشعب ولانقول والده، ونقول عن زوجات الرسول أمهات المؤمنين وليس والداتهم. لأن مصطلح الوالد والوالدة مصطلح بيولوجي فيه نكاح، أو فيه لقاح، أو فيه الاثنان معاً.

وننتقل إلى الآيتين الثالثة والرابعة، بعد أن رأينا أن مصطلح الأم والأب أعم من مصطلح الوالدة والوالد، وأصبحنا نفهم بشكل أدق قوله تعالى: ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه** ﴾ عبس ٣٤، ٣٥.

ونلاحظ أن مصطلح الأب بمعنى المربي والمكون الفكري والعقائدي للفرد في المجتمع، قد ورد بصيغة الجمع في العديد من آيات التنزيل الحكيم (آباء). كما نلاحظ

أن مصطلح الآباء ورد في التنزيل للدلالة على التكوين الفكري والعقائدي للفرد، إضافة إلى أنه ورد في بعض الآيات بمعنى الأب (بالولادة أو التبني) وبمعنى الجد وجد الجد، حين ينحصر الحديث بشخص معين، كقوله تعالى: ﴿ .. **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ..** ﴾ النور ٣١. فالآباء هنا تشمل الأب الوالد والأب الذي تبنى وربى، ولهذا قال (آبائهن) ولم يقل (والديهن).

والآباء لاتعني الذكور حصراً، فلدينا الوالد والوالدة وهما الوالدان، فإذا تابعنا صعوداً فلدينا الجد والجدة والأجداد، وإذا اتجهنا نزولاً، فلدينا الأولاد (البنين) والأحفاد، كما في قوله تعالى: ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ..** ﴾ النحل ٧٢. أما بالنسبة لـ الأب + الأم = الأبوين، فإذا انتهينا صعودا فهم الآباء، وإذا اتجهنا نزولاً فهم الأبناء، لذا قال "يابني آدم" وقال "أبويكما" وقال "آباءكم". وهكذا نفهم من التنزيل الحكيم عندما ذكر الآباء والأبناء في الإرث فهذا يعني أن الإرث يشمل الولد وولد الولد نزولاً والأبوين والجدين ذكورا وإناثاً صعوداً.

ونفهم أن الآباء لاتعني الذكور حصراً، بل تشمل الذكور والاناث حين يكون الحديث في المجال التربوي العقائدي الثقافي. ونمضي لنستعرض بعض آيات التنزيل التي ورد فيها مصطلح الآباء بهذا المعنى:

- ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ..** ﴾ المائدة ١٠٤.
- ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ..** ﴾ يونس ٧٨.
- ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ الزخرف ٢٢.
- ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ الزخرف ٢٣.

ونلاحظ هذا التتالي في المصطلحات التالية :

آثارهم مهتدون ←

آباءنا ← أمة ←

آثارهم مقتدون ←

لنرى العلاقة واضحة كاملة بين الآبائية والأمة (السلوك والثقافة) واتباع هذ السلوك وهذه الثقافة كما تركها الآباء هداية واقتداء. ونزداد فهماً لهذه النقطة إذا قرأنا الآيات التالية: المؤمنون ٢٤، ٦٨، ٨٣، الأعراف ٧٠، ٧١، ١٧٣، الأنعام ٩١، ١٤٨، الشعراء ٢٦، ٧٥، ٧٦، الدخان ٨، ٣٦، هود ٦٢، ٨٧، ١٠٩، الصافات ١٦، ١٧، ١٢٦، الفرقان ١٨، الزخرف ٢٩، يوسف ٤٠، الأنبياء ٥٤، سبأ ٤٣، الواقعة ٤٧، ٤٨. فهذه الآيات كلها جاءت بمعنى السلوك والثقافة والعقيدة والاتباع والاقتداء، لابالمعنى البيولوجي.

وننتقل لنقرأ قوله تعالى:

- ﴿ .. **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون با لله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ماكان لنا أن نشرك با لله من شيء ..**﴾ يوسف ٣٧، ٣٨.
- ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ..** ﴾ التوبة ٢٣.

لنجد أننا أمام معنى مزدوج للآباء، مزيج من الأب الوالد فالجد فجد الجد، والأب المربي عقيدة وثقافة. فيوسف يذكر في الآية آباءه، والده يعقوب وعمه اسحق وجده إبراهيم، لكنه يبدأ العد معكوساً من جده إلى أبيه، لأن الملة (العقيدة والدين) ملة

جده إبراهيم بالأساس. مما يجعلنا نفهم أن آبائية العقيدة والثقافة أهم من نسب الدم والبيولوجيا إن لم تكن مثلها.

وننتقل الآن في ضوء ماذكرناه سابقاً إلى قوله تعالى :

- ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليما** ﴾ الأحزاب ٤٠.

لقد اعتبر أصحاب "أسباب النزول" أن الآية نزلت في زيد بن حارثة، الذي كان يلقب بزيد بن محمد، فصار معنى الآية في زعمهم، إن محمداً ليس أبا لأحد.

ولكن ما علاقة أن يكون محمد (ص) أباً لزيد أو غيره بكونه رسول الله ؟ وماعلاقة أن يكون أبا للقاسم بكونه خاتم النبيين ؟ بمعنى آخر، إذا قلنا إن فلاناً ليس أبا سعيد، لكنه وزير وأستاذ في الجامعة، فما علاقة هذا بذاك ؟

ثمة عدم ترابط بين بداية الآية ونهايتها في ضوء ماتذهب إليه بعض التفاسير، وسيبقى قائماً ما لم نفهم أن الأبوة في الآية تعني الجانب العقائدي، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿ .. **ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل** .. ﴾ الحج ٧٨. فإبراهيم أبو المسلمين وآدم أبو الانسان.

إذا فهمنا الأبوة في الآية بهذا المعنى، صار الربط واضحاً بين أبوة محمد الروحية العقائدية في مطلع الآية، وبين رسالته ونبوته في خاتمتها. وفهمنا أن محمداً (ص) لم يتبن أحدا في رسالته ونبوته، وليس ثمة من يحق له أن يقول إن محمداً (ص) علمه أسرار الرسالة والنبوة وأعطاه الحق والقيومية بشرح هذه الرسالة والنبوة للناس من بعده.

إن فهمنا الصحيح للآية على الوجه الذي شرحناه، يؤكد ماطرحناه في بحث الشاهد والشهيد، من أنه بعد انتهاء عهد النبوة بدأ عهد الشهادة. فالشهداء بديلو (ورثة) الأنبياء إلى أن تقوم الساعة ولكن بدون وحي. أي أن جدل الشهيد الشاهد،

والشاهد الشهيد، والشاهد الشاهد، والشهيد الشهيد، هو المجال الوحيد الموجود أمامنا لفهم الرسالة والنبوة، وأنه لاوصية لأحد ولاعصمة لأحد، ولاقهر لأحد تحت باب الاجماع، فعهد النبيين والصديقين انتهى، ونحن الآن في عهد الشهداء والصالحين، والاجتهاد هو الحل الوحيد أمام الناس الأحياء شهداء عصرهم شاهدي المعلومات التي توصلت إليها الانسانية حتى عصرهم، ولانرى حلاً آخر. إذ كل حل آخر لابد أن تدخل فيه ظاهرة الهامانية والوصاية.

لننظر الآن في التعريفات التالية :

١ - **الأم الواضعة** - أي الحاضنة التي حملت الجنين في رحمها ووضعته - من المحارم بغض النظر عما إذا كانت هي صاحبة البويضة أم لا. (أي بغض النظر أهي أم أم لا).

٢ - **الأم المرضعة** - من المحارم، حتى لو لم تكن هي ذاتها الوالدة.

٣ - **أم المؤمنين** - من المحارم، رغم أنها ليست والدة.

٤ - **الأم المربية** - في حالة كونها ليست الوالدة - متى تكون من المحارم، ومتى لاتكون.

٥ - **الأب الوالد** ← صاحب الحيوان المنوي + القصد والرعاية أثناء الحمل. فإذا كان صاحب الحيوان المنوي فقط، فهو الوالد فقط، وليس الأب الوالد.

٦ - **الأب بالتبني** - هو أب، فمتى يكون من المحارم ومتى لايكون.

٧ - **الأب المربي** - ليس من المحارم، فأستاذ الموسيقى أب لطلابه، واستاذ الرياضة أب لتلاميذه، والزعيم السياسي البارز هو أب للشعب وليس والده، لكن هذا لاعلاقة له بالمحارم والإرث.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : متى تكون الأم المربية من المحارم، ومتى يكون الأب المربي من المحارم ؟

أي ماهي الشروط التي يجب أن تتوفر في الأم المربية حتى تدخل في محارم النكاح كالأم الوالدة، والأم المرضعة، وأم المؤمنين. والشروط التي يجب أن تتوفر في الأب المربي حتى يصبح في عداد محارم النكاح كالأب الوالد ؟

ماهي شروط التبني (اتخاذ الولد)؟ وهل في التنزيل الحكيم مايدل أو يشير إليها؟ وبخاصة بعد أن تبين لنا، من إعادة قراءة الآيات في الصفحات السالفة، أن للإنسان أكثر من أم (حاملة للجنين، مرضعة، أم المؤمنين) وكلهن من المحارم، وبعد أن رأينا كيف يفرق التنزيل بشكل لالبس فيه بين الوالد والأب.

وحين يقرر التنزيل الحكيم وجود ولد مولود، وولد متخذ، ثم نقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين ..** ﴾ النساء ١١.
- ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ..** ﴾ الحديد ٢٠.
- ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً ..** ﴾ آل عمران ١٠.

نفهم حتماً أنه سبحانه يعني النوعين من الأولاد (بالولادة وبالاتخاذ) طالما أن اللفظ جاء عاماً مطلقاً لاتخصيص فيه.

وحين يقرر التنزيل الحكيم وجود أب والد، وأب مرب، وأب بالاتخاذ ثم نقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **.. ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ..** ﴾ النساء ١١.
- ﴿ **.. فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ..** ﴾ النساء ١١.

نفهم حتماً أنه سبحانه يعني الأبوين بكل أنواعهما، وليس الأبوين الوالدين حصراً، وإلا لقال "والداه" و "والديه".

ونفهم من قوله تعالى ﴿ **.. آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً..** ﴾ النساء ١١، يعني الأبوين والأجداد صعوداً، والأولاد والأحفاد نزولاً ذكوراً

وإناثا. أي أن الحفيد يرث من جده لأبيه أو أمه حتى ولو كان أبواه متوفيان. وكذلك الجد يرث من أحفاده بعد وفاة الأبوين.

هنا تتضح لنا المأساة بكل جوانبها، حين نرى أن الخلط بين الأبوين والوالدين، وعدم التفريق بينهما بدقة كما فرق التنزيل الحكيم، لايقتصر على شكليات سطحية تتمثل في اسم والد إبراهيم، أهو آزر أم تارح، وفي اسم زيد، أهو ابن حارثة أم ابن محمد، بل يمتد أثرها لتنعكس خلطا على : محارم النكاح ـ وإبداء الزينة ـ وأنصبة المواريث.

١- التبني (اتخاذ الولد)

لنبدأ بالشروط التي يصبح بها الولد المتبنى (بالاتخاذ) كالولد بالولادة من حيث المحارم (نكاح وزينة) ومن حيث الارث. ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير** ﴾ لقمان ١٤.

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين** ﴾ الأحقاف ١٥.

- ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما** ﴾ الاسراء ٢٣.

ونلاحظ أنه سبحانه ذكر الفصال في حالتين:

الأولى : حملته أمه وهناً على وهن ⟵ وفصاله في عامين

الثانية : حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ⟵ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً

الفصال في الحالة الأولى في عامين بعد الولادة، والحمل وهناً على وهن فذكر حالة الضعف، أي أن كامل الحمل هنا تسعة أشهر.

والحمل والفصال بالحالة الثانية ثلاثون شهراً، وبما أن الفصال معرف بعامين، أي بأربعة وعشرين شهراً، تبقى للحمل ستة أشهر، وهي الحد الأدنى للفترة التي يتمها الجنين في رحم أمه، يصبح بعدها قابلاً لأن يولد ويستمر في الحياة. أي أن لدينا حداً أعلى للحمل في الحالة الأولى:

الحد الأعلى للحمل = ٩ أشهر ⟵ الفصال في عامين ⟵ ﴿ **وهناً على وهن** ﴾.

وهنا الوهن الأول هو فترة الحمل كحد أدنى، والوهن الثاني هو فترة الحمل كحد أعلى.

ولدينا حد أدنى للحمل في الحالة الثانية:

الحد الأدنى للحمل = ٦ أشهر ⟵ الفصال في عامين ⟵ ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً** ﴾.

إلا أن المطلوب من الانسان في الحالتين أن يشكر لله وللوالدين. ونفهم من ورود مصطلح الوالدين هنا، أن الوليد تربى عندهما قبل الفصال وبعده، بدليل قوله في الحالة الأولى ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك** ﴾ والأمر بالشكر هنا تكليف، والتكليف لايكون إلا لواع عاقل، يعرف الشكر ويعرف الله ويعرف الوالدين. وبدليل قوله صراحة في الحالة الثانية ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة** ﴾ ففيها من الوضوح مايغني عن الاسترسال. ثم تأتي آية الاسراء ٢٣، لتؤكد أن المخاطب مكلف واع عاقل

يعرف والديه اللذين قاما بتربيته قبل الفصال وبعده. لننتهي بعد هذا كله إلى القول بتطابق الوالدين مع الأبوين في الآيات الثلاث.

لننظر الآن في معنى الفصال. فالفصال من فصل، يعني الفصل بين شيئين، مرحلتين أو آيتين، كقوله تعالى (آيات مفصلات) ومنه يوم الفصل، أي يوم القيامة، والقول الفصل، أي التنزيل الذي يفصل الحق من الباطل. ويعني أيضا التمييز بين الأشياء وشرحها، كقوله تعالى: ﴿ .. **ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ..** ﴾ يوسف ١١١.

لقد غلب على فهمنا الفصال، بأنه الفطام عن الرضاعة التي تستمر عامين، وهذا صحيح من جانب واحد فقط. فثمة عشرات الملايين من الأمهات اليوم لاترضع أولادها من أثدائها، ولاتستأجر له المرضعات، بل يرضعنه حليبا حيوانيا مصنعا (نيدو، نستلة، ..). والفصال بداية لمرحلة جديدة ونهاية لمرحلة سابقة لها عند كل أطفال أهل الأرض، سواء رضعوا من أمهاتهم أم لم يرضعوا. هذه المرحلة الجديدة هي بداية تشكل الذاكرة عند الطفل مع بلوغه العامين، أما قبل ذلك فلا ذاكرة له البتة. ونقصد بالذاكرة هنا المعلومات التي يتم تخزينها ثم استرجاعها فيما بعد. إذ ليس ثمة إنسان يتذكر حدثاً حصل معه في سن ماقبل العامين. وكل الأحداث التي يسترجعها أطفال الدنيا في ذاكرتهم بعد أن يكبروا، هي أحداث حصلت لهم بعد سن العامين من العمر. وهذا يؤكد معنى قوله تعالى (أن اشكر لي ولوالديك) أن الوالدين دخلا ضمن دائرة وعي الولد، وأصبح يعرفهما كأبوين أيضاً. والفصال من الناحية العلمية أيضاً يعني الفصل بين الذات والموضوع عند الطفل، أي أن الطفل ابتداء من سن العامين يميز نفسه عن بقية الأشياء (يفصل نفسه)، فيميز ذاته أنها شيء عن ذات أمه على أنها شيء آخر.

هنا يتبين لنا أن التبني (اتخاذ الولد) له علاقة وثيقة بالفصال. أي له علاقة بدائرة الوعي ومخزون المعلومات في الذاكرة لدى الولد المتبنى. فإذا تم التبني في سن العامين

وماقبل، يكبر الولد وليس في دائرة وعيه وذاكرته إلا أبويه بالتبني، ويكون لهما نفس حكم الوالدين، حتى ولو لم يلداه، لأنهما الوحيدان ضمن دائرة وعيه، ولافرق بينهما وبين والديه، بالبر والاحسان والحرمة وإبداء الزينة والإرث.

إذا توفي والدان مثلاً بحادث سيارة، ونجا ولدهما الذي لم يبلغ الثانية من عمره بعد، فأخذه رجل وامرأة وقاما بتربيته ورعايته بعد تبنيه، صارا المعنيين بوصية الله تعالى بالوالدين في تنزيله الحكيم، وأصبحا مشمولين بجميع الأحكام التي نزلت في الوالدين والأبوين، سواء أرضعته أمه الجديدة أم لم ترضعه، وعلى رأسها أحكام حرمة النكاح في قوله تعالى ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم ..** ﴾ النساء ٢٣، وأحكام إبداء الزينة في قوله تعالى ﴿ **.. ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن..** ﴾ النور ٣١، وأحكام الارث في قوله تعالى ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم .. ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه..** ﴾ النساء ١١.

يقول تعالى ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم ..** ﴾. ورغم أن الخطاب موجه للذكور، والآية تعدد النساء المحرم نكاحهن، إلا أنها تشمل الخطاب للإناث، وكأنه سبحانه يقول (حرم عليكن آباؤكن). ونلاحظ أنه لم يقل (والداتكم)، ليدل بذلك على شمول الأم الوالدة والأم الحاملة والأم الواضعة والأم المرضعة والأم المتبنية. وليدل بالتالي مع الإناث على الأب الوالد والأب المتبني. وإذا تابعنا قراءة هذه الآية نصل إلى قوله تعالى ﴿ **.. وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ..** ﴾ فإذا كان الإحتمال الوحيد للأبناء هو أن يكونوا من أصلاب الآباء فتصبح جملة (الذين من أصلابكم) حشوا، وهذا يعني بالضرورة أن هناك أبناء ليسوا من الأصلاب، والأبناء هم الولد وولد الولد نزولاً، والآباء هم الأبوين والجدين صعودا. فهذا يعني أن حليلة الإبن الذي من صلب أبيه (أب ووالد) محرمة في النكاح على الوالد الأب، أما حليلة الإبن بالتبني فهي غير محرمة على الأب غير الوالد.

ويقول تعالى ﴿ .. **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن** .. ﴾. ونفهم أن الأب المتبني الذي يتبنى أنثى في السنتين ومادون من العمر، له مالللأب الوالد من إظهار ابنته المتبناة لزينتها أمامه، بدليل قوله تعالى ﴿ .. **آبائهن أو آباء بعولتهن** .. ﴾.

ويقول تعالى ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم .. ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك .. فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه** .. ﴾ ونلاحظ أنه خص بالذكر الأبوين وليس الوالدين، ونفهم أن الارث للأبوين سواء بالولادة أو بالتبني، وليس للوالدين حصراً.

ونعدد هنا مانراه من حالات تنطبق عليها شروط التبني :

١ - فقدان الوالدين في حادث تاركين أولاداً دون الثانية من العمر.

٢ - اللقطاء الذين رماهم والداهم بعد الولادة لأي سبب كان (الزنا، الفقر).

٣ - الكوارث الطبيعية والحروب التي تخلف أطفالاً، يمكن تبني من لم يتجاوز الثانية.

ونقف عند قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ الأحزاب ٤، ٥.

ونكاد نسمع صياح الاحتجاج على ماذهبنا إليه في الصفحات السابقة، وبالقائل يقول: ها إن الله سبحانه يمنع التبني بقوله ﴿ .. **وماجعل أدعياءكم أبناءكم** .. ﴾ وبقوله ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ..﴾، وأمامنا خبر زيد بن حارثة خير دليل على هذا المنع. ونقول نحن: هذا صحيح، فلقد صدق الله وصدق التنزيل في إبطال أبوة محمد (ص) لزيد، لكن هذا الابطال جاء لكون التبني في حالة زيد باطلاً، وليس لأن التبني ذاته من حيث المبدأ باطل. وإلا لتناقض هذا الحكم إذا ماأطلقناه وعممناه، مع

كل ماشرحناه من آيات في الصفحات السابقة، تعالى ا لله عن التناقض وتنزه عن التضاد.

هناك مئات الحالات المشابهة التي لايجوز فيها التبني، ذكر التنزيل الحكيم اثنتين منها، حالة يوسف وحالة موسى، وذكرت كتب الأخبار حالات منها، حالة زيد بن حارثة وحالة زياد بن أبيه، وحالة المقداد بن الأسود.

حالة زيد وحالة يوسف، من حالات التبني الباطل، بينهما وجوه شبه، ولابد لفهمهما من التوقف عند مصطلح الغلام.

غلم : الغين واللام والميم، أصل صحيح يدل على حداثة وهيج وشهوة. من ذلك الغلام، وهو الشاب الطار الشارب. والجمع غلمة وغلمان. ومن بابه اغتلم الفحل غلمة : هاج من شهوة الضراب. والغيلم الجارية الحدثة. والغيلم الشاب. والغيلم ذكر السلاحف (ابن فارس ج٤ ص ٣٨٧).

ولقد ورد هذا المصطلح في التنزيل الحكيم يحمل معاني، لاتخرج كلها عن المعنى الأصلي:

١ - الغلام هو المولود الذكر في قوله تعالى ﴿ **يازكريا إنا نبشرك بغلام ..**﴾ وقوله تعالى ﴿ **قالوا لاتوجل إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **قالت أنى يكون لي غلام ..**﴾.

٢ - الغلام هو الذكر الذي بلغ سن النضوج الجنسي (طر شاربه) ويعرف تماماً والديه وأبويه، كيوسف في قوله تعالى ﴿ **فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال يابشرى هذا غلام ..** ﴾. وهذا ينطبق على الغلام وعلى الغلامين بخبر موسى في قوله تعالى ﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ..** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً ..**﴾.

كان يوسف غلاماً، حين وصل إلى مصر مع القافلة التي أخرجته من الجب ثم باعته، في سن ناضجة يعي فيها أباه الوالد يعقوب بدليل قوله له ﴿ .. **ياأبت إني رأيت أحد عشر كوكباً** ﴾.

وكان في سن يعي فيها إخوته، ويستطيع فيها أن يقص مايراه في أحلامه على أبيه، بدليل قول أبيه له ﴿ **يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك** ﴾.

وكان قد جاوز الفصال، وصار بإمكانه أن يرتع ويلعب مع أقرانه، بدليل قول إخوته لأبيهم ﴿ **أرسله معنا غداً يرتع ويلعب** ﴾.

وكان في سن استطاع بما اختزن في ذاكرته خلالها أن يتذكر أخوته ويتعرف عليهم بدليل قوله تعالى ﴿ .. **فدخلوا عليه فعرفهم** .. ﴾.

وكان في سن لم يستطع أبوه الوالد أن ينساه معها، بل ظل يبكيه ويأمل بعودته. بدليل قولهم له ﴿ **تا لله ماتفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً** ﴾ وبدليل قوله لهم ﴿**يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه** ﴾.

لهذا كله .. ولأن الله ماجعل لرجل من قلبين في جوفه، فقد أتى الحكم ببطلان هذا التبني، وببطلان جواز ما قاله الذي اشتراه في مصر لامرأته ﴿ **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً** ﴾.

وننظر في حالة زيد، فنراه يؤسر غلاماً في إحدى الغزوات، ثم يباع في عكاظ، فيشتريه حكيم بن حزام للسيدة خديجة. وكان زيد في سن ناضجة يعي معها أهله وقومه بدليل قوله لأناس من كلب رأوه في الحج : أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي :

أحن إلى أهلي وإن كنت نائيا

فإني قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا عن الوحد الذي قد شجاكم

ولاتعملوا في الأرض نص الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة

كرام معدّ كابرا بعد كابر

ونراه في سن يستطيع معها أن يتذكر والده وعمه بدليل سؤال الرسول وجوابه عليه (.. فدعاه فقال أتعرف هؤلاء ؟ قال نعم هذا أبي وهذا عمي).

وكان قد جاوز الفصال، وصار بإمكانه حتى أن يخدم الآخرين، بدليل أن ابن حزام اشتراه عبداً للخدمة.

ورأينا أباه ينشد حين فقده :

بكيت على زيد ولم أدر مافعل

أحي يرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً

أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

تذكرنيه الشمس عند طلوعها

وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره

فيا طول ما حزني عليه ويا وجل

ونراه في سن ناضجة، يستطيع معها أن يميز الأشياء، ويزينها، ثم يختار منها، بدليل قول الرسول له (فاخترني أو اخترهما). فاختار زيد الرسول على أبيه وعمه، وأشهد الرسول من حضر في الحجر أن زيداً ابنه يورثه ويرث منه. (١)

لهذا كله .. ولأن الله ماجعل لرجل من قلبين في جوفه، فقد نزل الحكم مع نزول الرسالة والنبوة يبطلان هذا التبني الجاهلي.

---

(١) انظر ترجمة زيد بن حارثة في " الاصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر، وفي " الاستيعاب في معرفة الأصحاب " لابن عبد البر .

يبقى ثمة تفصيل تختلف معه حالة زيد عن حالة يوسف، هو أن إبطال أبوة الرسول لزيد جاء به الوحي الأمين (الأحزاب ٤، ٥)، أما في حالة يوسف، فقد أتى الإبطال من أرض الواقع، ونقرأ قوله تعالى :

- **﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾** يوسف ٢٣.
- **﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .. ﴾** يوسف ٢٤.

نحن هنا أمام شاب بلغ أشده، يعي أهله واخوته وأبويه، ويدرك تماما أن المرأة التي أمامه ليست أمه، وأن الرجل الذي أحسن إليه وآواه ليس أبيه ولا والده. ويتهاوى التبني المزعوم أمام حقيقة الواقع، حين لايرد هذا الشاب عن المرأة التي تراوده عن نفسه، إلا إحسان زوجها إليه، ثم برهان ربه.

لقد استهل تعالى آية الأحزاب ٤ بقوله **﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**، ونحن نعلم أن القلب مركز الوعي والعقل (القشرة الخارجية للدماغ)، ومركز العواطف والأحاسيس والهوى، أي أن الانسان لايمكن أن يكون له إلا أب واحد قد يكون الوالد وقد لايكون.

وينتقل سبحانه بعد أن شرح في العبارة الاستهلالية كيف خلق للانسان قلباً واحدا لاغير، إلى عبارة أخرى تقرب المعنى المقصود من أذهان السامعين، مستعيناً بظاهرة معروفة عندهم، متفشية بينهم، تمت معالجتها في آيات أخرى من التنزيل، هي المظاهرة، فيقرر بأسلوب حاسم أنه **﴿ وماجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾**.

وينتهي في عبارة لاحقة إلى الحكم الذي يريد الوصول إليه، بقوله **﴿ وماجعل أدعياءكم أبناءكم ﴾**. ولايملك القارىء إلا أن يقف أمام " الجعل " المتكرر مع كل

عبارة (ماجعل .. وماجعل .. وماجعل ..) وهو يقرأ التعليق الالهي على ذلك كله (ذلك قولكم بأفواهكم).

ونفهم أنه سبحانه يحتكم إلى قلوبنا ذاتها، لنقتنع بأن قوله الحق، حين ننظر صادقين في وعينا وما استقر فيه من عواطف، بدليل قوله تعالى (بأفواهكم).

ونفهم أنه سبحانه يبين لنا أن القول بالأفواه لايكفي، في حالات الحرمة وإبداء الزينة والارث، لإضفاء الشرعية عليها. فإذا قال رجل لامرأته : أنت علي حرام كظهر أمي، أو قال رجل لأي امرأة : أنت أمي، فهذا لايعني أبداً أنها حرمت عليه، وأن لها أن تبدي زينتها أمامه، وأنها ترثه، وأنه يرثها. وإذا قال رجل لغلام : أنت ابني، فهذا لايعني أبدا أنه يرثه، وأنه دخل بقوله هذا ضمن محارم الغلام.

ونفهم أنه سبحانه يسمح لنا أن نطلق ألقاب الأمومة والأبوة كما نشاء ونحب، شرط ألا تترتب على ذلك مسؤوليات محارم نكاح وإرث، فنسمي الشافعي أبا الفقه، ومدام كوري أم الراديوم، وزعيمنا المحبوب أبا الشعب، على ألا يعني ذلك أن كل نساء الشعب أصبحن من محارمه، وعلى ألا يعني ذلك أن للشعب أن يرثه ويورثه، وإلا تحول هذا القول إلى منكر وزور.

وبعد ذلك كله، جاءت آية الأحزاب ٥، لتعطينا الحل. والحل أنه إذا كان للغلام أب والد داخل ضمن دائرة وعيه، وحصل التبني والغلام واع لهذا التبني عند حصوله، فالتبني باطل، والغلام ليس بابن، وعلينا في هذه الحالة (حالة زيد) أن ندعوه لأبيه الوالد، أما إذا لم نعرف له أباً فهو أخونا في الدين، له علينا حق الرعاية والولاء، دون الدخول في المحارم والإرث، وهذا بالضبط ماذهب إليه الرسول الأعظم حين تزوج زينب بعد أن طلقها زيد.

هذه الحالة تنطبق الآن على جميع الأطفال الضائعين، فإذا فقد أبوان ولدهما في حادثة ما، فإن لدينا احتمالين :

١ - أن يكون هذا الولد قد تجاوز سن الفصال، وعلى من يجده أن يربيه ويعتني به كأخ ومولى، سواء عرف والداه أم لم يعرفا. فإذا ظهر الوالدان وطالبا به، فعليه أن يعيده إليهما، لأنه بالأصل مفقود ووالداه يبحثان عنه.

٢ - أن يكون هذا الولد دون سن الفصال، وهنا يحق لمن يأخذه أن يتبناه، فيدخل ضمن المحارم والإرث. ويبقى عليه أن يعلم السلطات بذلك لينشروا خبره، لعلهم يعثرون على والديه إن كان ضائعاً. فإن لم يظهر له والدان يطالبان به، أي كان لقيطاً، فله أن يتبناه ويربيه فيدخل الطفل في دائرة محارم وإرث المربي، بعد أن يكبر ويعيه، ويدخل المربي في دائرة محارم وإرث الطفل بعد أن يكبر. فإذا ظهر الوالدان بعدها، فإن لهما أن يأخذاه، أو يخيراه. لكنه مهما كانت نتيجة الاختيار يبقى ضمن حرمة النكاح وإبداء الزينة للمربي، ويخرج من الإرث.

٢- شروط التبني

لقد ورد التبني واتخاذ الولد في التنزيل الحكيم، لكن التنزيل وضع كما رأيناه شروطا لمن يريد أن يتخذ ولداً يرثه ويدخل في محارمه، ويصبح له على هذا الولد ماللوالدين من حقوق البر والاحسان. الشرط الأول :

١ - يتم التبني قبل سن الفصال، أي قبل أن يدخل الولد دائرة الوعي، لتتحقق الحرمة، ويكتمل مفهوم رضا الوالدين. لأنه إذا كانت للأم المرضعة حرمة (في النكاح وإبداء الزينة)، حتى في وجود الأم الوالدة وبعلمها، وحتى لو لم يتجاوز عدد الرضعات الثلاث أو العشر، أفلا تتحقق هذه الحرمة للأم المربية التي تعهدته ورعته ودفعت أجور مرضعته، ودخلت دائرة وعيه حين يكبر على أنها أمه؟

قال تعالى في استهلال آيتي لقمان ١٤ والأحقاف ١٥ ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه** ﴾ ، ثم مضى يعرف الوالدين. فالوالدان هما الحمل (إلقاح الوالد الذكر للأم

الأنثى + مشاركته لها بالمسؤولية ورعايته لها خلال حملها) والوالدان هما نفسهما حتى سن الفصال الذي يشارك فيه الأب الذكر والأم الأنثى. لكنه حين تحدث عن البر، ذكر أمراً هاماً جداً، ورد في قوله تعالى :

- ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ الاسراء ٢٤.

هنا لم يذكر اللقاح والحمل والوضع، بل ذكر التربية (كما ربياني). وكان قد سماهما الوالدين في الآية التي سبقتها (الاسراء ٢٣).

هذا يدلنا على أن الوالدين بالتربية، في حكم الوالدين بالولادة في التنزيل الحكيم. ويدلنا على أن القائم على تربية الصغير قبل سن الفصال، هو في حكم والده ووالدته، وله حق البر كما للوالدين تماماً، ويدخل في دائرة المحارم والإرث عند الربيب الصغير بعد أن يكبر. فالوالدان اللذان ولدا وربيا هما والدان وأبوان، والأبوان اللذان ربيا دون أن يلدا أبوان لهما حكم الوالدين.

الوالدان الأبوان = ولادة + تربية حتى سن الفصال ومابعد.

الأبوان = تربية (شرط بدئها قبل سن الفصال)، لهما حكم الوالدين في البر والحرمة والإرث.

ولادة فقط = ليسا بأبوين إذا كانا مجهولين والولد لاضائع ولا مفقود. هنا لا بر ولا حرمة ولا إرث.

١ - ونرى أن حالة التبني هذه تنطبق على اللقطاء. ففي المدن الكبرى مئات بل الآلاف من اللقطاء سنوياً، رماهم من أنجبهم وكان السبب البيولوجي في وجودهم. لكننا نرى أن من يرمي وليده في حديقة، أو في حاوية قمامة، لايستحق لقب أم أو أب، لامن الناحية الأخلاقية ولا الاجتماعية ولا الانسانية. ورغم أنهما والدان بالمعنى البيولوجي، إلا أنهما لاشيء عند الوليد، لأحد، وليس لهما بر ولا حرمة ولا إرث.

فإذا تم التبني في هذه الحالة لأحد هؤلاء اللقطاء، فلا تبحثوا عمن كان سبب وجوده، بدافع التحرز من الوقوع في المحارم، فهم لاأحد، ولاتتعبوا أنفسكم بالبحث عنهم، فهم لاشيء، ولاتعيروا هذه الناحية أي اهتمام، وكل من يشغل نفسه وغيره بذلك، هو إنسان لم يقرأ قوله تعالى :

- ﴿ .. **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم، وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ الأحزاب ٥.
- ﴿ .. **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ..** ﴾ البقرة ٢٨٦.

فالإصر والاغلال أمران بعيدان عن الاسلام، وغير مطلوب من لقيط، بعد تبنيه وبلوغه أشده، أن يبحث عمن كان سبباً بيولوجياً في وجوده، وأن يقضي عمره في هذا البحث، خوفاً من أن ينكح والدته أو أخته وهو لايدري. نقول ليس مطلوباً ذلك منه، لأن من يبحث عنه لا أحد .. فوالدته ليست والدة، ووالده ليس أباً وليس والداً، ولاحاجة لإضاعة أي وقت في ترهات وعبث، فالتي ربته وتبنته هي أمه، وأختها خالته، وزوجها أبوه .. الخ.

ولابد من الاشارة إلى أمر هام جداً، هو أن هذا اللقيط قد يكون ابن زنا، وقد لايكون. فالكائن البشري وليد البيولوجيا، والانسان وليد التربية، والالقاح بين الذكر والأنثى يبقى هو ذاته سواء في الزنا أو النكاح الشرعي. وعلينا أن نعي أن الانسان لايحمل أوزار من كان سبب وجوده البشري، وأن من يعير إنساناً بأنه لقيط، أو ابن زنا، هو انسان كافر بعدالة الله كافر بتعاليمه.

- ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى** ﴾ النجم ٣٩، ٤٠.
- ﴿ **وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ النجم ٣٧، ٣٨.

فإذا قامت محاسبة الناس على الألقاب والأحساب والأنساب، فهذا كفر بيوم الحساب الآخر، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فلا أحساب ولا أنساب، وكل إنسان مسؤول عن نفسه.

- **﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾** عبس ٣٣ - ٣٧.

٢ - في حالة وجود أطفال دون الثانية من العمر توفي والداهم في حادث أو حرب أو كارثة، وكان الأبوان الوالدان معروفين من قبل المجتمع، تستطيع أي عائلة أن تتبنى أحدهم، طالما مازال لم يدخل مرحلة الوعي، فيصبح للطفل عائلتان من المحارم، إذ بعد أن يكبر ويعي أبويه الجديدين، عليهما أن يخبراه عن عائلة والديه المتوفيين، لتدخل في دائرة محارمه. أما من حيث الإرث، فقد ورث الأطفال عند وفاة والديهم ولو كانوا صغاراً، ثم يدخلون في دائرة إرث الأبوين الجديدين (وورثه أبواه) + ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾. وهذان هما الخطان الرئيسيان للتبني، ويمكن أن تتفرع عنهما حالات خاصة.

أما حالات وفاة أحد الوالدين الأبوين مع بقاء الآخر، فلا تدخل في التبني إلا ضمن شروط التبني المذكورة أعلاه.

١ - حالة وفاة الأب الوالد مع بقاء الأم الوالدة على قيد الحياة : وهذه هي حالة اليتم. فاليتيم هو فاقد الأب. وقد يكون دون سن الفصال، أو دون سن الرشد كما في قوله تعالى **﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده .. ﴾** الأنعام ١٥٢. وقوله تعالى **﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما.. ﴾** الكهف ٨٢.
ونجدنا في حالة فقد الأب هذه أمام أربعة احتمالات فرعية :

الاحتمال الأول : الأيتام كلهم فوق سن الفصال ودون مرحلة (حتى يبلغ أشده)، وهنا التبني لايجوز. وتحل التعددية الزوجية المشكلة لأن ا لله أباح تعدد الزوجات من أجل الأيتام ورعايتهم، فللأم الوالدة الأرملة أن تتزوج، شرط أن يبقى أولادها معها، وعلى الزوج أن يرعاهم رعايته لأولاده وينفق عليهم، وتكون له بذلك حرمة االوالد دون إرث أي لايرثهم ولايورثهم، واذا كان عندهم أموال، ينفق عليهم من أموالهم، وعلى نفسه بالمعروف.

الاحتمال الثاني : الأيتام كلهم دون سن الفصال. هنا للأرملة أن تتزوج (التعددية الزوجية)، على أن يبقى أولادها معها، أو أن تتزوج رجلاً غير متزوج، على أن يبقى أولادها معها، وللزوج الجديد أن يتبنى أولادها حتى لو كان عنده أولاد، ويرثهم ويرثونه، إذا رغب هو ورغبت الأم بذلك. ليصبح لدى الأولاد عائلتان من المحارم، عائلة الوالد المتوفى، وعائلة الأب المتبني.

الاحتمال الثالث : الأيتام قسمان، قسم دون سن الفصال، وقسم تجاوزها. أما من تجاوزها فلا يجوز تبنيه، وأما من هو دونها فيجوز تبنيه على أن تقبل الأم، تماماً كما ورد في الاحتمال الثاني.

الاحتمال الرابع : الأيتام كلهم فوق سن الفصال وسن الرشد. هنا الأولاد لايعتبرون أيتاماً أصلا، والأم أرملة فقط.

٢ ـ حالة وفاة الأم الوالدة مع بقاء الأب الوالد على قيد الحياة.

فاقد الأم / اللطيم، فاقد الأم والأب/ العجي. ففي هذه الحالة يمكن للأب أن يتزوج فتصبح زوجته الجديدة من محارم أولاده وليس لها إرث منهم و لها بر إذا شاركت في تربيتهم. أما فاقد الأم والأب فيمكن تبنيه إذا كان دون سن الفصال ويصبح له عائلتان إذا كان الأبوين معروفين وإلا فهو لقيط.

ثمة أمر نختم به بحثنا، لايجب أن يغيب عن بالنا أبداً، هـو أن الانسـان لايمكـن أن يكون له إلا أم واحدة لها الارث والحرمة والبر معاً، قد تكون الوالدة وقد لاتكون، فـإذا كانت الأم هي الوالدة صاحبة البويضة والرحم والفصـال والرضاعـة، كـان للانسـان أم واحدة ووالدة واحدة هي المحرمة الوحيدة. أما إذا لم تكن والدته، فهي أمه الـتي وعاهـا عندما دخل دائرة الوعي، وتدخل في المحارم والارث والبر.

٣- النكـاح والإلقـاح

يعتبر التمييز بين النكاح والإلقاح من الأهمية بمكان، لأننا انطلاقـاً منـه يمكـن أن نعرف: الزواج ـ ملك اليمين ـ الزنا ـ المحارم.

النكاح هو عملية اتصال جنسي بين ذكر وأنثى بـالغين جنسـياً (رجـل وامـرأة)، بغض النظر عن كون النكاح بعقـد شـرعي (زواج) أو بـدون عقـد شـرعي (فاحشـة). يسبق هذه العملية ويتخللها، عرض لعواطف الود والحـب المتبادلـة بـين طـرفي النكـاح. ولهذا، فهو ليس بمجرد اتصال جنسي، بل هو اتصـال عـاطفي أيضـاً. وهـذا هـو الشـكل الكامل للنكاح.

فإذا اقتصر النكاح على الاتصال الجنسي الجسدي بموافقـة الطرفـين فهـو فاحشـة وإن كان علناً (أربعة شهداء) فهو زنا، وإذا كان مقابل مال أي بدون أي عواطف فهـو بغاء، وإذا اقتصر على عواطف الود والحب دون اتصال فهو الحب العذري.

والنكاح بشكله التام حب غير عذري، أي هو حب وعواطف بـين ذكـر وأنثـى بالغين، يبلغ ذروته بالاتصال الجنسي، وهذا من أعظم هبات رب العـالمين لعبـاده، وهـو من الطيبات.

أما الإلقاح فعملية تتم حين يقوم الحيوان المنـوي المذكـر النـاضج بتلقيـح البيضـة الأنثوية الناضجة، فيتشكل الجنين نتيجة لهـذا الإلقـاح في رحـم الأم بشـكل آلي، بغـض

النظر عن طريقة وصول الحيوان المنوي المذكر إلى البيضة الأنثوية، أهي بالنكاح أم بدون نكاح، وبغض النظر عن كون النكاح زواجاً شرعياً أم فاحشة.

التقدم في علوم الجينات (المورثات) والجنين، والمعلومات الطبية لآلية الجنس عند الرجل والمرأة، أعطانا معارف لم تكن متوفرة من قبل عند الفقهاء تمكنا معها من الفصل بين مفهوم النكاح ومفهوم الإلقاح. فنحن نفهم اليوم كيف يمكن أن يحصل الإلقاح دون نكاح، ودون أي اتصال جنسي بين الرجل والمرأة، بل دون أن يعرف أحدهما الآخر. ونفهم أن مسألة المروءة والشهامة وصون العرض، كما هي بشكلها الشائع في المجتمعات العربية والاسلامية، مسألة تتمركز حول النكاح وليس حول الإلقاح. ونفهم قوله تعالى حين يقول عز من قائل ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ النور ٣. فهو إنما يتحدث عن جانب النكاح الجنسي كعملية اتصال جسدي، وليس عن الإلقاح. ونفهم أخيراً أن النكاح، أينما ورد في التنزيل الحكيم، فهو يرد في مقام الجنس والعلاقات الجنسية الجسدية، شرعية بعقد أم غير شرعية بفاحشة. ونستنتج من هذا كله أننا في العلاقات الجنسية أمام ثلاثة احتمالات:

١ - نكاح مع إلقاح.
٢ - نكاح دون إلقاح.
٣ - إلقاح دون نكاح.

ننتقل الآن لنشرح باختصار آلية الجنس والإلقاح عند الرجل والمرأة من الناحية البيولوجية، لنمضي بعدها في توضيح منعكس هذه العلاقة على الجانب الاجتماعي.

يتألف الجهاز الجنسي عند المرأة من الفرج والمهبل، بينما يتألف الجهاز التناسلي لديها من الرحم والمبيضين. والجهازان منفصلان عند المرأة فصلاً كاملاً. أي أن المرأة التي أجرت عملية جراحية، تم فيها انتزاع المبيضين والرحم بكاملهما، قادرة على الاتصال الجنسي والاستمتاع به، كما لو كانا موجودين.

إن فهمنا اليوم لانفصال الجهاز الجنسي عن الجهاز التناسلي عند المرأة جعلنا نفهم إمكانية الاحتمالات الثلاثة المذكورة أعلاه، وأصبح من الثابت لدينا وجود إلقاح بدون نكاح ونكاح بدون إلقاح، الأمر الذي لم يكن بوسع الأولين أن يفهموه، أو حتى يتصوروه. إذ لما كان الفرج والمهبل الطريق الوحيدة للرحم والمبيضين، أي أن الطريق الوحيدة للإلقاح هي النكاح، فقد كان بوسعهم أن يتصوروا نكاحاً دون إلقاح، لمعرفتهم بالعقم والعقر، أما الإلقاح دون نكاح، فكان خارج حدود تصوراتهم ومعارفهم.

آلية الجنس عند المرأة، مرتبطة بجهازها الجنسي، فالشهوة الجنسية عندها مرتبطة بالفرج وبالغدة النخامية في الدماغ. أما آلية التناسل عند المرأة، فمرتبطة بجهازها التناسلي (المبيضين والبوقين والرحم)، الذي يعمل لاإرادياً بعيداً عن الوعي، حيث يقوم المبيضان بتوليد البويضات، وتستبدل قديمها شهرياً ببويضات جديدة جاهزة للإلقاح.

هذه الحقيقة العلمية التي أصبحنا نعرفها اليوم، جعلتنا نفهم أن الاتصال الجنسي والشهوة الجنسية عند المرأة، تكمن في فرجها ودماغها (في تكوينها الجسمي كأنثى ونضوجها النفسي). ونفهم أن المرأة بالاتصال الجنسي لاتستمتع إلا إذا كانت راغبة بذلك، أي أنها لايمكن أن تستمتع بالرجل جنسياً إلا إذا دخل في وجدانها، وأن بإمكانها ممارسة الجنس والاتصال الجسدي دون أن تستمتع به (البغاء). ونفهم أخيراً أن هذه الميزة بالخلق، هي من أكبر الأسلحة التي زود بها الخالق سبحانه المرأة، لتحصن فرجها وتحفظ عفتها.

ونستنتج من هذا كله أن الإحصان هو للفروج فقط، وأن المرأة تكون محصنة بإحدى طريقتين :

١ً - الاحصان بالنكاح الشرعي، مع رجل يحصن فرجها بنكاحه لها (الاحصان الموضوعي) .

٢ً ـ الاحصان بالإرادة، وهو الذي نسميه اليوم "العفة" (الاحصان الذاتي)

تعمل آلية الجنس عند الرجل بشكل أوتوماتيكي لاإرادي بين الغدة النخامية والخصيتين لتوليد الحيوانات المنوية (البذور) آلياً وتخزنها في الحويصل المنوي. فحين تمتلىء هذه الحويصلة، تتولد الحاجة إلى تفريغها، مما ينتج عنه الهيجان الجنسي والانتصاب بأمر آلي من الغدة النخامية نتيجة زيادة التروية الدموية في الجهاز التناسلي عند الرجل (عضو الذكورة). والذكر في حالة الهيجان هذه يفقد السيطرة على نفسه، ولايهمه إلا اللقاء مع أنثى، أي أنثى، يفرغ عندها مخزونه، أي أن الرجل يتمتع بالاتصال الجنسي مع أي أنثى أحبها أم لم يحبها حلالاً أم حراماً عن طريق البغاء أو الحب. فإذا لم يتح له ذلك، تم التفريغ بطرق أخرى (الاحتلام أو الاستمناء)، ولاعلاقة لإرادته الواعية بذلك. نقول هذا، ونحن نتذكر بعض ماتتناقله العجائز في مجالسهن "حين يأتي المسا .. تتساوى كل النسا" و "حين يشتعل في الرجل الجمر .. تتساوى عنده القرعاء مع أم الشعر". بينما هذه غير موجودة عند المرأة، فعند المرأة لاتتساوى الذكور حتى لو طلبت الجنس.

من هذا كله، نصل إلى تمييز الحالات التالية عند الرجل :

١ ـ القدرة على النكاح و الإلقاح. و هي حالة اكتمال الجهازين الجنسي والتناسلي، واكتمال عملهما بعيداً عن كل علة أو طارىء أو مرض.

٢ ـ القدرة على النكاح دون الإلقاح. وهي حالة اكتمال الجهاز الجنسي، وإصابة الجهاز التناسلي المولد للحيوانات المنوية بمرض ما، كأن تكون الحيوانات المنوية ضعيفة غير قادرة على الإخصاب لأسباب مرضية عديدة، فالرجل هنا قادر على النكاح، عاجز عن الإلقاح والإنجاب. أو هي حالة الرجل المخصي بعد سن البلوغ والنضج الجنسي.

٣ ـ القدرة على الإلقاح دون نكاح. وهي عكس الحالة السابقة، أي حالة اكتمال الجهاز التناسلي، وإصابة الجهاز الجنسي بمرض أو طارىء. كأن تعمل الخصيتان بشكل سليم في انتاج البذور، مع وجود مايمنع الانتصاب في عضو الذكورة، مما ينفي القدرة على الجماع، وبالتالي وصول الحيوانات المنوية إلى حيث يجب أن تصل. وهذا حال العنين. أو مع عدم وجود عضو ذكورة على الاطلاق، وهذا حال المجبوب.

٤ ـ العجز عن النكاح والإلقاح. وهي حالة لاتحتاج إلى مزيد تفصيل.

وننتقل بعدها إلى تمييز الحالات التالية عند المرأة :

١ ـ القدرة على النكاح والإلقاح.

٢ ـ القدرة على النكاح دون الإلقاح. وهي اكتمال الجهاز الجنسي (الفرج) وإصابة أحد قسمي الجهاز التناسلي، أو كليهما، بمرض أو طارىء (المبيضين والبوقين والرحم)، ونميز هنا فروعاً أربعة:

أ ـ إصابة المبيضين، وفقدانها القدرة على توليد البويضات التي تحتضن الحيوان المنوي المذكر، مع سلامة الرحم.

ب ـ إصابة الرحم، وفقدان القدرة على احتضان الجنين، مع سلامة المبيضين.

جـ ـ إصابة الأقنية (البوقين) مع سلامة المبيضين والرحم.

د ـ إصابة المبيضين والرحم معا.

وننظر في الفروع الأربعة، فإذا كانت الاصابة قابلة للشفاء، فالمرأة عاقر. وإذا كانت غير قابلة للشفاء، فالمرأة عقيم. واقرأ معي قوله تعالى :

- ﴿ **قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً ..** ﴾ مريم ٨.

- ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ..** ﴾ الأنبياء ٩٠.

- ﴿ **فاقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** ﴾ الذاريات ٢٩.
- ﴿ **قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر ا لله ..** ﴾ هود ٧٢، ٧٣.

فزكريا يدعو ربه يطلب ولداً يرثه، لكن امرأته عاقر، أي فيها عارض من مرض أو غيره يمنعها الإنجاب، ثم نفهم أن هذا العارض قابل للشفاء بدليل قوله تعالى بعد أن يستجيب له ﴿ **.. وأصلحنا له زوجه ..** ﴾.

أما امرأة إبراهيم فقد وصفت نفسها بالعجوز العقيم. ونفهم أن السن له علاقة بالعقم، ولاعلاقة له بالعقر، فنحن لانقول عجوز عاقر. ونفهم أن العقر قابل للشفاء، أما العقم بسبب السن أو غيره فليس قابلاً للشفاء، ومن هنا أتى عجب امرأة إبراهيم. فالعقم بسبب العجز والشيخوخة قانون طبيعي مبرم، وعجيب عندها أن تلد وهذا القانون قائم سار، فجاء جواب الرسل شافياً كافياً مقنعاً ﴿ **أتعجبين من أمر ا لله** ﴾، أي تعجبين ممن خلق الزمن أن يوقفه .. وممن خلق القوانين أن يعطلها .. وممن خلق الخلق أن يعيده كما كان أول مرة ؟

كانت امرأة زكريا في سن مازالت فيه تستطيع الإنجاب، ومازال لديها دورة طمث شهرية، وأمورها طبيعية، لكنها عاقر تحتاج إلى علاج، فأصلحها له تعالى. أما امرأة إبراهيم فقد تجاوزت سن الحيض وتوليد البويضات، وأعقمت مبايضها الشيخوخة التي طالت حتى رفيقها في الإخصاب ﴿ **وهذا بعلي شيخاً** ﴾، فهي عقيم لاينفع فيها علاج ولا إصلاح، ولابد لها من "أمر إلهي" يخرج بها من قانونية الوجود.

ونفهم أن المرأة العاقر قابلة للنكاح، لكن لديها مايمنع الإلقاح. وأن المرأة العقيم قابلة للنكاح، غير قابلة للإلقاح البتة. ونستنتج من هذا كله أن العقر هو عدم الإنجاب المؤقت، وأن العقم هو عدم الإنجاب النهائي. وأن المرأة التي تبيض لكن رحمها لايحمل الجنين عاقر، وأن المرأة التي لاتبيض عقيم ولو كان رحمها سليماً.

بعد هذه المقدمة في آلية الجنس والتناسل عند الرجل والمرأة، نأتي لتعريف نكاح الزواج.

النكاح عملية اتصال جنسي لها غايتان. الأولى إرواء الشهوة والتماس المتعة، والثانية المحافظة على النوع. فإذا التقى رجل وإمرأة في عملية نكاح، توفرت فيها الغايتان (المتعة والإنجاب)، فهذا هو الزواج الذي يلزمه ميثاق زوجية وعقد نكاح.

وميثاق الزوجية وعقد النكاح ميثاق وعقد لهما طرفان، زوج (رجل ذكر بالغ) وزوجة (امرأة أنثى بالغة). ينظم العلاقة بين هذين الطرفين اللذين عقدا النية على العيش معا، محققين غايتين، الاحصان بإرواء الشهوات وتشكيل أسرة بالإنجاب. فيصبح نكاحهما، أي اتصالهما الجنسي الجسدي، شرعيا. ولقد أطلق التنزيل الحكيم مصطلح "زوج" على الذكر والأنثى، وأطلق مصطلح "الأزواج" على الذكور والاناث في قوله تعالى :

- ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ..** ﴾ البقرة ٣٥.
- ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ..** ﴾ الأعراف ١٨٩.
- ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ..** ﴾ التحريم ٥.
- ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ..** ﴾ البقرة ٢٣٢.

وهذا العقد لايصح، أي لايسري مفعوله، إلا بحصول النكاح، ولو لم يحصل الإلقاح. ويبقى العقد سارياً طالما أن طرفيه في عافية جنسية والنكاح قائم، ولو لم يحصل إلقاح. أما إذا لم يقع نكاح مطلقاً، سقط العقد و لم يعد له أي معنى.

ينعقد ميثاق الزوجية وعقد النكاح كما قلنا، بين طرفين يرغبان بتشكيل أسرة معا (زوجين) ثم (والدين)، وهدفه النكاح مع نية النسب والصهر. فإذا تبين بعد ذلك

عدم قدرة أحد طرفي العقد، أو كليهما أحياناً، على الإلقاح والإنجاب، مع القدرة على النكاح، أتى التبني ليحل عدداً من المشاكل دفعة واحدة. فهو يحفظ روابط الود والمحبة بين الزوجين، ويجنب الزوج تبعات الطلاق، ويحفظ الروابط متينة بين أسرتي الزوج والزوجة، التي قد تتأثر أو تنفصم بالطلاق، ويحقق للزوجين المتحابين حلم تشكيل عائلة وأسرة. ويبقى الهدف الأول للتبني (القائم على فصل النكاح عن الإلقاح)، هو إتاحة الفرصة أمام الزوجين لتشكيل عائلة وأسرة.

قلنا أن أساس العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة (الزوج والزوجة) هو:

١ - النكاح (الجنس).

٢ - الود والرحمة (الحب).

فإذا اختل أحد هذين الشرطين، كان ذلك مبرراً كافياً للطلاق. ونفهم أن الطلاق مبرر في حال التوقف عن النكاح بين الزوجين لسبب طارىء قبل سن الشيخوخة (مرض/سجن/فقدان) ، أو عدم وقوعه أصلاً، وأنه مبرر في حال انعدام الود والرحمة والحب بينهما، أما في حال عدم قدرة أحد الطرفين على الإنجاب، فالطلاق ليس مبرراً أبداً. وهنا قبل اللجوء إلى التبني، يتم فصل النكاح عن الإلقاح، في الحالات التالية، مع ملاحظة أننا نستخدم هنا لفظ "الزوجة" و "الزوج" وليس "المرأة" و "الرجل" لأن الحديث يجري عن زوجين يهدفان أساساً لتكوين أسرة:

١ - إذا كان المبيضان عند الزوجة قادرين على انتاج البيضة، لكن رحمها غير قادر على الحمل. تؤخذ البيضة وتلقح خارج رحم الزوجة بإلقاح الزوج (طفل الأنابيب)، ثم يتم استئجار امرأة تقبل أن تحمل الجنين في رحمها. ورغم أن المرأة المستأجرة لم تتعرض لنكاح ولا لإلقاح، إلا أن التنزيل الحكيم يعتبرها أماً حاضنة للجنين. وذلك في قوله تعالى : ﴿ .. **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ..** ﴾ النجم ٣٢.

وحكم الأم الحاضنة في هـذه الحالـة كحكـم الأم المرضعـة: فالمرضعـة أم بحسـب التنزيل الحكيم في قوله تعـالى : ﴿ .. وأمهـاتكم اللاتي أرضعنكـم .. ﴾ النسـاء ٢٣ تدخل في دائرة المحارم، لكنها لاتدخل في الإرث والبر. وتتقاضى أجراً كالمرضعـة تماماً. وعلى الطفل الذي حملته أن يتعرف عليهـا بعـد أن يكـبر، ليعي أنهـا مـن محارمـه، وأن أولادها إخوتـه وأخواتـه، وأن إخوتهـا أخوالـه. وهـذا يقتضـي أن تكـون الأم الحاضنـة معروفة غير مجهولة، كـالأم المرضعـة تماماً. وذلـك ميسـور محقـق، باعتبارهـا تحتـاج إلى مستشفى وإجراءات من السهل ضبطها وتسجيلها. حتى أن التعرف على الأم الحاضنـة، في ضوء ماذكرنا، أسـهل كثيراً مـن التعـرف علـى الأم المرضعـة. فـإذا توفيـت الزوجـة صاحبة البيضة، خلال فترة الحمل والوضع لسبب ما، واستمرت الأم الحاضنـة في رعايـة الوليد بعد ولادته، بحيث وعاها الطفل بعد سن الفصال كأم، صارت هي الأم ودخلـت دائرة المحارم وإبداء الزينة والإرث والبر.

ونفهم من هذا كله، أن الأم الحاملة الحاضنة للجنين، يمكـن أن تكـون أي امـرأة أخرى لاعلى التعيين، حتى لو كانت من أقارب الـزوج (أمـه أو أختـه) أو مـن أقـارب الـزوجة (أمـها أو أختــها)، طالما أن حمـل الجنين في الرحـم لم يرافقـه نكـاح ولا إلقاح.

فالأم : هــي المـرأة التي وعـى الطفـل أنهـا أمـه، عندمـا تشـكلت لديـه دائـرة الوعي. وهــي الوارثــة والمحرمــة و صاحبة الحق بالبـر حيــة و ميتــة، بغض النظر أخرج مــن رحمــها وليــداً أم لــم يخــرج ، أي بغــض النظــر عــن أنــها والــدته.

والأب : هو الذكر الـذي وعـى الطفـل أنـه أبـوه، عندمـا تشـكلت لديـه دائـرة الوعي. وهو الوارث وصاحب الحق بالبر حياً أو ميتاً، بغض النظر أكان الوليد من بذرته أم لم يكن، أي بغض النظر عن أنه والده.

فوعي الطفل هو صاحب الحق الوحيد في تحديد الأب والأم، ولم يعط سبحانه هذا الحق لأحد غير الطفل، صاحب العلاقة المباشر، لاللكبار، ولاللفقهاء، ولا حتى للرسول الأعظم نفسه (انظر قصة زيد بن حارثة).

٢ - إذا كان رحم الزوجة قادراً على حمل الجنين، لكن مبيضيها لايعملان، أو أنها تعمل وتعطي بيضات ضعيفة. في هذه الحالة يمكن الحصول على البيضة من امرأة أخرى. ولكن ليس من أية امرأة أخرى لاعلى التعيين.

هناك نوعان من المحارم وجدتهما في التنزيل الحكيم. الأول محارم نكاح وإلقاح، كالأم الوالدة والأم الحاضنة والأم المرضعة، أي أن كل امرأة وصفها التنزيل الحكيم بالأم، فهي محرمة نكاحاً وإلقاحاً. فالمحارم المذكورين في (النساء ٢٣) محارم نكاح وإلقاح، ولايجوز للزوجة أخذ بيضة منهن، تلقحها من زوجها، ثم تحمل الإلقاح في رحمها. أي يجب أن تكون صاحبة البيضة غريبة خارج هؤلاء الأقارب. وقد عرفنا الآن، بفضل علم هندسة المورثات، الأهمية الكبرى لذلك، لما له من أثر في الجينات الوراثية وتشوه النسل.في هذه الحالة، صاحبة البيضة ليست أماً، لأنها لم تحمل ولم ترب ولم ترضع، وليس لها حرمة ولابر ولاإرث. وسيان عرفت بعد ذلك أم لم تعرف.

٣ - إذا كان رحم الزوجة عاجزاً، ومبيضاها عاجزين، بسبب المرض أو السن أو أي سبب آخر. فليس من حل لهذه الحالة إلا بالتبني (اتخاذ الولد). ولامانع يمنع الزوجين في الحالتين الأولى والثانية من اللجوء إلى التبني، والإعراض عن استئجار الأرحام واستعارة البيضات، فهذا أمر يتبع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والصحية التي يعيشها الزوجان.

أما في حالة أن الزوج (الرجل) هو السبب في عدم الإنجاب، كأن يكون قادراً على النكاح، عاجزاً عن الإلقاح، مع وجود حب وود بينه وبين زوجته، ونية صادقة لتشكيل أسرة، فلدينا الحلول التالية :

١ - التبني (اتخاذ الولد)، وقد شرحنا شروطه.

٢ - أن يؤخذ حيوان منوي من ذكر مجهول غريب، يشترط فيه ألا يكون من محارم النكاح والإلقاح بالنسبة للزوجة. كأن يكون أخوها أو أبوها أو عمها، أو أي ممن ذكرت آية النساء ٢٣.

قد يسأل سائل عن معنى قوله تعالى: ﴿ **ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا** ﴾ النساء ٢٢. نقول إن هذه الآية هي التي تدعونا إلى التفريق بين النكاح والإلقاح. فقد فصلها تعالى عن سياق مابعدها من تحريم النكاح والإلقاح في آية مستقلة، ليذكر صراحة أن النساء اللواتي نكحهن الآباء، هن محارم نكاح حصراً. وتذكرنا ألفاظ خاتمة الآية بالزنا في قوله تعالى ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ الاسراء ٣٢. ونفهم أنه تعالى يعتبر الزنا عموماً فاحشة، ويعتبر الزنا بمن نكح الآباء من النساء فاحشة ومقتاً. حتى أننا نستنتج من الآية، عمومية النكاح، سواء أكان شرعياً بعقد، أم زنا بدون عقد. ونفهم أن الأب الذي يزني بامرأة، يرتكب فاحشة الزنا، أما الابن الذي يزني بامرأة نكحها أبوه، نكاحا شرعيا أم غير شرعي، فيرتكب الفاحشة الممقوتة.

لهذا، ورد التحريم مطلقاً في قوله تعالى ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم** .. الآية ﴾ النساء ٢٣، ليشمل التحريم الإلقاح مع النكاح، ولم يخص النكاح كما خصه في الآية التي سبقت.

ولابد هنا من التنويه، بأن أي حل يتم اختياره، يحفظ للزوجين ودهما وحبهما، ويوفر لهما فرصة تشكيل أسرة، يجب أن يتم عن تراض بينهما معاً. فالتراضي أساس الاسلام. على أن يأخذا باعتبارهما، ما أمكن، الأعراف الاجتماعية والحالة الاقتصادية. ولكن إذا تبين أن الأعراف الاجتماعية تحرم مالم يحرمه الله، فنبذها أولى، لتفادي تحطيم علاقة الود والرحمة بين زوجين، يتوقان إلى تشكيل أسرة وعائلة.

في الحالة الطبيعية، عندما يكون الزوجـان قـادرين علـى النكـاح والإلقـاح، يقـع البعض في ترك الحبل على الغارب بالإنجاب. وهنا يجب تحديد النسل، وعقلنة الإنجاب.

ولـما كـانت مسـؤولية الأبويـن المادية والمعنوية، كبـيرة حـداً في تربيـة الأولاد، وكانت الزيـادة غـير المعقولـة في عـدد الأولاد تمنـع الأبويـن مـن اسـتكمال العديـد مـن الجوانـب الأسـاسية للـتربية ، كالغـذاء و الدواء واللبـاس، فـإن مـن الطبيعـي أن يتـم البحـث عـن وسـائل لتحديـد النسـل، الـتي تتلخـص بموانـع الحمـل والاجهـاض.

أما موانع الحمل، فوسيلة لاتقبل سـلامتها النقـاش، مـن حيـث الحـلال والحـرام. فمنع الحمل بالعزل أو بطـرق أخـرى، أمـر يخـص الزوجـين، فيقررانـه ويختـاران أفضـل الحلول له، ولاداعي لسؤال أحد عن حلية ذلك أو حرمته.

وأما الإجهاض، فمسألة اجتماعية بحتة، لأن إجهاض الجنـين قبـل اكتمـال نمـوه، أمر لاينطبـق عليـه قولـه تعـالى ﴿ **ولاتقتلـوا أولادكـم مـن إمـلاق ..** ﴾ وقولـه تعـالى ﴿**ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق ..** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ولاتقتلـوا النفـس الـتي حـرم ا لله إلا بالحق** ﴾. والمتأمل في الآيات، يجد الجواب واضحاً، فالولد لايكون ولداً إلا بعـد الولادة، والنفس لاتصير نفساً إلا بعد أن تتنفس. ومن هنا نـرى جـواز الإجهـاض قبـل اكـتمال الجـهاز العصبي لـدى الجنين (الدمـاغ) مـع مراعـاة الوضـع الصحـي طبيـاً للحامل.

أما القول بأن موانع الحمل والإجهاض حرام، من باب أن ا لله هو الرزاق، فهـذا ليس عندنا بشيء، لأنـه سـبحانه لم يشـترط رزق عبـاده بعـدد أولادهـم. فمـن يكتفـي بولدين له رزق ولدين، ومن عنده عشرون فله رزق عشرين. وبمعنى آخر، إن ا لله تعالى لم يربط الرزق بتحديد النسل وإطلاقه، و لم يفتح باب الـرزق لمـن يفتـح بـاب الإنجاب على مصراعيه، و لم يغلقه في وجه من يرغب بتحديد النسل والإنجاب.

فقوانين الرزق الصارمة التي أقام نواميسها الخالق الأعظم، تربط الرزق بالعمل والانتاج والكفاءة، ورسوله الكريم يأمرنا انطلاقاً من هذه القوانين بأن نعقل ثم نتوكل، وتحديد النسل كما نراه ليس إلا "عقلنة للإنجاب".

ننتقل بعد هذا إلى قوله تعالى ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ الاسراء ٢٣، ٢٤. ونقف بالتحديد عند قوله تعالى ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما** ﴾.

يذهب البعض في فهم هذه العبارة من الآية، إلى أن الانسان مأمور ببر والديه معاً إن بلغا عنده الكبر، وببر أحدهما إن كان الآخر متوفى. وهذا عندنا ليس بشيء، لأن الانسان مأمور ببر والديه وأبويه أمواتاً وأحياء. والدعاء لهما بالمغفرة والرحمة خمس مرات يومياً في كل قعود أخير من كل صلاة، خير دليل على هذا البر، في الحياة وبعد الممات، كما أن في صلة الرحم وجهاً واضحاً من وجوه بر الوالدين والأبوين بعد وفاتهما.

نحن نرى في العبارة إشارة إلى احتمال وجود أب فقط دون أم، أو إلى وجود أم فقط دون أب، وهذا ليس مستحيلاً في الواقع. ونرى أن هاتين الحالتين لاتظهران إلا مع التبني.

١ - حالة الأب (الوالد) فقط. وهذه حالة رجل لديه علة تمنعه من النكاح (العنين والمجبوب) وتمنعه من الإلقاح (المخصي). ولقد عرف الطب أشكالا عديدة، منها الخصية المهاجرة، وضمور عضو الذكورة داخل أربطة البطن. حيث يتم اللجوء إلى العمل الجراحي لتحريرها، وليستعيد بعدها الانسان قدرته على النكاح والإلقاح.

فلنتصور رجلاً من هذا النوع، يتوق إلى تشكيل أسرة (دون زواج طبعا لأنه لايستطيعه)، قام بتبني لقيط دون الثانية من عمره. ثم كبر الوليد ودخل الرجل في دائرة وعيه كأب. في هذه الحالة يدخل الأب دائرة المحارم والإرث والبر، ويصبح له حكم الوالد الذي تنص عليه آية الإسراء ٢٣.

وهذا يختلف تمام الاختلاف عن الوليد الذي كبر، وفي دائرة وعيه والد متوفى، فهذا لايتبنى.

٢ - حالة الأم (الوالدة) فقط. وهذه حالة امرأة عانس لم تتزوج، أو أرملة أو مطلقة لم تنجب أولاداً، ثم بلغت سن اليأس، وفاتها الحيض نهائياً وهي بدون ولد. بمعنى آخر، هذه حالة امرأة وحيدة قادرة على النكاح وغير قادرة على الإلقاح.

فلنتصور امرأة من هذا النوع، قررت أن تشكل أسرة دون زواج، فقامت بتبني لقيط دون الثانية من العمر، وتكفلت بتربيته وتنشئته. ثم كبر الوليد ودخلت المرأة في دائرة وعيه كأم. في هذه الحالة تدخل دائرة محارم الوليد وإرثه وبره، وتصبح مشمولة بقوله تعالى في الاسراء ٢٣، ٢٤.

٣ - أما المرأة غير القادرة على النكاح، فقد أفرد لها سبحانه آية خاصة بها في قوله تعالى ﴿ **والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ..** ﴾ النور ٦٠.

هذه الحالة هي حالة المرأة غير القادرة على النكاح، ولا علاقة أبداً للسن بالقدرة على النكاح. فانقطاع الحيض بداعي السن له علاقة بالإلقاح، لكنه لايمنع النكاح. فقد يمنع النكاح شلل نصفي مثلا، عند شابة لم تبلغ سن اليأس. فهذه من اللاتي لايرجون نكاحاً، ليس لأنها لاتريد، بل لأنها لاتستطيع. ولها إن كانت قدراتها المالية تساعدها، أن تتبنى طفلاً دون الثانية من العمر، تدخل دائرته ويدخل دائرتها في الإرث والحرمة والبر.

وهكذا نرى كيف أعطى الله سبحانه كل المجالات والامكانيات للانسان الراغب في تربية الأولاد، والتواق إلى تشكيل أسرة، أن يحقق رغباته بالتبني. وكيف أنه سبحانه لم يمنع أحداً أو يحرم أحداً أو يفرض على أحد أن يعيش وحيداً محروماً من الأبوة والأمومة، فتبارك الله رب العالمين.

إن من المنطقي بعد أن استكملت بحث الإلقاح دون نكاح، أن ننتقل إلى الشق الآخر المقابل، وهو جانب النكاح دون إلقاح. غير أننا نتوقف لنلقي الضوء على مفهوم الأخ والأخت والابن والابنة والأبناء والبنين والبنات في التنزيل الحكيم.

٣- الأخ والأخت

الأخ : الواو والخاء والحرف المعتل، كلمة تدل على سير وقصد. وهذا وخي فلان، أي سمته (ابن فارس ج٦ ص ٩٥). ونمسك بهذا الخيط لنصل إلى أن التوخي هو البحث والالتزام بالحقيقة في الأمور والظواهر، أي هو القصد الواعي. ونرى أن الأخ والأخت لايخرجان عن هذا المعنى. فقد ورد مفهوم الأخوة في التنزيل الحكيم بمعناه الواسع العام بقوله تعالى :

- ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ..** ﴾ الحجرات ١٠.
- ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ..** ﴾ الاسراء ٢٧.
- ﴿ **.. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ..** ﴾ الحجرات ١٢.
- ﴿ **.. فأصبحتم بنعمته إخواناً ..** ﴾ آل عمران ١٠٣.
- ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ الحجر ٤٧.

ونلاحظ في هذه الآيات أن مفهوم الإخوة والإخوان لايعني أبداً جمع الأخ المحرم أو الأخ الذي يرث، أي أنه لم يرد بالمعنى الأسروي للأخ والأخت، إنما بمعنى أن

الإخوة يتوخى بعضهم بعضاً في الحسن كقوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ أو في القبيح كقوله تعالى ﴿ **إخوان الشياطين**﴾.

كما وردت كلمة أخ في التنزيل الحكيم بمعنى التوخي والقصد في الهوى والإيمان بقوله تعالى :

- ﴿ **وعاد وفرعون وإخوان لوط** ﴾ ق ١٣.
- ﴿ .. **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** .. ﴾ الحشر ١٠.
- ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا ا لله** .. ﴾ الأعراف ٦٥.

وكذلك وردت كلمة الإخوان بمعنى القصد في التربية دون التبني، في قوله تعالى: ﴿ .. **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين** .. ﴾ الأحزاب ٥. وأشار التنزيل الحكيم إلى الأيتام فوصفهم بالاخوان في قوله تعالى ﴿ .. **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم** .. ﴾ البقرة ٢٢٠. وانظر في قوله تعالى عن القصاص في القتلى: ﴿ .. **فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان** .. ﴾ البقرة ١٧٨.

ونخلص إلى وجوب التمييز بين الأخ بمعناها الواسع العام، وبين الأخ بمعناها الضيق الذي يقتصر على أخوة النسب وأخوة الولادة. حيث نجد الكلمة بمعناها المحدود الثاني في قوله تعالى:

- ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** .. ﴾ يوسف ٧٧.
- ﴿ **قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك** .. ﴾ يوسف ٥.
- ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي** ﴾ طه ٢٩، ٣٠.
- ﴿ .. **وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القوم استضعفوني**.. ﴾ الأعراف ١٥٠.
- ﴿ .. **إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك** .. ﴾ النساء ١٧٦.

- ﴿ .. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين .. ﴾ النساء ١٧٦.
- ﴿ لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن .. ﴾ الأحزاب ٥٥.

والأخت في التنزيل كالأخ والإخوان، وردت بمعنى الأخت في النسب، كما في قوله تعالى:

- ﴿ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله .. ﴾ طه ٤٠.
- ﴿ .. وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس .. ﴾ النساء ١٢.

ووردت بمعنى الأخت في العقيدة والسلوك بقوله تعالى:

- ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها .. ﴾ الزخرف ٤٨.

كما وردت بمعنى الكبر والحجم والمدلول بقوله تعالى:

- ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها .. ﴾ الزخرف ٤٨.

ونلاحظ أن الأخ والأخت والإخوة والأخوات والإخوان، في آيات محارم النكاح ومحارم إبداء الزينة والإرث، تعني كلها النسب.

ننتقل الآن لنشرح قوله تعالى:

- ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ عبس ٣٤.

فقد يظن البعض أن الأخ والأخت مقتصران على النسب، فيسأل : كيف يفر المرء من أخيه، إن كان وحيداً، أو لم يكن له أخ ؟

وهذا صحيح، لو سحب معنى الأخوة في آيات محارم النكاح والزينة والإرث على جميع آيات التنزيل الحكيم التي تضمنت هذه الكلمة، وقصره على أخوة النسب. ولكننا لانجد أي إشكال بعد أن فصّلنا آنفاً كيف استعمل التنزيل مصطلح الأخ

والأخت والإخوة في غير معنى النسب. فالمرء قد يعيش وحيداً لوالديه دون أخ أو أخت، لكنه لايمكن أن يعيش وحيداً دون إخوة وأخوات بالمعنى الواسع العام.

ولقد وقع أحد المستشرقين الألمان، في وهم الخلط بين الأخ والأخت بالنسب، والأخ والأخت في الدين والسلوك والقصد، حين قرأ قوله تعالى:

- ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ مريم ٢٨.

فأعلن أن القرآن لايوجد فيه دقة تاريخية. فهارون أخو موسى من أمه، والمسافة الزمنية بينهما وبين مريم تبلغ حوالي ألف عام، وعليه فإن القرآن أخطأ في النسب (ينطلق المستشرق طبعاً من أن القرآن من تأليف محمد). ونقول نحن لهذا المستشرق:

إن اللغات الألمانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية تسمي رجل الدين أباً، وتسمي الراهبة أختاً، فهل يفهم مستشرقنا من هذا أن راعي الكنيسة نكح أمهات الناس، فولدن له الناس وصار أباهم، وهل يفهم من هذا أن الراهبة قد ولدتها أمه فأصبحت أخته ؟

لقد أوضحنا في صفحاتنا السابقة أن الوالد شيء، والأب شيء آخر، وأن الأخ والأخت في النسب شيء، وفي العقيدة والسلوك والقصد شيء آخر، فإن اعتقد مستشرقنا أن هذا هذا، فذلك شأنه.

ولكن، إن كانت مريم في التنزيل الحكيم ليست أخت هارون بالنسب، فأخته بماذا؟ قد يقول قائل: أخت بالانسانية، أو أخته بالإيمان با لله. نقول: فلماذا هارون بالذات؟ لماذا لم يقل يا أخت موسى، وهو الأدق الأقرب إلى معارف الناس ؟

إن تحديد هارون بالذات، يدلنا على أن ثمة "توخياً" في هارون، وتماثلاً في السلوك والقصد يجمع بينه وبين مريم .. فما هو؟

إذا عدنا إلى التنزيل الحكيم، ودأب منهجنا دائماً العودة إليه دون غيره، نجده يرصد خبر موسى، بدءاً من الولادة، في قوله تعالى:

- ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ..** ﴾ القصص ٧.

ثم يتبعه في نشأته :

- ﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ..** ﴾ القصص ١٤.

ثم يروي خبر قتله رجلاً من عدوه، وتوجهه إلى مدين هارباً، وزواجه ثم سيره بأهله بعد انقضاء الأجل، ورؤيته للنار، ونزول الرسالة عليه، وتكليم ربه له.

لكننا نجد التنزيل يقدم هارون كأخ لموسى من أمه، بعد نزول الرسالة إلى موسى، أما قبل ذلك فلا ذكر له، كما نفهم من قوله تعالى :

- ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ..** ﴾ يونس ٧٥.
- ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه ..** ﴾ يونس ٨٧.
- ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾ مريم ٥٣.
- ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي** ﴾ طه ٢٩، ٣٠.

ونجد التنزيل الحكيم يذكر أم موسى، لكنه لايذكر مطلقاً أباه، أو والده، كما يذكر أن له أختاً، وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ **وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب ..** ﴾ القصص ١١.

ونمضي مع التنزيل الحكيم، لنجد أن موسى وهارون ولدا في وقت كان فيه آل فرعون يستحيون نساء بني إسرائيل ويقتلون أبناءهم. وهذا سبب خوف أم موسى على وليدها. ونفهم أن سبب عدم خوف أم موسى على ابنتها، نابع من أن التقتيل كان يطال أبناء بني إسرائيل وليس بناتهم. لكننا لانفهم أبداً سبب عدم خوف أم موسى على ابنها الثاني هارون !!

هنا ننتبه إلى أن التنزيل الحكيم ذكر صراحة أن هارون هو أخو موسى من أمه. وهذا يوضح لنا الأساس عند اليهود في اعتبار النسب للأم وليس للأب.

وحين ننطلق في إثبات النسب من رحم الأم وليس من صلب الوالد، يتساوى لدينا الابن الشرعي والابن غير الشرعي طالما الأم واحدة، ويتساوى لدينا وليد الزواج ووليد الزنا. وكان هذا أمراً وارداً عند بني إسرائيل قبل موسى. فالزنا ونكاح المحارم جرى حظره ومنعه أول مرة في رسالة موسى، وكان متروكاً للأعراف. إضافة إلى أن النسب للأب تقدم في سلم الحضارة، فاليتيم هو فاقد الأب في المجتمع المتحضر، وهو فاقد الأم في المجتمعات البهيمية أو المتخلفة حضارياً.

من هنا نستنتج أن أم موسى تعرضت لاستحياء واحد من آل فرعون، وجاء هارون نتيجة لهذا الاستحياء [1] . أما موسى فهو ابن أمه من واحد من بني إسرائيل.

وهذا يفسر لنا سبب خوفها على موسى وعدم خوفها على هارون. ويفسر لنا خوفها من قومها وهجرها لهم. وقدومها على آل فرعون مطمئنة على وليدها هارون.

هذا ماحصل تماماً مع مريم وابنها عيسى المسيح. يوم جاءت قومها تحمله. فالقوم يعلمون أنها نقية عذراء لم تتزوج، وكان أول ماخطر ببالهم، أنهم تذكروا ظهور أم موسى وهي تحمل هارون. وهذا سبب وصفهم لها بأخت هارون.

قد يقول قائل : لو أن الأمر هكذا، لكان الأجدر بهم توجيه الخطاب والصفة إلى عيسى المسيح، فهو أخو هارون من هذه الزاوية. نقول: وهل كان قوم مريم يعلمون سلفاً أن المسيح يتكلم في المهد، وأنه سيجيبهم عن سؤالهم المستنكر، إلا بعد أن أشارت إليه، وقال إني عبد الله ؟

وهذا يفسر لنا قولهم لها ﴿ **ماكان أبوك امرأ سوء** ﴾ أي ماكان مغتصباً يستحيي النساء كما استحيا أم هارون. وقولهم ﴿ **وماكانت أمك بغيا** ﴾. أي أنهم يعتقدون أن عملية بغاء قد حصلت، ولد نتيجتها عيسى.

---

[1] ـ الاستحياء كما نفهمه هو الاغتصاب وليس الزنا. فالاستحياء اغتصاب جنسي يتم دون رغبة أو طلب من الطرف الأنثوي. أما الزنا فهو عملية جماع رضائية بين طرفين. لكن الحمل والحبل وارد في الحالتين.

وهذا يفسر أيضاً سبب رغبة موسى، في أن يشد الله أزره بأخيه هارون، لما له من مركز عند آل فرعون ودالة عليهم باعتباره منهم. كما يفسر لنا سبب استهداف فرعون لموسى وحده باللوم دون هارون، علما أننا نتصور أن المتكلم الداعي في مجالس فرعون هو هارون وليس موسى، لقوله تعالى : ﴿ **وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون** ﴾ القصص ٣٤. ثم لقوله تعالى : ﴿ **قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ طه ٣٦.

لقد أثبت التنزيل الحكيم براءة أنبياء وغير أنبياء، ممن اصطفى من عباده نذكر منهم يوسف ومريم وعائشة، من الفاحشة التي اتهمهم بها أقوامهم. لكننا نلاحظ أن براءة يوسف ومريم كانت براءة رحمانية مادية دامغة، بينما كانت براءة عائشة إلهية نزلت وحياً وإخباراً من السماء. فما هي البراءة الرحمانية وماهي البراءة الإلهية ؟

ونستعين بالله، ونقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا** ﴾ مريم ٢٢.
- ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا** ﴾ مريم ٢٣.
- ﴿ **فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ مريم ٢٤.
- ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾ مريم ٢٥.
- ﴿ **فكلي واشربي وقري عيناً، فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ مريم ٢٦.
- ﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا** ﴾ مريم ٢٧.
- ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ مريم ٢٨.
- ﴿ **فأشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا** ﴾ مريم ٢٩.
- ﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾ مريم ٣٠.

وكنا قد قرأنا قبلها في خبر يوسف قوله تعالى :

- ﴿ **قال هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين** ﴾ يوسف ٢٦.
- ﴿ **وإن كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ يوسف ٢٧.
- ﴿ **فلما رأى قميصه قدَّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ يوسف ٢٨.

ونفهم أن القميص المقدود من دبر، هو الدليل المادي الرحماني على براءة يوسف، فلننظر في براءة مريم بدليلها المادي الرحماني.

نحن مع سورة مريم في الآيات السالفة أمام خبر تفصيلي كامل يمضي بنا خطوة خطوة مع مريم. في حملها .. ثم ابتعادها عن أعين الناس حين شعرت ببوادر المخاض .. ثم لجوئها إلى نخلة تمسك بها تعينها على آلام المخاض .. ثم وضعها .. ونداء وليدها من تحتها .. يطمئنها أن ربها قد قطع عنها مايسيل من دماء وسوائل عقب الولادة .. وينصحها بهز النخلة لتأكل وترتاح وتشرب وتقر عيناً .. ثم يأمرها بألا تكلم أحداً من الناس نذراً للرحمن .. ثم قدومها على قومها تحمله .. وتأنيب قومها لها واتهامها بالسوء والبغاء .. وإشارتها إلى وليدها .. وغضب القوم من استغفالها لهم .. ثم كلام المسيح معهم مبرئاً أمه مريم.

هنا مع نذر الصوم للرحمن بعدم الكلام مع أحد، نتذكر قوله تعالى :

- ﴿ **.. وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** ﴾ طه ١٠٨.
- ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا** ﴾ طه ١٠٩.
- ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا * يوم يقوم الروح والملائكة صفاً، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ النبأ ٣٧، ٣٨.

ونقف عند الملاحظة التالية :

إني نذرت للرحمن صوماً ←——— فلن أكلم اليوم انسيا

وخشعت الأصوات للرحمن ←——— فلا تسمع إلا همسا

رب السموات والأرض الرحمن ←——— لايملكون منه خطابا

لقد حصلت البراءة المادية الرحمانية، حين أنطق الرحمن الوليد المسيح عيسى، ليبرىء أمه مريم قائلاً لقومها إنه عبد الله ونبيه. وهذا هو البرهان الدامغ بالفعل لابالقول الذي نسميه برهان (الشهيد دون الشاهد)، وهو برهان مازال موجوداً حتى يومنا هذا. فإذا ماصمم مهندس جسراً مثلا، وكان تصميمه خاطئاً، لكنه أصر عليه ونفذه، فانهيار الجسر هو البرهان الرحماني على خطأ التنفيذ، دون أن يفتح أحد فمه بكلمة. ومع مجرد انهيار الجسر تسقط كل دعاوى وبراهين صحة التصميم، وقس هذا على كل مجالات الحياة. فالنجاح الفعلي لأي نظرية أو فكرة أو الفشل الفعلي لها، هو البرهان الرحماني على صحة النظرية أو على خطئها.

من هنا نفهم أن المخبر في العلوم الكونية (الآفاق) وفي النفس الحية (الأنفس)، هو الحياة الانسانية ذاتها، وأنها الحقل الوحيد الذي يتم فيه البرهان على صحة الصح وخطأ الخطأ. ولقد أعطانا سبحانه هذه القاعدة لأن الوحي انقطع، وبقي الوجه الثاني الذي لايكلم أحداً بالقول أو بالاخبار بل بالفعل المغني عن كل كلام. لهذا فإن الاتجاه الرحماني في العلوم هو التجربة والممارسة على حقل الواقع، للتمييز بين الخطأ والصواب، والحق والباطل. وهذه الممارسة على حقل الواقع، هي التي تكسب الانسان الخبرة إلى جانب العلم وتجعل منه شهيداً يستغني عن الوحي.

وقفة صغيرة لابد منها نقفها عند قوله تعالى **﴿ فناداها من تحتها ﴾** وقوله تعالى **﴿ فأشارت إليه ﴾** . فقد ذهب السيوطي وآخرون إلى أن فاعل ناداها، هو جبريل. ونحن نرى أنه المسيح عيسى نفسه، بل لايمكن أن يكون إلا المسيح نفسه !!

ونعود إلى الآيات مرة أخرى، تأخذ بيدنا خطوة خطوة مع مريم، وقد أتت قومها تحمل وليدها، فينهالون عليها تقريعا هو أقرب للسباب، خاتمين شتائمهم بأنهم لايرون فيها إلا عاهرة تذكرهم بأخت هارون .. وتفهم مريم، كما نفهم نحن، أنه الحكم بالموت رجما بالحجارة، لكنها لاتفعل أكثر من أن تشير إليه .. بكل ثقة وثبات أشارت إليه .. فمن أين جاءتها هذه الثقة وهذا الثبات ؟

قد يقول قائل : بأنها ثقة الإيمان با لله وثبات التصديق النابع من صوت جبريل وهو يناديها من تحتها. نقول : أليس عجيبا أن يناديها جبريل ثم تشير هي لابنها ؟ ثم ماالذي يجعلها واثقة ان الوليد سيتكلم حين تشير إليه، لو لم يكن قد تكلم قبلها وهو تحتها ؟ وأخيرا .. لقد كان إبراهيم الخليل مؤمناً واثقاً بربه ثابت التصديق به، ومع ذلك طلب من ا لله أن يريه كيف يحيي الموتى، دون أن ينقص ذلك من إيمانه شيئاً. فالايمان والتصديق شيء، والبرهان الرحماني المادي الدامغ شيء آخر، وخاصة في موقف دقيق خطير، يواجه فيه المرء حكماً بالموت.

لقد أذن الرحمن للوليد فنادى أمه من تحتها، يخبرها بثلاثة أمور ظاهرة، ورابع مضمر:

١ ـ أن ا لله حفظ لها صحتها بعد الولادة.

٢ ـ أن تهز النخلة لتأكل وتشرب وترتاح.

٣ ـ أن تمتنع عن الكلام صوماً للرحمن إن خاطبها أحد.

أما المضمر الرابع فهو :

٤ ـ أن تترك له أمر الإجابة والكلام.

وفهمت مريم المراد المقصود، فأشارت إليه حين كلمها قومها !! وهنا نفهم نحن، لماذا لم يجرؤ أحد من القوم على تنفيذ حكم الإعدام رجماً بالحجارة بالزانية المزعومة، لابل على مجرد المطالبة به.

وننتقل إلى تفصيل البراءة الإلهية عند عائشة. فقد برأها سبحانه وحياً بالقول عن طريق الإخبار، وهذه براءة الشاهد. بينما براءة مريم ويوسف بالفعل، وهذه براءة الشهيد، براءة الفعل المادي الرحماني الدامغ الملموس المتمثل في قميص يوسف المقدود، وفي وليد مريم المتكلم بالمهد. ولو أراد الله أن يبرىء عائشة براءة رحمانية لفعل، فأنطق فرجها أو ثوبها مثلاً، لكنه سبحانه أرادها براءة إلهية يعلّمنا بها ألا نطلق الأحكام إلا بوجود أربعة شهداء. فاتهام المحصنات العفيفات موجود في كل زمان ومكان، فلو ربط سبحانه برهان البراءة بالدليل الرحماني، لاقتضى ذلك أن تنطق الفروج والثياب وأن تتكلم الأجنة فور ولادتها، وهذا مما اختص تعالى به الصفوة من عباده. لهذا فثبوت هذه التهمة انحصر بأربعة شهداء، ولاحاجة بعد مريم لأن ينطق الفرج أو يتكلم الوليد في المهد.

إن من المهم جداً أن نميز البراءة الرحمانية عند مريم ويوسف والبراءة الإلهية عند عائشة. لما فيهما من إشارة واضحة إلى الشهيد والشاهد. فقد جاءت البراءة الرحمانية لمريم ويوسف، وهي براءة شهيد، والشهيد فيهما هو القميص عند يوسف، والوليد المتكلم عند مريم. ثم جاءت البراءة الإلهية لعائشة، وهي براءة شاهد، والشاهد فيها هو الوحي. وهذا يعطينا قاعدة هامة جداً، هي أن الشهيد هو الذي يجعل الناس بعده شاهدين. إذ يكفي أن يصعد أحدنا إلى الفضاء، ثم يرى حضورياً بأم عينه أن الأرض كروية، ويصورها، ثم يعود إلينا ليجعل منا شاهدين على كروية الأرض، انطلاقاً من شهيديته الحضورية. وهذا يقودنا بدوره إلى أمر هام، هو أننا يجب أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، وأن نتبادل المعارف والخبرات مع الأمم والشعوب الأخرى، وأن نفهم أنه لاداعي لاختراع السيارة والطائرة من جديد، ولامبرر لرفض نظرية كروية الأرض، لمجرد أننا لم نشهد كرويتها حضورياً. وهذا ينطبق على العلوم الانسانية، انطباقه على العلوم الكونية، فعلينا أن ندرس التاريخ وأحداثه، كشاهدين وليس كشهداء، وإلا اقتضى أن نعيشه مرة أخرى.

٤- الزواج وملك اليمين

لقد عرفنا النكاح بأنه عملية جنسية بين ذكر وأنثى. وعندما يكون الهدف من النكاح تشكيل أسرة إضافة إلى إرواء الشهوة، يصبح النكاح زواجاً وينظم به عقد يسبغ على هذه الممارسة الشكل العلني المشروع. ويسمى كل طرف من أطراف العقد زوجاً. فالأنثى زوجة من الناحية الاجتماعية إضافة إلى الناحية الطبيعية، والذكر زوج من الناحية الاجتماعية إضافة إلى الناحية الطبيعية. والعلاقة بينهما في هذه الحالة علاقة نكاح واجتماع، أي علاقة بيولوجية واجتماعية. ولكل منهما على الآخر حقوق، وإذا مارغب أحدهما بالافتراق عن الآخر، كان ذلك هو الطلاق. وإذا مارس أحدهما الجنس مع شخص آخر غير زوجه في عقد النكاح، سمي ذلك بالخيانة الزوجية (الإشراك)، والحق بالطلاق، أو عقدة النكاح كما يسميها التنزيل الحكيم، أو العصمة كما نسميها اليوم، يمكن أن تكون بيد الرجل أو بيد المرأة، أو بيديهما معاً، وتحديد ذلك يتبع الأعراف الاجتماعية، ولاعلاقة له بالحلال والحرام.

أما ملك اليمين، فهو من الناحية التاريخية العبد والأمة. أي الرق الذي كان طبيعياً في عصور سادت فيها الحروب، ولم تكن ثمة اتفاقيات تنظم معاملة أسرى الحرب. وكان الشائع أن الشعوب المهزومة تدخل في العبودية برجالها ونسائها وأطفالها. وكان السبب الاقتصادي أساس هذه العملية، لتأمين يد عاملة رخيصة (مجانية)، كما كان الرق في ذلك الوقت أساس علاقات الانتاج.

وكان لابد أن تعكس الناحية الاجتماعية الفروق بين العبد المملوك[1] والحر، وبين الأمه المملوكة والحرة، فكان اللباس من أبرز جوانب الناحية الاجتماعية التي

---

(١) ـ العبد المملوك والأمه المملوكة جمعهما عبيد، أما العبد فجمعها عباد. فالرق هو العبد المملوك والأمه المملوكة أما مصطلح العبد والأمه فلاعلاقة له بالرق (انظر فصل العباد والعبيد).

انعكست عليها الفروقات. فعورة الأمه من السرة إلى الركبة، كالرجل تماماً، بينما عورة الحرة تشمل كل جسدها عدا الوجه والكفين. وهذا يبين لنا أن مفهوم الحجاب الشرعي الذي يطرح الآن، مفهوم اجتماعي في اللباس، كان سائداً عند العرب للتفريق بين الأمه والحرة. ومن هذا مفهوم أن الأمه المملوكة تباع وتشترى، وتنكح بدون عقد، وعليه فليس مهمّاً أن يرى الناس ثدييها ورأسها (Topless). ولهذا جاء مفهوم اللباس الخارجي للمرأة الحرة في التنزيل الحكيم بشكل تعليمات وليس بشكل تشريعات، في قوله تعالى :

- ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفوراً رحيما ﴾ الأحزاب ٥٩.

لقد شرحت هذه الآية في بحث المرأة من "الكتاب والقرآن /قراءة معاصرة"، وقلت إنه لباس خارجي حسب الأعراف، لكي لاتؤذى المرأة. وأضيف هنا أن هذه الآية تعليمية، ورد فيها تحديد لباس الحرة مرحلياً زمن النبي، بدليل قوله تعالى ﴿ **قل لأزواجك** ﴾. أي أن ملك اليمين لاعلاقة له بهذه الآية. ولما كان مفهوم ملك اليمين وقتها يقتصر على الأمه المملوكة، فقد تم تمييز الحرة عنها في اللباس. ولكن بما أنه لايوجد الآن أمه مملوكة، تبقى هذه الآية تعليمية لاتشريعية. أي تلبس المرأة لباساً خارجياً حسب الأعراف الاجتماعية السائدة، بحيث لاتعرض نفسها للأذى الاجتماعي، شريطة عدم ظهور الجيوب. لنؤكد مرة أخرى أن مايطلق عليه اسم الحجاب الشرعي اليوم، هو لباس الحرة في القرن السابع الميلادي، وهو لباس اجتماعي بحت له علاقة بالأعراف، أي لباس عروبي، المرأة العربية الحرة (لباس المرأة البدوية الآن).

هل يوجد الآن مفهوم معاصر لملك اليمين، استناداً لقراءة معاصرة لآيات ملك اليمين، آخذين بعين الاعتبار أنه لايوجد الآن عبودية، ولايوجد عبد ولا أمه للبيع والشراء؟

لنأخذ قوله تعالى في سورة المؤمنون. فقد بدأ بقوله ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ والمؤمنون هنا تشمل الذكور والأناث، ثم تابع بقوله ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ والصلاة هنا بالألف وليس بالواو، أي هي الصلة وليس بالركوع والسجود، ولهذا فالكلام هنا ليس عن أتباع محمد (ص) بل عن جميع المؤمنين با لله واليوم الآخر، إلى أن يصل سبحانه ليقول ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾. وهذه حالة عامة تؤكد ماذهبنا إليه، لأن الفواحش من محرمات الاسلام[1] .

ثم يتابع سبحانه بقوله ﴿ **إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ وبقوله ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾.

إن مايهم بحثنا هذا في الزواج وملك اليمين، في ضوء الآيات السالفة، أمور ثلاثة:

١ ـ حفظ المؤمنين لفروجهم.

٢ ـ استثناء الزوج وملك اليمين من هذا الحفظ.

٣ ـ اعتبار أن المتجاوز لهذه الحدود معتدياً على حرمات ا لله.

لكن ثمة أمرين، علينا أن نضعهما بالاعتبار، ونحن نحاول فهم الآيات السالفة، هما:

١ ـ المؤمنون هم المؤمنون با لله واليوم الآخر عموماً، وليس أتباع محمد (ص) حصراً.

٢ ـ المؤمنون تشمل الذكور والإناث.

فإذا لم نعتبر الأمر الأول، لم يعد ثمة معنى لقوله تعالى : ﴿ **وضرب ا لله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ..** ﴾ التحريم ١١.

وإذا لم نعتبر الثاني، أخرجنا نصف البشر على الأقل من دائرة الفلاح كإناث. وتعارض ذلك مع اصطفائه سبحانه لمريم بفضل إحصانها لفرجها.

---

[1] ـ انظر لمزيد من الايضاح " الاسلام والإيمان" في مكانه من هذا الكتاب.

إن حفظ الفروج عند المؤمنين والمؤمنات بـا لله واليـوم الآخـر، بـاب مـن أبـواب الفلاح. مثله في ذلك مثل التواضع والسماحة في الصلات، والإعراض عـن اللغـو، وأداء الزكاة، ورعاية الأمانات والعهود، والدوام على إقامة الصلوات. ولقد ورد الأمـر بـه في أكثر من آية من آيات التنزيل الحكيم:

- ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ..** ﴾ النور ٣٠.
- ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ..** ﴾ النور ٣١.
- ﴿ **.. والحافظين فروجهم والحافظات ..** ﴾ الأحزاب ٣٥.

لكن أبرز هذه الآيات وأقربها شبهاً بما ورد في سـورة المؤمنـون، هـو في سـورة المعارج (الآيات ٢٣ ـ ٣٤).

- ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ المعارج ٢٩.

وإذا كان الحفظ في الآيات عاماً شـاملاً، وكـانت الفـروج تشـمل العيـن والأذن واللسان والفرج، فإن الاحصان حفظ من نوع خاص أقوى، يختـص بـالفرج عينـاً دون سائر الفروج الأخرى. فنحن نجد أن اللسان العربـي لحـظ ذلـك فقـالوا: الحـاء والصـاد والنون أصل واحد منقاس. وهـو الحفـظ والحياطـة والحـرز. فـالحصن معـروف والجمـع حصون. والحاصن والحصان المرأة المتعففة الحاصنة فرجها. والفعل من هذا حصـن. قـال ثعلب: كل امرأة عفيفة فهي محصِنة ومحصَنة وكـل امـرأة متزوجـة فهـي محصَنـة لاغـير. ويقال لكل ممنوع محصن. (ابن فارس ج ٢ ص ٦٩).

فالاحصان إذن نوعـان : إحصـان بالنكـاح، وإحصـان بالعفـة. ولقـد سـبق لنـا الحديث عن الإحصان بنكاح الـزواج. فقلنـا إن الـزوج محصـن لفـرج زوجـه طالمـا دام بينهما النكاح.

ولكن هل هناك نكاح آخر، غير نكاح الزواج، يحصن الفرج، تماما كمـا يحصنـه نكاح الزواج؟ بمعنى آخر، هـل هنـاك إحصـان ثـالث للفـرج، غـير الإحصـان بـالزواج والإحصان بالعفة اللذين أشرنا إليهما ؟ ونقول : نعم .. إنه ملك اليمين.

من هنا، فإن القول بأن نكاح الزواج حصراً هو الحلال، وكل ماعداه حرام وزنا، قول خاطىء، فهناك نكاح ملك اليمين. وهذا ماأشارت إليه آيات سورة المؤمنون وآيات سورة المعارج، وآيات عديدة أخرى من التنزيل الحكيم، حين أخرجت الأزواج وملك اليمين من دائرة حفظ الفروج، واقرأ معي قوله تعالى :

- ﴿ .. **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ..** ﴾ النساء ٣.
- ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ..** ﴾ النساء ٢٤.
- ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ المؤمنون ٦ المعارج ٣٠.
- ﴿ .. **أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ..** ﴾ النور ٣١.
- ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ..**﴾ الأحزاب ٥٠.
- ﴿ .. **ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك..**﴾ الأحزاب ٥٢.
- ﴿ .. **ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ..** ﴾ الأحزاب ٥٥.

فلقد أخرجت الآية الأولى ملك اليمين من دائرة العدل. وأخرجته الآية الثانية من دائرة محارم النكاح. وأخرجته الثالثة من دائرة حفظ الفروج واللوم. والرابعة من دائرة محارم إبداء الزينة (الحجاب). والخامسة أخرجته من الحرج وسوت بينه وبين الزوج. والسادسة أخرجته من دائرة التحريم. والسابعة من الجناح.

إن من الأهمية بمكان، حين نتحدث عن الاحصان، أن نميز ما إذا كان إحصاناً ذاتياً بالعفة، وهو ماينطبق على مريم بنت عمران، أم إحصاناً يستمد من الغير بالنكاح، سواء فيه نكاح الزوج الذي ينطبق على قوله تعالى ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ أو نكاح ملك اليمين الذي ينطبق على قوله تعالى ﴿ **أو ماملكت أيمانهم** ﴾.

فحين نقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ..** ﴾ النساء ٢٤.
- ﴿ **ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ..** ﴾ النساء ٢٥.
- ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ..** ﴾ النور ٤.
- ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾ النور ٢٣.

علينا أن نميز بين الإحصان بالزواج في الآية الأولى، والإحصان المطلق بأشكاله الثلاثة في باقي الآيات أعلاه.

فالمحصنات من النساء في الآية ٢٤ من سورة النساء، داخلات في دائرة التحريم التي بدأها سبحانه في الآية ٢٣ بقوله ﴿ **حرمت عليكم** ﴾. ونفهم أن نكاح المحصنات بالزواج حرام، فلا يجوز نكاحهن بعقد لأنهن متزوجات، ولانكاحهن بدون عقد لأنه زنا. كما نفهم إن الإحصان هنا إحصان خاص بالزواج، فإذا فهمناه بغير هذا الشكل، وأطلقناه تعميماً، يغدو نكاح العفيفات والزواج بهن حرام، وهذا غير معقول.

أما المحصنات المومنات في الآية الثانية، النساء ٢٥، فيستحيل أن تعني الاحصان بالزواج. فقد انتهى سبحانه في الآية التي سبقت، إلى تحريم نكاح المحصنات بالزواج، يبقى أن الاحصان في هذه الآية إحصان عفة أو إحصان ملك يمين.

وكذلك الأمر في الآية الثالثة والرابعة، النور ٤، ٢٣، اللتين تحددان حد القذف (رمي المحصنات) وحكمه. إذ يستحيل أن يكون الاحصان فيهما محصوراً بالزواج، لأن العازبة العفيفة قد تقذف وتتهم. ولهذا فنحن نفهم أن الاحصان في الآيتين مطلق عام يشمل الوجوه الثلاثة.

الفصل الرابع: الذنب والسيئة

١_ الذنب والمغفرة

٢_ السيئة والتكفير

٣_ الحسنات يذهبن السيئات

٤_ شرك التجسيد ذنب لا يغتفر

ثمة مصطلحات ترد في التنزيل الحكيم، يطيب للبعض أن يذهب فيها مذهب قطرب، فيعتبرها دليلاً على اتساع كلام العرب عند الإطناب والإطالة في الخطاب. منها : الذنب و السيئة و الخطيئة و الخطأ و المعصية و الفسوق و الإفساد و إتيان المنكر . ومنها بالمقابل: المغفرة والتكفير والصفح والعفو.

ولقد وقفنا أمام هذه المصطلحات في قراءتنا المعاصرة للتنزيل، منطلقين من نفي الترادف في مفرداته، مستنكرين أن يكون محلاً لاستعراض العضلات اللغوية. فرأينا أن (الذنب والسيئة والخطيئة) وأن (المغفرة والتكفير والصفح) وإن كانت بمجموعة مفردات تأتي تحت عنوان عريض، إلا أن بينها، في المجموعة الواحدة، فروقات لايمكن معها اعتبار هذه هذه، وها نحن نبين بعضها.

لقد ورد الذنب، بمختلف اشتقاقاته، في تسعة وثلاثين موضعاً من التنزيل الحكيم، نلاحظ منها ثمانية عشر موضعاً يرتبط فيها الذنب بالمغفرة. ووردت السيئة، بمختلف اشتقاقاتها، في ستين موضعاً من التنزيل الحكيم، نلاحظ منها خمسة عشر موضعاً ترتبط فيها السيئة بالتكفير. ونلاحظ أيضاً أن العكس غير صحيح، فالذنب لم يرد أبداً مقترناً بالتكفير، والسيئة لم ترد أبداً مقترنة بالمغفرة. لابل رأينا التنزيل يجمع الذنب والمغفرة والسيئة والتكفير في قوله تعالى: ﴿ .. **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار** ﴾ آل عمران ١٩٣.

من هذا كله، نمضي إلى القول في الذنب والسيئة، كما فهمناهما في التنزيل الحكيم، ونبدأ بالذنب.

١- الذنب والمغفرة

الذال والنون والباء، أصول ثلاثة: أحدها الجرم، والآخر مؤخر الشيء، والثالث كالحظ والنصيب، فالأول الذنب والجرم: يقال أذنب يذنب، والاسم الذنب، وهو مذنب. والآخر الذنب: وهو مؤخر الدواب، ولذلك سمي الأتباع الذنابى، والمذنب من الرطب ماأرطب بعضه، ويقال للفرس الطويل الذنب: الذنوب، والذناب: عقب كل شيء، والذانب التابع (ابن فارس ج٢ ص ٣٦١).

ونحن نرى أن الذنب ورد في التنزيل الحكيم يحمل المعنيين معا. فهو عمل يحمل المعصية (القطع)، وله تبعة وذيول. فإذا ارتكب انسان الفاحشة التي حرمها ا لله، فقد قطع أمرا من أوامر رب العالمين، ولهذا القطع تبعة تقع على مرتكب الفاحشة. ومن هنا نقول إن ارتكاب الفاحشة ذنب. وبما أن الإبتعاد عن الفاحشة أمر من ا لله تعالى، ومرتكبها مذنب مع ا لله، فعصيان أوامر رب العالمين معصية يتبعها ذنب مع ا لله بالنسبة لمرتكبها.

أما السيئة فقد جاءت من فعل سوأ: فالسين والواو والهمزة هي من باب القبح. نقول رجل أسوأ أي قبيح، وامرأة سوآء أي قبيحة، قال (ص): سوآء ولود خير من حسناء عقيم. لذا سميت السيئة سيئة وسميت النار سوأى لقبح منظرها، كما في قوله تعالى: ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ..** ﴾ الروم ١٠ (ابن فارس ج٣ ص١١٣).

ونفهم أن للذنب والسيئة علاقة ببعضهما البعض، لكن الذنب قد يكون بدون سيئة، أما السيئة فلا تكون بدون ذنب. فما هو الذنب بدون سيئة ؟.

إذا أفطر إنسان في رمضان، وهو قادر على الصيام، فهو لم يسيء إلى أحد بإفطاره هذا، بل عصى ا لله في أمر وتكليف هو قادر عليه. وبهذا فهو يرتكب ذنبا لايسيء فيه إلى أحد .. لماذا؟ لأن ا لله سبحانه يعبد طاعة ومعصية، والانسان يذنب

بمعصيته، ولأن الله سبحانه لايساء ولايحسن إليه، فهو الغني عن العالمين. ومن هنا لايمكن اعتبار إفطار رمضان سيئة يرتكبها المفطر القادر على الصيام، بل هي ذنب. ولهذا قال تعالى: ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها ..** ﴾ الإسراء ٧. فالإحسان والإساءة لاتكون إلا من الانسان للانسان، أو من الانسان لكل المخلوقات الأخرى في الطبيعة. أما الله سبحانه فلا يخضع للاحسان ولا للاساءة، وإنما يعبد طاعة ومعصية. ولهذا، فالذنوب بدون سيئات لاتكون إلا مع الله، ولأنها كذلك فهي قابلة للمغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ..** ﴾ الزمر ٥٣. وقد شرحنا في فصل "العباد والعبيد"، أن لفظة (عبادي) الواردة في الآية تتضمن كل عباد الله، الطائعين منهم والعصاة، والمجرمين والمشركين في حالة توبتهم، ونفهم في ضوء ذلك، أن الله سبحانه يخبرنا بأن كل الذنوب المرتكبة بحقه قابلة للمغفرة بدليل قوله تعالى ﴿**..غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ..** ﴾ غافر ٣. باستثناء ذنب واحد لايمكن غفرانه هو الشرك، ورد في قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..** ﴾ النساء ٤٨ و ١١٦.

وبهذا المفهوم خاطب سبحانه رسوله الكريم قائلا ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبينا* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..** ﴾ الفتح ١، ٢. وواضح أنه تعالى يغفر سلفاً لرسوله الكريم ما تأخر من ذنبه، أي ماسيقع منها بعد نزول الآية. وواضح أيضاً وهو العادل العدل أنه يعني الذنوب المحصورة بعلاقتها بين الرسول وربه. وواضح أنه لايعني الإساءات التي للآخرين حقوق فيها. فعندما أساء النبي الكريم لابن أم مكتوم بإعراضه عنه، نزل الوحي بسورة عبس، و فيها يعاتب سبحانه نبيه على ما فعل. و هذا يقودنا إلى الحالة الثانية، حالة اقتران الذنب بالإساءة.

٢- السيئة والتكفير

قلنا إن السيئة تكون بين الانسان والمخلوقات الأخرى، عاقلة وغير عاقلة، فقد يسيء الإنسان إلى إنسان آخر، وقد يسيء إلى المخلوقات الأخرى في الطبيعة (تعذيب البهائم، قطع الغابات، تلويث المياه..)، أما أن يسيء الإنسان إلى الله، فهذا محال.

فإذا غش زيد عمرواً، فقد أساء إليه، وارتكب بحقه ذنباً لايزول إلا بإصلاح آثار الإساءة. وإذا أراد الله أن يغفر لزيد ذنبه هذا، فلا بد من إرضاء عمرو وتعويضه عما لحقه من الإساءة الواقعة عليه. ومن هنا نفهم معنى التكفير الذي ارتبط في التنزيل بالسيئة والسيئات.

فالتكفير من كفر، هو التغطية مع سابق علم، يقابلها في الإنكليزية cover. أما التغطية فنفهمها بالمثال التالي:

إذا أراد امرؤ استيراد سيارات من اليابان، فأول مايفعله بعد الإتفاق مع الشركة الصانعة على المواصفات والعدد وجدول التسليم، هو أن يفتح اعتماداً لدى المصرف، الذي يعلم الشركة بذلك، فتقوم بارسال السيارات المطلوبة، وتذهب إلى المصرف لتقبض حقها.

ونفهم أن المصرف أعطى المشتري تغطية cover، وكفله أمام الشركة الصانعة، وتعهد بتسليم حقوق الشركة عنه. وهذا هو بالضبط معنى قوله تعالى ﴿.. **يكفر عنكم سيئاتكم** ..﴾. فلكي يغفر سبحانه ذنوبكم، يقوم بتغطية وتسديد حقوق الآخرين عنكم لإرضائهم. ولكن هذه التغطية والتعهد بالتسديد، لايقوم بها أي مصرف في العالم، مالم يكن للمشتري حساب مفتوح لديه، ومالم تكن سمعة المشتري المالية لدى المصرف طيبة. وكذلك الأمر في تكفير السيئات. فلكي يكفر الله تعالى سيئات الانسان، ويتعهد بتسديد ماعليه من حقوق للغير، يجب أن يكون لهذا الانسان حساب

مفتوح عند الله تعالى، وأن يكون له اسم فيه. ولكي يكون له حساب مفتوح واسم في المصرف الإلهي، و لله المثل الأعلى، يجب أن يحصل على طلب تسجيل، أو تذكرة دخول، هذا الطلب وهذه التذكرة هي الإيمان با لله واليوم الآخر. بعد ذلك كله يستطيع صاحب المصرف ومالكه أن يكفر السيئات، ويغطيها من الحساب المفتوح لديه.

أما الذين قطعوا كل صلة لهم با لله، واختاروا بملء إرادتهم البقاء خارج سجلات هذا المصرف وحساباته، فهم المجرمون القاطعون لصلاتهم با لله، الذين لاحاجة حتى لسؤالهم عن ذنوبهم (لمزيد من التفصيل انظر فصل الايمان والاسلام).

هنا يتضح لنا بجلاء مفهوم تكفير السيئات. فالانسان الذي يأمل بأن تكفر عنه سيئاته عليه أن يحسن وأن يعمل صالحاً ﴿.. **إن الحسنات يذهبن السيئات ..**﴾ هود ١١٤. والمسلم الذي يضيف إلى إسلامه الايمان، وينتقل إلى الإيمان بعد إتمام الاسلام، ويشهد أن محمداً رسول الله، وهي رأس الايمان، سيكفر تعالى عنه سيئاته ويغطيها تجاه الآخرين ويتعهد أن يسدد لهم حقوقهم ويرضيهم. بدليل قوله تعالى: ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ محمد ٢. وهكذا نرى أن مقولة "الاسلام يجب ماقبله" غير دقيقة والأصح أن نقول أن "الإيمان يجب ماقبله" لأن الإسلام بدأ بنوح وختم بمحمد (ص). وكذلك غفران الذنوب بعد الايمان، فإن الذنوب السابقة ستغفر أيضاً بدليل قوله تعالى ﴿**تؤمنون با لله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ..** ﴾ الصف ١١، ١٢. ثم يأتي بعد ذلك كرم الكريم الواحد، وتأتي رحمة الرحيم الأحد، ليبشر الانسان بأن أصغر عمل صالح يعمله، سيحتسبه له ربه مساوياً لأحسن ماعمل في حياته، يكفر له به أسوأ ماعمل في حياته. فا لله سبحانه يبشر الذين يجيئون بالصدق، ويجهدون في برهان وإظهار مصداقية كتاب الله بأنهم من المتقين وأنهم من المحسنين، كما في قوله تعالى: ﴿ **والذي جاء بالصدق**

وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم، ذلك جزاء المحسنين * ليكفر ا لله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ الزمر ٣٣ ـ ٣٥.

وهكذا نفهم تماماً أن من يسيء للآخرين يصبح مذنباً بحقهم، ولهذا قال موسى لربه ﴿ **ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون** ﴾ الشعراء ١٤. ولهذا أيضاً يأتي أول سؤال يسأله القاضي للمتهم أمامه: هل تقر بذنبك؟ تماماً مثل يوم القيامة، حين لايدخل أحد جهنم إلا بعد اعترافه بذنبه، الذي ورد بقوله تعالى ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ الملك ١١. وهكذا نرى أن السيئة يتبعها الذنب، وتقابلها الحسنة، وفي هذا قال تعالى ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ..** ﴾ آل عمران ١٢٠. ونرى أن ميزان الحسنات والسيئات عند ا لله غير متساو، فهو يجزي الحسنة بعشر أمثالها، ويجزي السيئة بمثلها، كما في قوله تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ الأنعام ١٦٠. وقوله تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ القصص ٨٤. وقوله تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ النمل ٨٩، ٩٠. وقوله تعالى ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ القصص ٥٤. وأكد تعالى أن قانون (الحسنات يذهبن السيئات) قانون مفتوح أمام الناس إلى أن تقوم الساعة، بقوله سبحانه ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن ا لله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ هود ١١٤، ١١٥.

نستطيع بعد هذا كله أن نضع للحسنات والسيئات والذنوب المخطط التالي:

١ً - الشرك با لله ⟵ ذنب فقط ليس فيه سيئة لأن ا لله لايساء ولايحسن إليه.

٢ً - شتم زيد عمرواً ←
أ - زيد أساء لعمرو بشتمه له.
ب - أذنب زيد بحق عمرو ← لعمرو ذنب على زيد.
جـ - اعتذر زيد من عمرو ← كفر زيد عن اساءته فسامحه عمرو.

٣ً - غش زيد عمرواً ←
أ - زيد أساء لعمرو ← وذلك بعملية الغش.
ب - أذنب زيد بحق عمرو ← لعمرو ذنب على زيد.
جـ - عوض زيد عمرواً عن الضرر الذي لحق به ← كفر زيد عن اساءته لعمرو، فغفر له عمرو، فذهب الذنب من عنق زيد.

هذه الحالة، شرحها التنزيل الحكيم في خبر يوسف مع امرأة العزيز. فقد اشترى عزيز مصر يوسف وآواه في بيته، بقوله تعالى ﴿ **وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ..** ﴾ يوسف ٢١. ولكن امرأة العزيز وقعت في غرام يوسف: ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حباً ..** ﴾ يوسف ٣٠. إلا أن ا لله صرف عن يوسف السوء والفحشاء، حين كاد أن يقع فيها لولا أن رأى برهان ربه فهرب، قال تعالى ﴿ .. **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ يوسف ٢٤.

لم تكن الفحشاء، كزنا وممارسة للجنس، قد حرمت شرعاً إذ نزل تحريمها أول مرة على موسى، بعد زمن يوسف، وكانت تحكمها الأعراف كظاهرة. وأراد سبحانه أن يصرف عن نبيه الفحشاء، فما هو السوء الذي أراد سبحانه أن يصرفه عنه قبل الفحشاء؟.

إنه السوء الذي أشارت إليه امرأة العزيز نفسها، زاعمة أن يوسف أرادها به **﴿.. قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾** يوسف ٢٥. إنه السوء الأكبر من الفاحشة، إنه الاساءة إلى الرجل الذي أكرم مثواه وأحسن إليه في بيته وائتمنه على أهله.

لقد صرف تعالى السوء والفحشاء عن نبيه، لكن امرأة العزيز المطعونة في كرامتها زعمت أنه هو الذي أراد بها سوءاً، واتهمت يوسف بأنه راودها عن نفسها وهاجمها، فأذنبت بحق يوسف لاتهامها له بالباطل. هنا نفهم معنى قوله تعالى **﴿يوسف أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك، إنك كنت من الخاطئين﴾** يوسف ٢٩. ونفهم أن الخطيئة هي ارتكاب الذنب عن عمد وسابق إصرار، وليس عن خطأ غير مقصود، ويذكرنا هذا الفهم للخطيئة بآياته تعالى:

- **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون﴾** البقرة ٨١.
- **﴿.. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾** القصص ٨.
- **﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾** النساء ١١٢. وهذا مافعلته امرأة العزيز تماماً.

وبما أن إخوة يوسف كادوا له عن عمد وسابق إصرار، وكانوا يعلمون مايفعلون فقد قالوا:

- **﴿قالوا تا لله لقد آثرك ا لله علينا وإن كنا لخاطئين﴾** يوسف ٩١.

- ﴿ **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ يوسف ٩٧.

ونلاحظ كيف أتبعوا قولهم (ذنوبنا) بقولهم (خاطئين)، أي أنهم أساءوا ليوسف عن سابق إصرار ووعي، فأذنبوا وكانوا خاطئين. فالذي يرتكب ذنباً وسيئة عن سابق إصرار ثم لايصلح ولايعترف ولايتوب، له جزاؤه كما في قوله تعالى:

- ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ الحاقة ٣٦، ٣٧.

ومثل ذلك قوله عن قوم نوح، عاندوه وكذبوه وجادلوه عن سابق إصرار وترصد:

- ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ..** ﴾ نوح ٢٥.

أما الخطأ غير المقصود، بمعنى الاساءة غير المتعمدة، فقد جاء في قوله تعالى :

- ﴿ .. **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ..** ﴾ الأحزاب ٥.
- ﴿ .. **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ..** ﴾ البقرة ٢٨٦.
- ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ..** ﴾ النساء ٩٢.

أما مفهوم الخطايا فقد ورد أيضاً في التنزيل الحكيم بقوله تعالى :

- ﴿ .. **وادخلوا الباب سجَّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ..** ﴾ البقرة ٥٨.

تماما كما ورد مصطلح الخطيئات في قوله تعالى :

- ﴿ .. **وقولوا حطة وادخلوا الباب سجَّداً نغفر لكم خطيئاتكم ..** ﴾ الأعراف ١٦١.

قلنا إن الخطيئات هي الذنوب والسيئات عن سابق إصرار ومعرفة من قبل مرتكبها. أما الخطايا فهي الذنوب بحق الله والسيئات بحق الناس عن جهل. وقد ورد بهذا المعنى في خبر سحرة فرعون، إذ آمنوا بألوهية فرعون وربوبيته طمعاً بمكافأته، لكنهم لما واجهوا موسى وشاهدوا ماشاهدوا، عرفوا أنهم على باطل وأن موسى على حق، فآمنوا برب موسى وهارون قائلين:

- ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ..** ﴾ طه ٧٣.
- ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾ الشعراء ٥١.
- ﴿ **.. وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ..** ﴾ العنكبوت ١٢.

وهكذا نفهم الفرق بين (نغفر لكم خطيئاتكم) و (نغفر لكم خطاياكم). وهذا يتوافق مع قوله تعالى ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون** ﴾ البقرة ٨١. ومع قوله تعالى ﴿ **.. أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم** ﴾ الأنعام ٥٤. ومع قوله تعالى ﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن..** ﴾ النساء ١٨.

هنا علينا أن نميز بين الخطأ في قوله تعالى ﴿ **.. ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ..**﴾ وبين الخطء في قوله تعالى ﴿ **.. إن قتلهم كان خطأً كبيرا** ﴾. فالخطأ هو ارتكاب عمل غير مقصود نهائياً كالقتل الخطأ، أي الخطأ المادي. أما الخطء فهو في القرار. أي عندما يقتل الوالدان ولدهما، فهما يعلمان مايفعلان، وهذا لايدخل في مفهوم القتل الخطأ، ولقد سامح الله وعفا عن الخطأ لكنه لم يسامح و لم يعف عن الخطء.

وهكذا يتبين لنا الفرق بين الخطأ - الخطء والخطيئات — الخطايا. ننتقل الآن إلى قوله تعالى عن قوم لوط:

- ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ..** ﴾ هود ٧٨.

ونتذكر أنه وصفهم بالمجرمين في قوله تعالى :

- ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين** ﴾ الحجر ٥٨، ٥٩.

فأين ظهر إجرام قوم لوط؟ وماهي السيئات التي عملوها؟

للجواب على هذا، نقرأ قوله تعالى :

- ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ العنكبوت ٢٨، ٢٩.

لقد ظهر إجرام قوم لوط في تكذيبهم بالله وباليوم الآخر وبالبعث وبالثواب وبالعقاب، وذلك في خاتمة الآية ٢٩. أما السيئات فهي ثلاث:

١ - اللواط: وهو ذنب فيه إساءة للعلاقات الجنسية (إنكم لتأتون الرجال).

٢ - قطع السبيل: وهو ذنب فيه إساءة لبقاء النوع البشري، والسبيل هنا سبيل النسل، فهم يقطعونه بالإبتعاد عن النساء.

٣ - المجاهرة بالمنكر: وهو ذنب فيه إساءة للعلاقات الاجتماعية والانسانية، فهم يأتون المنكر في النوادي وأماكن الاجتماعات العامة.

وننتقل بعدها لنلقي نظرة على تعاليم الاسلام، لنرى أين السيئات، وأين الذنوب.

١ - ألا تشركوا به شيئاً : فالشرك ذنب ليس فيه إساءة لأحد، حتى ولا لله، لكنه ذنب غير قابل للمغفرة في حال الاصرار عليه.

٢ - وبالوالدين إحساناً : عقوق الوالدين وعدم الاحسان إليهما ذنب فيه إساءة لهما، لكنه قابل للاصلاح والمغفرة والتكفير.

٣ - ولاتقتلوا أولادكم : قتل الولد من إملاق، ذنب + سيئة قابل للتكفير والمغفرة.

٤ - ولاتقربوا الفواحش : الفاحشة العلنية ذنب مقصود (خطيئة) + سيئة بحق المجتمع، أما غير العلنية فهي ذنب مع الله فقط ليس فيها إساءة لأحد بل تمت برضا الطرفين.

٥ - ولاتقتلوا النفس : فقتل النفس بغير حق إن كان عمداً، فهو ذنب وسيئة غير قابل للمغفرة والتكفير. أما إن كان خطأً فله حكم آخر.

٦ - ولاتقربوا مال اليتيم : أكل مال اليتيم ذنب + سيئة قابل للمغفرة والتكفير.

٧ - وأوفوا الكيل والميزان : الغش بالمواصفات إطلاقاً ذنب + سيئة قابل للمغفرة والتكفير.

٨ - وإذا قلتم فاعدلوا : فالزيغ عن العدل في كل شيء بداعي الهوى أو العصبية والقربى ذنب + سيئة قابل للتكفير والمغفرة.

٩ - وبعهد الله أوفوا : للحنث بالأيمان والعهود جانبان، جانب لايتعداه الحانث إلى غيره فهو ذنب فقط قابل للمغفرة، وجانب يتعداه إلى غيره كيمين المهنة أو القضاء، وهذا ذنب + سيئة قابل للمغفرة والتكفير.

١٠ - ذلكم وصاكم به : إن عدم الأخذ بما سبق مجتمعاً وترك وصية الله به ووعظه لنا ذنب، يضاف إلى ذنب وسيئة الجزء المتروك.

ونرى أن الكبائر هي مخالفة هذه الوصايا (الأركان) وعلى رأسها الشرك.

وهكذا نفهم قوله تعالى :

- ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار .. ﴾ النمل ٩٠.

- ﴿ .. ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ الرعد ٢٢.

- ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها .. ﴾ غافر ٤٠.

- ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها ..** ﴾ الشورى ٤٠.
- ﴿ **.. إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ هود ١١٤.

أما تكاليف الايمان فهي ذنوب بحق ا لله فقط، قابلة للمغفرة مع التوبة النصوحة، كترك الصلاة وإفطار رمضان وعدم الحج مع الاستطاعة. وفي بعضها سيئات إضافة إلى كونها ذنوب، كالشورى والقتال في سبيل الحرية ورفع الظلم. وهذه أيضا قابلة للتكفير والمغفرة.

٣- الحسنات يذهبن السيئات

لقد لاحظنا في آيات السيئات أن الحسنات تذهب بها، ولاحظنا أن الاحسان يأتي بعد الاسلام لله مباشرة في قوله تعالى:

- ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ..** ﴾ البقرة ١١٢.

فما هو الاحسان وكيف نفهم قوله تعالى (وهو محسن) ؟

الإحسان ضد الإساءة، فهو في علاقة جدلية معها، والمطلوب من الانسان في الحياة الدنيا، تغليب الإحسان على الإساءة. والإحسان يكون للنفس، ويكون للغير من المخلوقات، لكنه كما أسلفنا قبلاً، لايكون لله، فهو أعز وأكبر وأعظم وأكمل من أن يحسن أو يساء إليه.

إن علينا أن نتعامل مع كل عناصر الوجود الأخرى، على أساس الاحسان لا الاساءة. إلا أن غموض مصطلح الاحسان (وهو محسن) كان نقطة المقتل عند العرب المؤمنين في تطورهم التاريخي.

علينا أن نحسن للناس، كل الناس، زوجاً وولداً وجاراً ووالداً ووالدةً كما في قوله تعالى ﴿ **.. وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى**

والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم .. ﴾ النساء ٣٦.
وعلينا أن نتبع بالسيئة الحسنة لتذهب بها، وأن ننطلق في تقييم الآخرين من زاوية إحسانهم ونفعهم وعملهم الصالح، فتقييمنا للمرأة لايجوز أن ينطلق من مبدأ (سافرة ومحجبة)، بل من مبدأ إحسانها وعملها الصالح ونفعها في المجتمع.

وعلينا أن نحسن في العمل. فهذا النوع من الاحسان أهم نقطة يغفلها العرب المؤمنون اليوم، ويهملونها إهمالاً شبه كامل. فإذا سأل سائل: فلماذا هذه المجلدات والأسفار في الطهارة والنجاسة، ومفسدات الوضوء والصوم، حتى اقترنا فيها من الوسواس، رغم أنها بسيطة جاءت لابن العشر سنوات؟ أقول:

لقد ظهر الفقه بعد أن ترسخ الحكم الاستبدادي وغدا حقيقة قائمة، فلم يتدخل الفقه في شؤون السلطة، بل انصرف إلى التوسع في مالايهم السلطة. ومنه الاستفاضة والتوسع في فقه الشعائر ، من وضوء وغسل وصلاة وصوم وحج. فذهبوا فيها مذهباً جعل من العسير معه تطبيقها والالتزام بها، علماً أن الالتزام بها لايزيد من الحسنات، وعدم لزوم مالايلزم فيها لايزيد من السيئات، ولو أنهم أفاضوا في شرح الاحسان بالعمل، كما أفاضوا فيما ضيع وقت الناس بأمور لاتفيدهم، لما سبقنا على سلم الحضارة أحد في الدنيا.

فالطبيب مطالب بالاحسان في عمله، وكذلك المحامي والمدرس والعامل والمزارع، وعلينا أن نفتح في الفقه موضوعاً جديداً تحت عنوان "فقه الاحسان في العمل" نتوسع فيه بالشرح والتفصيل، ونربطه مع الاتقان من جهة، ومع الوفاء بمواعيد الانجاز من جهة أخرى، ونقسمه إلى عناوين فرعية نستفيض في كل منها مثل:
١ً- **الاحسان إلى المكان** : ويتجلى في نظافة وترتيب مكان العمل، ومكان الاقامة، وبالتالي الحارة والشارع والمدينة. فلا يكفي - كما اكتفى السادة الفقهاء - بأن نضع آلاف الصفحات والكتب، لتعليم الانسان كيف يتطهر ويستنجي، دون

أن نشير بكلمة واحدة إلى: أين يضع هذا الانسان فضلاته، وكيف يصرفها ليحافظ على نظافة وطهارة المكان. ومثال على مانقول، دورات المياه العامة في البلاد الاسلامية، وبخاصة الملحق منها بالمساجد.

٢ً- **الاحسان إلى الوطن** : ويتجلى في الغيرة على الوطن الأم، ومحبته وسمعته أمام الأجانب، وعلى صناعته وزراعته وحدوده، والتصدي لمن يعتدي عليها.

٣ً- **الاحسان إلى الحيوان** : وذلك بمعاملتها برفق، وعدم الاساءة إليها، حتى الذبيحة علينا أن نحسن إليها بذبحها بسكين حادة، فالرفق بالحيوان يدخل تحت بند (وهو محسن).

٤ً- **الاحسان إلى النبات** : وذلك برعاية الأشجار والغابات وعدم إبادتها لأغراض التوسع السكني، والمحافظة على نظافتها ونظافة المياه الجارية التي تشرب منها.

٥ً- **الاحسان إلى الطبيعة بشكل عام** : وهو ما انتهت إليه الانسانية اليوم في جميع أقطار المعمورة، حيث انصبت الاهتمامات على التلوث بمختلف أشكاله وأنواعه، سواء منه مايتعلق بالماء أو بالهواء، أو بالأرض. ومكافحة التلوث تدخل حتماً تحت باب (وهو محسن).

٦ً- **الاحسان إلى النفس** : وهو قسمان، قسم يختص بالجسد، أي بالمحافظة على الصحة، والتزام قواعد الطب الوقائي، والعلاج والرعاية الصحية في حال المرض، والعناية بالهندام واللباس وقص الشعر والأظافر، مما يجعل الانسان مقبولاً اجتماعياً.

وقسم يختص بالنفس كنفس، وهو التقوى الفردية، وتكون بإقامة الشعائر (صلاة، صوم، زكاة، حج)، وتكون في الطاعات التي تكفر السيئات، وتزيد من رصيد الانسان في مصرف رب العالمين.

هذه كما قلنا أمثلة من الاحسان، الذي أوجزه تعالى بقوله (وهو محسن)، والذي يدخل فيه كل أنواع النشاط الدنيوي، والتزامنا بهـذا الاحسـان في النشـاطات الدنيويـة لايعني أبداً أننا نسينا الآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة، ولولا الدنيا لما كانت الآخـرة، ولمـا انتصب ميزان، ولما قام حساب، وحق الثواب والعقاب. فـإذا فهمنـا هـذا صـار للحيـاة طعم ومعنى، وأصبح بإمكاننا أن نشارك في صنع الحضارة الانسانية، وفي صنع التاريخ.

ننتقل الآن إلى قوله تعالى :

- ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربـه ولا خـوف عليهـم ولا هم يحزنون** ﴾ البقرة ١١٢.
- ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهـو محسـن واتبـع ملـة إبراهيـم حنيفـاً، واتخذ ا لله إبراهيم خليلا** ﴾ النساء ١٢٥.

ونلاحظ أن ماورد في الآيتين حاء بعد قوله تعالى (وهو محسن). ونفهـم مـن آيـة البقرة أن الأجر في الآخرة مرتبط بالاحسان في الدنيا، وأن الدنيا فعـلا مزرعـة للآخـرة، نزرع فيها إحساناً، فنحصده عند ربنا أجراً. ولما كان تسـجيل الحسـنات والأحـر عنـد ا لله فردياً، فقد قال بصيغة المفرد: (فله أجره عند ربـه)، أمـا عندمـا قـال بصيغـة الجمـع (ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) فهي لجميع المحسنين بالآخرة، وأن الاحسـان في الدنيـا لايعني فقدان الآخرة وبيعها.

يقول تعالى في آية النساء (ممن أسلم وحهه لله)، ونفهم أن أي ديـن مهمـا كـان اسمه وعنوانه يسلم الانسان فيه وجهه لله + وهو محسن، فهو دين مقبول. ولكن كيـف ندخل قانون التطور وحدلية الفرد والمجتمعات الانسانية في قوله تعالى (وهو محسن)؟ إننا نجد ذلك واضحا في بداية الآية (ومن أحسن ديناً) وربـط ذلـك مـع نهايـة الآيـة بقولـه (واتبع ملة إبراهيم حنيفاً). مما نفهم معه أن الاحسان مرتبط بالحنيفية التي تتضمنهـا ملـة إبراهيم. فهو لم يقل (دين إبراهيم) بل قال (ملة إبراهيم)، لأن الدين يختلـف عـن الملـة.

فالدين هو مادان به الانسان من أحكام مدنية وأخلاقية، تتجلى بالاحسان انعكاساً على الفرد والمجتمع، وأنه في التنزيل الحكيم لايوجد إلا دين واحد هو الاسلام من نوح إلى محمد (ص). أما الملة، فهي المبدأ الذي تقوم عليه هذه الأحكام، وهو مبدأ الحنيفية الذي تم شرحه تفصيلاً في كتابي الأول، ويعكس التطور في الأحكام والتطور في المجتمعات. فقد أعطانا تعالى الثابت (الصراط المستقيم والوصايا) وترك لنا الحنيفية بالتطور والتغير، وتجلى ذلك في الرسالة المحمدية بالحدود.

وماتعنيه الحنيفية في مجال الاحسان، هو أن ثمة أعمالاً حسنة ولّىٰ زمانها، وأن ثمة أعمالاً حسنة جاء بها التطور لم تكن موجودة سابقاً. وهناك أعمال حسنة ستولد في المستقبل. وعلينا أن نجعل من الحنيفية ملتنا، ونتبع في ذلك ملة إبراهيم، فقد أعطانا تعالى مبادىء الإحسان، بحدوده وأسسه، وترك ظهوره وتجلياته للحنيفية، ولقوانين التطور والجدلية بين الحسنة والسيئة. إلا أن هذه التجليات وظهورات هذا الجدل تتغير من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر.

فالاحسان في الانتاج، مثلاً، هو التقيد بالمواصفات الانتاجية، والمواصفات الانتاجية لاتخرج عن كونها نسب وزنية ثقلية، أو وزنية بعدية، ينطبق عليها قوله تعالى ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾ الرحمن ٩، إلا أن ثمة مواصفات أخرى للانتاج تتغير وتتطور مع التقدم العلمي والتكنولوجي، فمواصفات السيارة الحسنة في العقد الأخير من القرن العشرين، تختلف عن مواصفات السيارة الحسنة في العقد الثالث والرابع من القرن نفسه. ونفهم أننا لو طبقنا المواصفات القديمة على سيارات اليوم لما كنا محسنين، ولما شملنا قوله تعالى (وهو محسن)، لأن هذا القول كما قلنا يرتبط بحنيفية ملة إبراهيم التي تراعي تطور وتغير مفهوم الاحسان بتغير الزمان والمكان، ونرى أن هذا المفهوم للاحسان له علاقة مباشرة بمصطلح اللهو والتفاخر والتكاثر الوارد في بنود الحياة الدنيا، والذي تم شرحه في فصل العباد والعبيد.

بهذا فقط نفهم لماذا أتبع سبحانه حديثه عن الحنيفية في الآية بقوله ﴿ .. **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ ، ولماذا نال إبراهيم اسم خليل الرحمن، ونفهم أخيراً أن بإمكان كل إنسان أن يتقرب إلى الله ويصبح خليلاً له، إن اتبع حنيفية ملة إبراهيم، في إحسانه إلى نفسه وإلى المخلوقات الأخرى في الوجود، وأن كل شيء حنيف متغير حتى الاحسان نفسه.

ثمة مثال آخر عن الحنيفية في الإحسان، نراها في شروط العمل. فقد اختلفت معايير العمل وشروطه وأجوره وساعاته اليومية في وقتنا الحاضر، عما كانت عليه في القرن الماضي. فرب العمل الذي شغل عماله ١٢ ساعة في الماضي، كان محسناً، لأن ساعات العمل لم تكن محددة آنئذ. بينما رب العمل الذي يشغل عماله ١٠ ساعات، إنسان مسيء غير محسن، لأن ساعات العمل تحددت اليوم بـ ٦ أو ٨ ساعات، ولأنه ببساطة لم يلتزم الحنيفية في الإحسان.

لقد نصت آيتا البقرة والنساء على الانسان الذي يسلم وجهه لله وهو محسن شرط التزام الحنيفية في الاحسان. فانظر معي كيف ربط سبحانه ذلك كله معاً، ووصفه بالعروة الوثقى التي يفلح من يستمسك بها، في قوله تعالى ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ لقمان ٢٢.

نخلص بعد هذا إلى القول بأن أهم تحول يجب علينا نحن العرب المؤمنين أن نقوم به، هو التحول نحو فقه الاحسان في كل شيء، وأن نتوسع فيه منطلقين من أن الاحسان الحنيفي مرتبط بالايمان بالله واليوم الآخر، ومن أنه جزء لايتجزأ من الحياة العملية الدنيوية، الذي سيأتي ثماره أجراً في اليوم الآخر. وأن هذا هو الطريق الذي بدونه سنبقى خارج التاريخ، وخارج الحضارة، وخارج الفعل الفاعل في سير الأحداث، وسنبقى أمة مهانة وذليلة، حتى لو أقمنا الصلاة وصمنا رمضان، وحجبنا نساءنا،

وأطلنا ذقوننا، كما نلاحظ أن الاحسان الحنيفي بكل أنواعه غير موجود نهائياً في الوعي الجمعي عند العرب المسلمين المؤمنين ويوجد بدلاً عنه فقه الشعائر.

ونحن نرى أن أحسن نظام واقعي توصل إليه الانسان، تظهر فيه بوضوح جدلية الحسنة والسيئة، وجدلية الاستقامة والحنيفية، وجدلية الثبات والتطور، هو النظام الديموقراطي القائم على التعددية الحزبية، وحرية التعبير، وحرية العقيدة والشعائر. كما نرى أن النظام الاستبدادي هو الذي يقوم على قمع هذه الحريات، وقمع تلك الجدليات، ولهذا فإن أول ظاهرة تستشري في أي نظام من هذا النوع هي ظاهرة الفساد.

٤- شرك التجسيد ذنب لا يغتفر

يقول تعالى ﴿ .. **إن الله يغفر الذنوب جميعاً** .. ﴾ الزمر ٥٣، لكنه يقول ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ النساء ١١٦، ويقول ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ يوسف ١٠٦. ونفهم نحن أن الذنوب جميعا قابلة للمغفرة، إلا الشرك فهو ذنب غير قابل للمغفرة. لكننا لانستطيع إلا أن نقف أمام آية يوسف ١٠٦. التي كأنها توحي بإطلاقها ضمن مافهمناه من آيتي الزمر والنساء، بأن معظم أهل الأرض سيخلدون في النار، بغض النظر عن إيمانهم وعملهم الصالح، لأن أكثرهم لايؤمن إلا وهو مشرك.

لقد قادنا هذا إلى البحث في مصطلح الشرك، وإلى تقسيمه في أنواع، أحدها هو الذي لايغتفر. ورجعنا إلى التنزيل الحكيم، لنجده يتحدث فعلاً عن نوع من أنواع الشرك، وبتعريف دقيق جداً، هو شرك التجسيد، بإعطاء الله بعداً زمانياً ومكانياً مادياً محدداً، وبتحويله إلى شيء، وهو الذي ليس كمثله شيء، تعالى الله عما يصفون، يقول تعالى:

- ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن ا لله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا ا لله ربي وربكم، إنه من يشرك با لله فقد حرم ا لله عليه الجنـة ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار** ﴾ المائدة ٧٢.
- ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن ا لله ثـالث ثلاثـة ومـا مـن إلـه إلا إلـه واحـد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ المائدة ٧٣.
- ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا علـى ا لله إلا الحق، إنمـا المسيح عيسى ابن مريم رسول ا لله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه، فـآمنوا بـا لله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكـم، إنمـا ا لله إلـه واحـد، سبحانه أن يكـون له ولـد لـه مـا فـي السـماوات ومـا في الأرض، وكفـى بـا لله وكيلا** ﴾ النساء ١٧١.

لقد بدأ تاريخ الانسـان بانفصالـه عـن المملكـة الحيوانيـة. وبـدأ تـاريخ التجريـد اللغوي بالانتقال من العلاقة الطبيعية بين الصـوت والمدلـول، إلى العلاقـة الاصطلاحيـة. فكان الانسان قبلها لايفهم، بمعنى أن الإدراك الفؤادي المشخص بالحواس من سمع وبصر كان الأساس في الفهم عند الانسان ومازال. إلا أن هذا الفهم كان في بداياته بعيداً عـن التفكير والعقلنة، أي أن الفؤاد عند قوم هود كالفؤاد عندنا اليوم، لكن مستوى التفكـير والعقلنة يختلف.

عندمـا نظـر الانسـان إلى ماحولـه مـن ظواهـر طبيعيـة، كـالرعد والـبرق والمطـر والنجوم والرياح، وربطها بإحساساته الداخلية، كالشبع والجـوع واللـذة والألم والأمـن والخوف، ظهرت الوثنية الطبيعية باعتبار أن ظواهرها آلهة تسيطر على هـذه الأحاسيس سلبا وإيجابا. وجاءت النذر من الملائكة لتصحح هـذا المسـار عنـد الانسـان. ثـم بـدأت النبوات والرسالات عن طريق وحي إلى واحد من الناس هو نوح. وكانت عبادة ظواهر الطبيعة هي السائدة، ولها هامانات (كهنة) لخدمتها وللوساطة بينها وبين الناس.

وكانت هذه بداية التجسيد للمعبودات، الذي هو شرك با لله تعالى. ولهذا نرى أن أول بند في دعوات الأنبياء والرسل هو ﴿**اعبدوا ا لله مالكم من إله غيره**﴾ [1] .

ثم مع تطور المجتمعات الانسانية، تطورت اختصاصات الآلهة، وأخذت لها أسماء مختلفة كالنجوم (المشتري والزهرة) ومع تطور وسائل الانتاج تم تشخيص الآلهة بأشكال مختلفة (إله الحب، إله الخصب، إله القمر، إله الماء، عشتار، حدد، بعل) وصار لهذه الأشكال منحوتات ترمز إليها. أي أن الوثنية تطورت، فجعلت للآلهة أسماء واختصاصات وأشكال منحوتة توضع في معابد لها هامانات (كهنة) وتقدم لها قرابين. هنا نلاحظ كيف تطورت فكرة المشخص في مفهوم الآلهة، فصار التقرب منها تقرباً مادياً عن طريق تقديم الذبائح والقرابين (بهائم، محاصيل، قرابين بشرية)، أي أن مفهوم التقرب من ا لله بالصوم والصلاة تقرباً مجرداً لم يكن موجوداً البتة.

وهكذا نرى أن الاسلام بدأ بنوح بالتوحيد، وبقي التوحيد مدار دعوات الأنبياء والرسل حتى خاتمهم محمد (ص)، الذي ختم به الاسلام. ﴿ **قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فهل أنتم مسلمون** ﴾ الأنبياء ١٠٨. ولعل سائلاً يسأل: إذا كان الاسلام قد بدأ بنوح ـ كما تقول ـ فلماذا ورد في التنزيل بأن إبراهيم أبو المسلمين؟ نقول: لقد نال إبراهيم هذا اللقب عقب رحلته من الوثنية إلى التوحيد، أي من المشخص إلى المجرد.

فقد بدأ إبراهيم رحلته بالبحث عن ا لله والتفكير فيه، كما يدلنا عليه قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾ الأنبياء ٥١.

---

(١) ـ نلاحظ أنه لاأحد من الرسل والأنبياء دعا الناس إلى وجود ا لله، بل دعوا إلى توحيده، فا لله لم يترك للأنبياء والرسل أمر تعريف الناس بوجوده، إذ هو موجود في فطرة كل الناس، منهم من يشخصه ويجسمه ومنهم من يرتقي ويجرده. والمجرم بالأصل لايعاقب على إنكار وجود ا لله، بل على تكذيب الرسل بالوحدانية والتكذيب باليوم الآخر (يوم الدين)، وعلى قطعه صلاته با لله عن سابق إصرار.

١ً ـ بدأ إبراهيم مستنكراً ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين** ﴾ الأنعام ٧٤. فهو يسأل ويقرر أن عبادة الأصنام ضلال، لكنه لم يكن يدري في تلك المرحلة ماهو الهدى، وأين هو الله المجرد عن الزمان والمكان والتشخيص.

٢ً ـ من هذا القرار، قرار أن الأصنام ليست آلهة، وأن اتخاذها ضلال مبين، بدأت رحلة إبراهيم في البحث. فنظر في السماء ليلاً ولفت انتباهه كوكب، كان أكبر وأكثر إشعاعاً من غيره، فظن أنه ربه، لكن ظنه ذهب أدراج الرياح مع اختفاء الكوكب.

٣ً ـ ثم رأى القمر، فظنه ربه، لكنه أفل كسابقه فانصرف عنه.

٤ً ـ ثم لاحظ أن الشمس أكبر هؤلاء جميعاً، إلا أنها حين غابت، أدرك أنه مازال في تخبطه وحيرته. لكنه خلال ذلك كله، كان يعرف بحدسه عم يبحث. كان يشعر أنه يبحث عما هو أكبر من هذه جميعاً، عما هو خارج سلطان الليل والنهار، وفوق مايراه من ظواهر تغيب وتشرق.

٥ً ـ هنا انتهى إبراهيم إلى وحدانية الله غير المشخص ووصل إلى نتائج هامة:

- الله هو خالق السموات والأرض، وهو فوق كل ظواهر الطبيعة.
- الله لايرى ولايسمع ولايلمس، أي لايمكن تشخيصه.
- كل شيء يتغير ويتحرك متطوراً في الكون، والله وحده الثابت.

هذا كله نلمحه في قول إبراهيم ﴿ **إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين** ﴾ الأنعام ٧٩. ومن هنا، من اقتناع إبراهيم بالحنيفية التي فطر الله السموات والأرض عليها، بسنة التغير والتطور والحركة التي أخضع الله لها الوجود، ببقاء الله وحده ثابتاً لايتغير ولا يتبدل، ولايحده زمان ولامكان، فقد استحق إبراهيم اسم "أبو المسلمين". ونرى أنه يوجد لإبراهيم مكانة

خاصة عند كل المسلمين بفروعهم الثلاثة المؤمنين (أتباع محمد "ص") والذين هادوا أتباع موسى عليه السلام والنصارى أتباع عيسى عليه السلام. وكل فرع من هذه الفروع أطلق التنزيل الحكيم عليه مصطلح ملة كما في قوله تعالى ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ..** ﴾ البقرة ١٢٠، فهناك ملة النصارى وملة اليهود وملة المؤمنين، ولكن المؤمنين أتباع محمد (ص) هم صراحة وبدون لبس على ملة إبراهيم (المسلمين المؤمنين)، لأن الحنيفية واضحة بشكل لالبس فيه في التنزيل الحكيم (سنة التطور والتغير)، بينما هذا الوضوح غير موجود في كتاب موسى. ومع الأسف أن حالة المسلمين المؤمنين الآن، هي أبعد مايكون عن حنيفية إبراهيم.

ونلاحظ أن إبراهيم استعمل مبدأ الشك في وصوله إلى اليقين، ومبدأ تجربة الخطأ للوصول إلى الصواب. وهذان هما أساس البحث العلمي في العالم حتى اليوم، وبهذا كان إماماً للناس، وليس للمتقين فقط، وإماماً للمسلمين بالتوحيد المجرد، حتى أنه طبق مبدأ التجربة للتحقق من النظرية، حين طلب من الله إحياء الموتى، فتحول بعد التجربة من شاهد على إحياء الموتى (عليم) إلى شهيد على إحياء الموتى (سميع بصير). وبهذا انفرد إبراهيم وحده عن الناس بالتوحيد المجرد والحنيفية، ولهذا قال عنه تعالى ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** ﴾ النحل ١٢٠. ولكن إبراهيم وجد نفسه، وقد وصل إلى الله، أمام مشاكل:

- كيف يتقرب إلى هذا المجرد، خالق السموات والأرض؟
- بما أن لكل معبود معبد، فأين بيت هذا الواحد الأحد، وهل له بيت؟
- أين تقدم القرابين لله؟ وماهي القرابين التي يحبها؟
- ماهو اسمه؟ لقد كان ثمة آلهة كثيرة عند الناس لكل منها معبد واسم واختصاص وأتباع وكهنة، وللتمييز فقد سمى الناس هذا الذي يدعو إليه إبراهيم "إله إبراهيم"، لأن فكرة الإله المجرد ولفظه كانت بعيدة عن الذهن وغير مفهومة.

هنا نلاحظ كيف استعمل التنزيل الحكيم هذه التسمية بكل دقة في قوله تعالى **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾** البقرة ١٣٣. ونلاحظ كيف لم يقولوا "نعبد الله" .. لأن هذا المفهوم المجرد لم يكن واضحاً في الأذهان كما أسلفنا.

ونمضي مع التنزيل الحكيم، لنرى كيف تم حل المشاكل أمام إبراهيم، وكيف جاءه جواب تساؤلاته :

- لقد دل سبحانه خليله إبراهيم على مكان البيت، وأمره بتطهيره للعبادة وبرفع قواعده ، بقوله تعالى **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾** البقرة ١٢٥. وبقوله تعالى **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم﴾** البقرة ١٢٧. وبقوله تعالى **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾** آل عمران ٩٦.

وتم حل مشكلة التقرب إلى الرب المجرد غير المشخص، والاتصال به والصلة معه بالصلاة، فأول مرة بالتاريخ تقام فيها الصلاة كشعيرة من الشعائر بركوعها وسجودها، كانت في زمن إبراهيم. بدلالة البقرة ١٢٥، وبدلالة قول إبراهيم لربه **﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء﴾** إبراهيم ٤٠. هذا فيما يتعلق بالشعائر المجردة (إقامة الصلاة). أما فيما يتعلق بالشعائر المشخصة، فنلاحظ أن الكعبة بقيت حتى الآن بيتاً لله، بينما اندثرت كل بيوت الآلهة الأخرى، رغم ازدهارها في حينها. وبما أن الطواف حول الكعبة (بيت الله) هو من الشعائر المشخصة، أي عبادة فؤادية بحتة باعتبار أن الكعبة أساساً

من حدران وأحجار، فقد قام إبراهيم داعياً ﴿ .. **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ... ﴾ إبراهيم ٣٧. و قد قلنا بأن الفؤاد هو الإدراك المشخص.

وبقيت مشكلة الذبائح والقرابين تؤرق إبراهيم، إذ كيف تقدم القرابين، ومن بينها قرابين بشرية، إلى بيوت ومعابد آلهة مزيفة لاتضر ولاتنفع، ولايقدم مثلها لبيت خالق السموات والأرض؟ وأصبحت شغل إبراهيم الشاغل حتى بدأ يرى في منامه أنه يذبح ابنه اسماعيل ليقدمه قرباناً، على جري العادة في القرابين. ولابد أنه رأى هذا المنام ذاته أكثر من مرة، بدليل أنه قال لابنه ﴿ .. **إني أرى في المنام أني أذبحك** .. ﴾ الصافات ١٠٢، و لم يقل " إني رأيت"، كما قال يوسف لأبيه، وقد رأى رؤياه تلك مرة واحدة. ولاشك في أن جواب الابن لأبيه ﴿ .. **يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء ا لله من الصابرين** ﴾ الصافات ١٠٢، فيه إشارة إلى إيمان إسماعيل بإله أبيه من جهة، وإلى إيمانه بأبيه كنبي من جهة ثانية، وإلى بره بأبيه من جهة ثالثة، وإلى قناعته التامة بأن ذبحه قرباناً لله فيه تشريف له ورفع لمقامه، هذه القناعة التي كانت حتى لدى القرابين التي تقدم إلى معابد الآلهة الأخرى.

هنا يجيء الحل من ا لله سبحانه وتعالى، فيفدي إسماعيل بذبح عظيم. ومازالت هذه السنة معمولاً بها في الحج حتى الآن، للدلالة على مايلي:

١ً - ان ا لله تعالى لايناله شيء من لحوم ودماء الأضاحي، إنما هي تعبير منا نحن على طاعتنا وحبنا لله، إحياء لذكرى خليله، وتيمناً بما قدم من قربان، أما الذبائح نفسها فينتفع بها وتوكل.

٢ً - إن ا لله لايريد أية ذبائح أو قرابين بشرية، ومنع مثل ذلك بتاتاً، لأنه شأن من شؤون الآلهة الباطلة.

هنا نفهم تماماً قوله تعالى يصف البيت الحرام ﴿ .. **ومن دخله آمناً** ﴾. الذي لايمكن أن يعني أبداً أن من دخله، كان آمناً من أن يقتله آخرون، فهناك كثيرون قتلوا في المسجد الحرام، والمسجد نفسه سبق أن دك عدة مرات قديماً وحديثاً وكان فيه أناس قتلوا. بل يعني أن من دخله كان آمناً من الذبح والتقديم كقربان. وهذه الناحية بالذات، ناحية منع تقديم القرابين البشرية بدأت عند إبراهيم، ثم انتشرت في كل أرجاء المعمورة، فقد نرى الآن إنساناً يقتل إنساناً آخر، لكننا لانرى أبداً أحداً يذبح قرباناً لله تعالى، أو لأي إله آخر. وهكذا نرى رأي العين مصداقية قوله تعالى ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم** ﴾ الصافات ١٠٨، ١٠٩. كما نرى اليوم في الاسلام بفروعه الثلاثة اليهودية والنصرانية والمؤمنة، وحود الصلاة التي تقام، وفيها ركوع وقراءة وسجود.

لقد غطى التنزيل الحكيم في القصص القرآني سيرة إبراهيم، إلى حانب سير أنبياء آخرين، لكنه خصص تغطية أكبر لسيرة موسى .. فلماذا ؟ لأنه في فترة مابين موسى وإبراهيم، كان إله إبراهيم، وهو رب السموات والأرض، واحداً من آلهة كانت موجودة بالعشرات. وكان أتباع إله إبراهيم قلة، خاضعة للاستبداد والعبودية. هكذا كان الوضع حين بعث موسى، لاشريعة كاملة، ولامبادىء أخلاقية متكاملة، ولانظرة شمولية إلى الحياة والكون والانسان.

ولكن عندما بعث الله موسى، تم حل هذه المشكلات:

١ً - تم ترسيخ إله إبراهيم في أذهان الناس، فالآيات التسع التي حاء بها موسى هي تعبير عن معركة حرت بين إله إبراهيم وموسى، وبين بقية الآلهة، وتدخل فيها سبحانه مباشرة. أي أن المعجزات التسع التي أوتيها موسى، لم تأت لأن السحر كان شائعاً في ذلك الوقت، وإنما حاءت لتصيح بالناس: أيها الناس، أنا إله إبراهيم وموسى، فأين آلهتكم؟ أروني ماذا تستطيع أن تفعل لكم. فكان لسان

حال معجزات موسى، هو هذا التحدي وهذا الاعلان عن المعركة التي بدأت بقوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ..** ﴾ الاسراء ١٠١.

٢ً - بما أن كل الآلهة كانت لاتنطق ولاتسمع، فقد كلم الله موسى، وسمع موسى كلاماً مباشراً من ربه، وهذا كان جديداً على الناس حتى وقت موسى، حيث اعتادوا قبله على المشخص من الملائكة، كما في قوله تعالى:

- ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً ..** ﴾ هود ٦٩.
- ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعا ..** ﴾ هود ٧٧.
- ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ الشعراء ١٠٥.
- ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه..** ﴾ الأحقاف ٢١.

ولهذا قال الله لموسى ﴿ **قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ..** ﴾ الأعراف ١٤٤. وذلك ليبين الله لنا أن تطور الانسانية في ذلك الوقت كان بحاجة إلى هذه الصدمة المباشرة (كلامي) والمعرفة المباشرة (تسع آيات بينات).

حتى أن فرعون ذاته أدرك وصدق بأن إله موسى هو الله وأن كل ماعداه باطل ﴿ **.. حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ يونس ٩٠. وهذا كان محصلة للآيات التسع التي قامت بصدمة كبرى، بدأ بعدها إله إبراهيم وموسى يدخل في وعي الناس، وفي وعي فرعون وسحرته.

٣ً - لقد تم تحرير بني إسرائيل بعد هذه الآيات التسع. وكان تحريرهم تحصيل حاصل، أي أن الناس التي تعودت العبودية مئات السنين، كانت لاتستطيع تحرير نفسها، والثورة كانت تعني القضاء المبرم عليهم.

٤ً- بعد تحرير بني إسرائيل بدأت الشريعة تنزل على موسى (الكتاب والفرقان) الشريعة والوصايا العشر في الألواح. إلا أن مشكلة المشخص مازالت موجودة في أذهان الناس، رغم أنهم اقتنعوا بإله إبراهيم وموسى. ولهذا أرادوه أن يكون مشخصاً، هنا جاءت النقلة الخطيرة في التشخيص، من تشخيص الآلهة الباطلة إلى تشخيص الإله الحق. صحيح أنهم اقتنعوا تماماً ببطلان كل الآلهة المشخصة، ولكن ألا يمكن لإله إبراهيم وموسى أن يكون مشخصاً ؟

إننا نرى ذلك واضحاً في قولهم لموسى ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى ا لله جهرة ..** ﴾ البقرة ٥٥. ونلاحظ كيف آمنوا با لله سبحانه، ولكن أين هو .. وكيف يمكن أن يدرك مشخصا دون أن يرى جهرة ؟ لقد ضغط هذا الطلب على موسى إلى حد أنه طلب هو نفسه من ا لله أن يراه جهرة، وذلك في قوله تعالى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين**﴾ الأعراف ١٤٣.

هناك علم موسى أنه ا لله، اصطفاه برسالاته وبكلامه لاآكثر، وكلمه وأوحى إليه من وراء حجاب، أما أن يرى ا لله جهرة، فهذا لايمكن إلا إذا كان ا لله شيئاً مشخصاً، تعالى عما يصفون.

ونتذكر ماحدث قبل أن يذهب موسى لميقات ربه، فقد طلب منه قومه أن يشخص لهم ا لله، كما في قوله تعالى ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير ا لله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ الأعراف ١٣٨ ـ ١٤٠.

هذا ماكان قبل ذهاب موسى، فماذا حدث بعد ذهابه وغيابه عنهم أربعين ليلة؟

- **﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾** الأعراف ١٤٢.

في هذا الميقات يعطي ا لله لموسى الوصايا العشر على الألواح ويوحي إليه من وراء حجاب، ويصطفيه على الناس برسالاته وبكلامه.

- **﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأريكم دار الفاسقين ﴾** الأعراف ١٤٥.

لقد جاءت الوصايا العشر إلى موسى (الفرقان)، وجاءت إلى محمد (ص) في سورة الأنعام ١٥١ ـ ١٥٣. وعلى رأسها هنا وهناك التوحيد. ولعل النظرة التي نلقيها على الاسلوب الذي جاءت به هذه الوصية الأولى هنا، والاسلوب الذي جاءت به هناك، تلقي الضوء على مانريد.

١ً ـ الوصية الأولى (التوحيد) عند موسى (ع): لاتجسدني.
Don't make image of me.
٢ً ـ الوصية الأولى عند محمد (ص): لاتشركوا به شيئا.

إن المحتوى واحد هو التوحيد، لكن الفرق في التعبير، فرق زمني تاريخي يتبع وعي الناس في كل وقت، ففي زمن موسى كان التجسيد مطلباً ملحاً عند الناس وفكرة راسخة في أذهانهم، فجاءت صيغة الأمر بالتوحيد متوافقة مع الوعي التاريخي (لاتجسدني). أما في زمن محمد (ص)، فقد بعد الناس عن التجسيد المباشر، حتى من يعبد الأصنام منهم قال **﴿ .. ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى ا لله زلفى .. ﴾** الزمر ٣. أي أن المشركين زمن محمد (ص) كانوا يعرفون أن ا لله الواحد هو خالق السموات والأرض، ويعرفون أن الأصنام مجرد واسطة. أما زمن موسى، فكانوا يريدون أن يجعلوا ا لله مشخصاً. وهنا نلاحظ الفرق الكبير في الوعي التاريخي بين الزمنين.

نعود إلى موسى في الميقات، لنرى ماذا كان يفعل قومه وهو يستلم الألواح وعلى رأسها وصية (لاتجسدني). لقد كانوا فعلاً يجسدون الله. واستطاع السامري أن يضلهم لأنهم حديثو عهد بالتوحيد، ولأن التجسيد راسخ في أذهانهم للآلهة الباطلة وإله موسى على حد سواء، يقول تعالى :

- ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ..** ﴾ الأعراف ١٤٨.
- ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ طه ٨٣ - ٨٩.
- ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ البقرة ٩٢.

هنا نلاحظ كيف تم الاعتراف بإله موسى، ولكن تبع هذا الاعتراف تجسيد من السامري :

الوصية الأولى: لاتجسدني ← فأخرج لهم عجلاً جسداً ← فقالوا هذا إلهكم وإله موسى

لقد بقيت فكرة تجسيد الله هذه في أذهان الناس، حتى صارت عند العرب زمن البعثة المحمدية أقل وأخف وطأة.

الله خالق السموات والأرض	⟵	**الأصنام**
↓		↓
ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله	⟵	**ومانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**

في الفترة الزمنية الفاصلة بين موسى (ع) ومحمد (ص)، بعث المسيح عيسى (ع)، ليحل بعض ماحرم على بني إسرائيل، وليضع عنهم الإصر والأغلال، متمماً لرسالة موسى (ع). وليعلمهم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. فماذا حصل بعد أن رفع الله عبده ورسوله المسيح إليه؟

لقد فصل بولص المسيحية عن اليهودية، مع إبقاء الكتاب المقدس واحداً.

- الكتاب - شريعة موسى (كتوبيم) مع التعديلات وإلغاء الاصر والأغلال.
- الحكمة - الوصايا مضافاً إليها قواعد أخلاقية.
- التوراة - نبوة موسى.
- الانجيل - نبوة عيسى.

بعد أن فصل بولص المسيحية عن اليهودية، وجعلها مستقلة تماماً، بقي الكتاب المقدس يتلى كمصدر لمعلومات خلق الكون (نبيئيم ـ قصص الأنبياء)، أما الشريعة (كتوبيم) فقد أهملت، وتم أخذ الوصايا العشر للعمل بها كمنظومة أخلاقية لاغنى لكل الناس عنها.

ولابد من التنويه إلى أمر في توراة موسى (ع) (الموجودة بين أيدينا اليوم) هو أنها خالية من أي ذكر لليوم الآخر، وهو أمر في غاية الخطورة، بينما نجد البعث واليوم الآخر بشكل لالبس فيه في الانجيل (كما هو بين أيدينا اليوم). وهذا ماجعل اليهود يؤمنون بالحياة الدنيا، ويحرصون عليها تماماً، ويؤمنون بأنهم أحباء الله فيها، وهذا مانقرؤه في قوله تعالى :

- **﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو**

يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وا لله بصير بما يعملون﴾ البقرة ٩٢ ـ ٩٦.

هذه النقطة تثير الشكوك الكبيرة حول سلامة العقيدة الحالية عند اليهود بما يخص اليوم الآخر من جهة، وبما يخص اليهود والذين هادوا (كما وردا في التنزيل الحكيم) وهل هما اسمان لمسمى واحد ؟.

بعد فصل المسيحية عن اليهودية، بدأ البحث جدياً بطبيعة المسيح، هل هي إلهية أم بشرية، وهل هي واحدة. وقام بالبحث العديد من المجامع المسكونية التي انعقدت في الفترة الواقعة بين رفع المسيح وولادة محمد (ص) عام ٥٧٠م. وبعثته عام ٦١٠م.(١) فانقسمت الآراء حول طبيعة المسيح :

---

(١) ـ

عام ٣٢٤ م

أصدر الامبراطور قسطنطين قراراً، أنهى بموجبه اضطهاد المسيحيين ومنح جميع رعاياه حرية المعتقد.

١ـ عام ٣٢٥ م : مجمع نيقيه المسكوني الأول.

أنكر آريوس المصري ألوهية المسيح في هذا المجمع الذي حضره الامبراطور، و٣٠٠ أسقف أكثرهم من المقاطعات الشرقية، وانفض المجمع النصف مؤيد والنصف معارض.

يقول آريوس بإله واحد هو الأب، أما الابن فهو مخلوق من العدم بإرادة الأب، لهذا لايتساويان، والمسيح ليس إلها.

ويقول المعارضون : المسيح ليس مخلوقا من عدم، بل من جوهر الأب قبل كل الدهور، ومساو للأب في الجوهر، وإله حق من إله حق، لأجل البشر وخلاصهم. تجسد وتأنس وتألم ومات، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء. وسيعود ليدين الأحياء والأموات.

قرر المجمع نفي آريوس وأتباعه، واعتبار كنائس روما وأنطاكية والاسكندرية متقدمة على الكنائس

٢ ـ عام ٣٣٦ م : مجمع القسطنطينية.

أعيد آريوس وأتباعه من منفاهم، وأيد الامبراطور وجهة نظرهم.

١ - قسم قال بالطبيعة الواحدة الإلهية للمسيح، وأنه هو الله مجسداً. وهذا من بقايا تجسيد السامري في زمن موسى، فطوروا التجسيد من العجل إلى المسيح.

---

٣ - عام ٣٤٣ م : مجمع سارديكيه.

انعقد بهدف إرضاء الفريقين، ثم انفض بلا جدوى.

٤ - عام ٣٤٥ م : مجمع ميلانو.

هادن الامبراطور كونستانتيوس الأرثوذكسيين النيقيين، وأعادهم إلى مناصبه. وانقسم الآريوسيون إلى فرقتين:

أ - أنصاف الآريوسيين : ويقولون بأن الأب والابن من نوعية متشابهة ولكنها ليست واحدة.

ب - الآريوسيون المحافظون : أنكروا كل تشابه في النوعية بينهما.

انقلب الامبراطور نحو الآريوسيين، وراح يضطهد الأرثوذكس اليعقوبيين.

٥ - عام ٣٨١ م : المجمع المسكوني الثاني / مجمع القسطنطينية.

١٥٠ أسقفا جلهم من الأرثوذكس، أدان الهرطقة الآريوسية.

٦ - عام ٤٣١ م : المجمع المسكوني الثالث .

٢٠٠ أسقف حكموا على نسطوريوس بالهرطقة، ونفاه الامبراطور إلى مصر فاغتاله رهبانها. وكان بطرك القسطنطينية.

يرى نسطوريوس بوجود طبيعتين في المسيح، إلهية وبشرية. وهما منفصلتان والغالبة هي البشرية. وهذا يعني أن مريم ليست والدة المسيح الإله، وإنما والدة المسيح الإنسان.

ويرى معارضوه بزعامة كيريلوس بطرك الاسكندرية، أن للمسيح طبيعتين، إلهية وبشرية، وهما متحدتان في شخص المسيح.

٧ - عام ٤١٩ م : مجمع أفيسوس، ويسمى المجمع اللصوصي.

الاعتراف بمذهب الطبيعة الواحدة البشرية للمسيح، واعتبر كل معارض لهذا المذهب خارجا عن الدين (هرطيقا).

تأسس هذا المذهب على يد يعقوب البرادعي من سوريا في القرن الخامس.

٨ - عام ٥٥١ م : مجمع خليقدونية المسكوني الرابع.

تألف من ٦٣٠ أسقفا، وأدان مذهب الطبيعة الواحدة (اليعقوبي) والمذهب النسطوري. ورأى أن المسيح إله له كل صفات الإله، وإنسان له كل صفات الانسان. هو ابن ووحيد واحد. وهو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح.

٢ ـ قسم قال بطبيعتين للمسيح إلهية وبشرية، منهم من غلب الإلهية ومنهم من غلب البشرية.

٣ ـ قسم قال ببشرية المسيح، وأنه عبد لله ورسول، وكلمته التي ألقاها إلى مريم. وعلى هذا فمريم ليست أم إله. ويبدو أن نصارى الحبشة والأنباط أيام الهجرة الأولى، كانوا من هذا القسم، بدليل أن النجاشي حين سمع جعفر (رض) يتلو سورة مريم، لم ينكر منها شيئاً، ولم يجد فيها مايتعارض مع معتقده.

من هذا الانقسام حول طبيعة المسيح نشأت العقائد في الكنائس المسيحية فانقسمت إلى يعاقبة ونساطرة وأقباط آريوسيين وغير ذلك، إلا أن الزخم الذي ساد هو زخم الثالوث المقدس.

بعد هذه المقدمة، نستطيع أن نفهم بكل دقة معنى قوله تعالى في المائدة ٧٢ و ٧٣ وفي النساء ١٧١، ونستطيع أن نفهم أن الشرك كذنب لايغتفر هو شرك التجسيد الذي يحرم تعالى على أصحابه الجنة.

أ ـ

- ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن ا لله (هو) المسيح ابن مريم ..**
- **وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا ا لله ربي وربكم ..**
- **إنه من يشرك با لله ..**
- **فقد حرم ا لله عليه الجنة ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار** ﴾ المائدة ٧٢.

ونلاحظ هنا أن الكافرين يقولون إن ا لله هو المسيح، وهذا هو التجسيد.

ونلاحظ أن المسيح يدعو هؤلاء إلى عبادة ا لله (توحيد ألوهية) لأنه ربه وربهم (تنزيه عن الوالدية وربوبية).

ونلاحظ أن المسيح يسمي ذلك كله شركاً يحرم على صاحبه الجنة (لأن التجسيد واضح فيه).

ب -

- **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن ا لله ثالث ثلاثة ..**
- **وما من إله إلا إله واحد ..**
- **وإن لم ينتهوا عما يقولون ..**
- **ليمسن الذين كفروا (منهم) عذاب أليم ﴾ المائدة ٧٣.**

ونلاحظ هنا أن الحديث عن التثليث، وليس عن التجسيد، وأن للتنزيل موقفاً أقل شدة لم يأت فيه تحريم الجنة.

فهو هنا يهدد من لاينتهي بالعذاب الأليم. ونلاحظ أخيراً أنه يقسم المثلثين إلى قسمين، وأن العذاب الأليم سيمس القسم الذي كفر منهم.

وهذا يقودنا إلى النساء ١٧١.

- **﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ..**
- **.. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول ا لله وكلمته ..**
- **.. فآمنوا با لله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ..**
- **.. إنما ا لله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد .. ﴾** النساء ١٧١.

هنا نجد ألطف أنواع الخطاب القرآني الثلاثة، فلا حرمان من الجنة، ولا وعيد بالعذاب، بل أمر إن كان لايخلو من الحزم، فهو لايخلو من الاعتدال الهادىء (انتهوا خيراً لكم).

ولعلنا لاننسى ماتورده السيرة النبوية عن نصارى نجران، حين قدموا على النبي (ص) في المدينة، فسمعوه وأكرمهم، وتركهم على ما هم عليه، وأعطاهم كل ما سألوا، و لم يدخل معهم في أي جدال.

هذا مايتعلق بالشرك الذي لايغتفر، وهو شرك التجسيد، أما الشرك الذي يقع به كثير من المؤمنين، الوارد في قوله تعالى **﴿ وما يؤمن أكثرهم با لله إلا وهم مشركون﴾**

يوسف ١٠٦. فهو شرك الربوبية أو شرك الألوهية أو شرك يقترب أحياناً من التجسيد دون أن يصل إليه. ولقد تحدثت بالتفصيل عن الشرك في "الكتاب والقرآن" ، وملخصه أن شرك الألوهية يكمن في جعل جيل الصحابة والفقهاء معصوماً مطلقاً، وجعل ماقالوه شرعاً إسلامياً إلى أن تقوم الساعة. أما شرك الربوبية فيتجلى في زيارة قبور الأولياء، والتقرب إلى الله عن طريقهم، كما لو أن التقرب منه يحتاج إلى واسطة، أو كما لو أن الله أصم غائب تعالى الله عما يصفون.

وقد يجتمع شرك الألوهية والربوبية في شخص الشيخ أمام المريد، فكلام الشيخ مطلق لايناقش، والطاعة له مطلقة، والوصول إلى الله لايكون إلا بواسطته. إضافة إلى أن البعض اقتربوا كثيراً من شرك التجسيد في نظرتهم إلى الرسول الكريم، من خلال الإطروحات التالية:

١ - مكتوب على عرش الرحمن : لاإله إلا الله محمد رسول الله.

٢ - خلق الله الكون من نور محمد.

٣ - كل ماقاله وفعله محمد (ص) وحي من الله. أي أنهم جعلوا الوحي وحيين وحي التنزيل الحكيم، ووحي مايقوله ويفعله محمد (ص).

٤ - كل هذا ليثبتوا مقولة "العلماء ورثة الأنبياء" ولايجاد درع يختبئون وراءه (شرعية الطاعة)، وسيف يشهرونه على رؤوس الناس (شرعية الأوامر)، فكل شيء يريدون أن يجبروا الناس عليه أو يهددوهم به، يجدون له حديثاً يختبئون وراءه، والحديث وحي ثان كما يقولون. والرسول بريء من اضطهاد الآخرين باسمه وإشهار سيوف الطاعة والتخويف عليهم تحت رايته.

كانوا، ومازالوا، إذا لم يجدوا لما يريدون نصاً شرعياً في التنزيل الحكيم، التمسوا واخترعوا له حديثاً أو خبراً في السنة النبوية. حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أنهم إن

وجدوا نصاً قرآنياً يعارض مايقولون، اخترعوا حديثاً يوافقه، زاعمين أن الحديث ينسخ التنزيل، فلا حول ولاقوة إلا با لله العلي العظيم.

لقد نظرنا حولنا اليوم، فوجدنا الانسانية أحسن حالاً من وجهة نظر شرك التجسيد. فلقد جاءت البعثة المحمدية، وكان ثمة أصنام تعبد وأوثان تقدس، قضى التوحيد عليها، وأمر الرسول الكريم إن صح، لقرب العهد بعبادة الأصنام، بترك صنع التماثيل والتصاوير، تجنباً لما تحمله من رجس مازال ماثلاً بشكل أو بآخر في أذهان الناس.

أما اليوم، فمن المضحك أن نأمر الناس مثلاً بإتلاف تمثال أبي الهول في مصر، خوفاً من عبادته، أو أن نظن أن الناس في أمريكا تقدم القرابين لتمثال الحرية زلفى إلى ا لله. فقد ابتعدت أذهان الناس تماماً عن التشخيص والتجسيد، وانغرس فيها التجريد، واتسعت مداركهم عن الكون وأبعاده، وزادت معارفهم عمقا في فهم آيات ا لله تعالى، و أصبحوا بمنأى عن الاختلاط الوثني المشخص، وهذا كله مما تركه لنا إبراهيم أبو المسلمين حين نقلنا من التشخيص إلى التجريد، فسلام على إبراهيم.

ننتقل أخيراً إلى قوله تعالى :

- ﴿ **لله ما في السماوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به ا لله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وا لله على كل شيء قدير**﴾ البقرة ٢٨٤.
- ﴿ **لايكلف ا لله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ البقرة ٢٨٦.

ولعل مادعانا إلى الوقوف عند الآيتين، قولـه تعـالى في الأولى (فيغفـر لمـن يشـاء) والمغفرة لاتكون إلا للذنـوب، وقولـه تعـالى في الثانيـة (إن نسـينا أو أخطأنـا) وقولـه في الثانية أيضا (واغفر لنا) وعلاقة هذا بما نحن فيه من قول في الذنب والخطيئة.

أما مايذهب إليه القائلون بالنسخ (انظر الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سـلامة ص ١٦) مـن أن قوله تعـالى (وإن تبـدوا مـافي أنفسـكم أو تخفـوه) منسـوخ بقولـه تعـالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها)، وأن الناسخة هذه منسوخة بدورها بقوله تعالى **﴿يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر﴾** فهـو ليـس عندنـا بشـيء، لعـدد مـن الأسـباب شـرحناها تفصيـلاً في كتابنـا الثـاني "دراسـات في الدولـة والمجتمـع". منهـا أن النسـخ يستهدف الآية، والمنسوخ هنا جزء من آية، ومنها أن النسخ يكون في آيات الرسالات، وليس في آيات الرسالة الواحدة، ومنها أن النسـخ يسـتهدف الأحكـام، والمنسـوخ هنـا قوانين ونواميس.

ونبدأ بقوله تعالى **﴿ وإن تبدوا مـافي أنفسـكم أو تخفـوه يحاسـبكم بـه الله ﴾**. ونرى أننا لايمكن أن نفهمه بدقة إلا في ضوء قوله تعالى :

- **﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير ﴾** آل عمران ٢٩.
- **﴿ يعلم ما في السماوات والأرض ويعلـم مـا تسـرون ومـا تعلنـون، والله عليـم بذات الصدور ﴾** التغابن ٤.

ونلاحظ في آل عمران قوله (مافي صدوركم)، أي أن الإبداء والإخفـاء جـاء لمـا في الصدور. والصدر، كما شرحت في كتـابي الأول "الكتـاب والقـرآن" هـو الدمـاغ، فمركز التفكير هو الرأس مستقر الدماغ، وليس الصدر مستقر الرئتين. ولهذا جـاء قولـه تعالى بعد ذلك مباشـرة (يعلمـه الله)، وأضـاف متابعـاً (ويعلـم مـافي السـموات ومـافي الأرض). ونفهم أن مجرد تفكير الانسان بشيء معـين، فـإن الله يعلمـه بنفـس اللحظـة،

تماماً كما يعلم مافي السموات ومافي الأرض، ونفهم أن صيغة فعل (يعلم) جاءت تشمل الاستمرارية اللحظية المتحركة دائماً.

كما نلاحظ في الآية أنه لايوجد حكم بثواب أو بعقاب، على الأفكار التي تخطر في أذهان الناس، وإنما هي للإخبار بأن الابداء والاخفاء يكون عن الآخرين وليس عن الله الذي ﴿ **يعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم ذات الصدور** ﴾. وينتج لدينا:

قل إن تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه ← يعلمه الله + ويعلم مافي السموات ومافي الأرض

يعلم مافي السموات والأرض ← (ويعلم ماتسرون وماتعلنون ← والله عليم بذات الصدور)

ونلاحظ أن مصطلح صدوركم والصدور جاء في الآيتين للاخبار عن علم الله به، وليس فيه أمر أو نهي أو ثواب أو عقاب. كما نلاحظ أنه سبحانه ربط معرفة خواطر الانسان وأفكاره بمعرفة مافي السموات والأرض، فجعل من كليهما محلاً للعلم، إذ لاعلم بلا محل. مؤكداً أنه عليم بذات الصدور. أي أن التركيبة العضوية للدماغ، التي هي محل صفته الوظيفية كفكر، من صنعه، وأن مايصدر عنها من صنعه أيضاً، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾.

لكننا نلاحظ أن آيتي آل عمران والتغابن تذكران الصدر، بينما آية البقرة تذكر النفس (مافي أنفسكم). كما نلاحظ أن الآيتين تذكران العلم، بينما آية البقرة تذكر الحساب (يحاسبكم).

لقد بدأ سبحانه آية البقرة بالنص على مقام الربوبية، فملكيته لما في السموات ومافي الأرض هي من مقام الربوبية، والحساب أيضاً من مقام الربوبية. أما النفس فقد وردت في التنزيل الحكيم ولها نوعان :

١ً - الوجود العضوي الحيوي للانسان كبشر، وذلك في قوله تعالى ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾. ويخضع للتطور العضوي (جنين - طفولة - شباب - شيخوخة).

٢ً - الأنــا الانسانية بأفكارها ومشاعرها. وهي مانطلق عليه اسم النفـس التكامليـة. و هــذه هــي التــي تشــتمل على ماسنحاســب عليـه، وفيهـا جـدل النفس الانســانية ، و جــاءت فــي قولــه تعالــى ﴿ **ونفـس ومـا سـواها * فألهمهـا فجورهـا وتقواهـا * قــد أفلــح مـن زكاهـا * وقـد خـاب مـن دساها** ﴾ الشمس ٧ - ١٠.

ونلاحظ أن للنفس في التنزيل الحكيم ثلاثة مقامات :

١ - النفس الأمارة بالسوء : وهي التي غلب فيها الفجور على التقوى.

٢ - النفس اللوامة : وهي الـتي في حالـة صـراع بـين الفجـور والتقـوى، فـإن غلبـت التقوى، انتقلت إلى المقام الثالث.

٣ - النفس المطمئنة : وهي التي غلبت فيها التقوى على الفجور.

لذا، فإن ذكر النفس فيه مجال عمل وسلوك، وليس مجال تفكير فقط، ولو اقتصـر على مجال التفكير لذكر الصـدر. وبمـا أن الثـواب والعقـاب يكونـان للسـلوك والعمـل، وليس للتفكير، فقد قال ﴿ **وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه** ﴾ ، أما عن النفـس الـتي تموت وهي محل تضحية فقد قال ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ . فالجهـاد هنـا هـو (الموت).

من هنا فنحن نرى أن آية البقرة ٢٨٤ تتحدث عـن سـلوك وعمـل انسـاني واع مقصود، وليس عن أفكار. ونرى أن الثواب والعقاب يقع على السلوك والعمل، وليـس على الأفكار. فليس هناك ثواب على الأفكار الحسنة وعقاب على الأفكار السيئة، وإلا دخلنا في متاهة كبيرة وأصبح الحساب مهزلة. والآيـة جـاءت لتغطي مجـالاً في السـلوك الانساني لايستطيع شرع ظاهر أن يغطيه في أي مجتمع وضمن أي نظام إسلامي كان أم غير إسلامي. ونورد هنا مثالين عن الإبداء والإخفاء في السـلوك الإنسـاني الواعـي تجاه الغير:

١ً - الإخفاء : يريد زيد أن يبيع قطعة أرض يعلم أن مرسوم استملاك سيصدر بشأنها، لكنه يخفي ذلك. فاشتراها عمرو ونقده الثمن وانتقلت الملكية لاسمه، دون أن يعلم بأمر الاستملاك الذي يخفيه زيد. ثم صدر المرسوم .. هنا لايستطيع عمرو أن يطالب زيداً بشيء. ولايوجد أي نظام قضائي يلزمه بشيء ويرد الحق إلى عمرو، إذا كانت نفس زيد من نوع الأمارة بالسوء، لكن الآية جاءت لتقول إن الله بالمرصاد (فيعذب من يشاء). أما إذا كانت نفس زيد من نوع النفس اللوامة. وراجع نفسه وندم على مافعل، وأعاد إلى عمرو حقه، فإن الله (يغفر لمن يشاء).

٢ً - الإبداء : جاء زيد يسأل عمرواً عن شخص ما، فأبدى له عمرو كل مساوىء هذا الشخص، أو كل محاسنه. مما أدى إلى وقوع ضرر نتيجة هذا الإبداء، ففي هذه الحالة لايوجد قانون في الدنيا، ولانظام قضائي في العالم، يستطيع أن يعوض زيداً عما لحقه من ضرر. لكن الآية جاءت لتؤكد أن الله بالمرصاد (فيعذب من يشاء).

وهكذا نرى الآية جاءت لتغطي كل حالات التعامل بين الناس مخفية كانت أم معلنة، ونرى أن نسخ هذه الآية من قبل الفقهاء (كذا) أدى إلى سقوط الضمير الإسلامي عند المؤمنين. ونرى أن قوله تعالى ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ ليس له أية علاقة بما ذكرناه، ولامبرر إطلاقاً للقول بالنسخ، إذ لكل آية حسنها الخاص بها ومجالها الذي تطبق فيه.

إن آية البقرة ٢٨٤ تستهدف كما قلنا، السلوك والعمل الانساني الواعي المقصود، وتتحدث عن الذنب يليه العذاب أو المغفرة، أما الآية ٢٨٦، فتتحدث عن النسيان أو الخطأ ﴿ **إن نسينا أو أخطأنا** ﴾، أي أن مجال تطبيقها هو الخطأ غير المتعمد أو المقصود، الذي شرحناه بالتفصيل في صفحات سابقة، مما نعود بعده إلى الجزم مرة أخرى بعدم جواز النسخ، في الرسالة الواحدة.

الفصل الخامس

قول في

الاسلام و السياسة

توصلنا في القسم الاول من هذا الكتاب، الى أن الاسلام دين الفطرة، وأن المسلمين هم معظم سكان الارض، وأن الايمان تكليف، وأن المؤمنين هم أتباع محمد(ص).

وانتهينا الى مفهوم عالمي انساني واضح لقوله تعالى ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ..** ﴾ الانعام ١٢٥. والى أن الله سبحانه هدى معظم سكان الارض للاسلام فعلاً، وشرح صدرهم له . وأن الذي يرفض المثل العليا الاسلامية فعلا ، ينطبق عليه قوله تعالى في تتمة الانعام ١٢٥ ﴿ **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ..** ﴾ لانه لا يستطيع أن يواجه الناس و المجتمع الا بهذه الحالة.

وعلى هذا، فنحن بحاجة إلى تصحيح الكثير من المفاهيم، وبخاصة مايتعلق منها بأمور العقيدة، وطريقة التعامل مع الآخرين. علينا نحن المسلمين المؤمنين أتباع محمد (ص) أن نتعامل مع الناس على مستويين :

المستوى الأول، مستوى الاسلام. مستوى الايمان بالله واليوم الآخر والتوحيد والمثل العليا. وبما أن الايمان بالله واليوم الآخر والتوحيد أمر شخصي لاإكراه فيه، يخص كل إنسان على حده، فإننا نتعامل مع الآخرين على أساس المثل العليا الاسلامية، لأن الاسلام ميثاق للانسانية جمعاء، ولأن مثله العليا لاتخضع للتصويت. وهذه الطريقة في التعامل إنسانية عالمية، لاتقتصر على العرب دون العجم، ولاعلى المؤمنين دون غيرهم، وهذا المستوى في التعامل مستوى دنيوي اجتماعي بحت، أي مجال عبادة الله طاعة ومعصية.

أما المستوى الثاني، فهو مستوى الايمان. مستوى الشهادة بأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، مضافاً إليها فيما نرى، الشورى والقتال. وهذا المستوى مستوى تكاليف جاءت إلى المؤمنين

اتباع محمد (ص)، هو أساس التعامل بين المؤمنين بالإضافة إلى الإسلام. وهو مستوى شخصي بحت من جهة إقامة الشعائر، واجتماعي من جهة الشورى والقتال.

لننظر الآن أين يقع دور الدولة من هذين المستويين. وهل ثمة شيء اسمه دولة إسلامية، وشيء اسمه دولة علمانية ؟

دور الدولة على مستوى الاسلام بأسسه وأركانه :

أ - إن تذكرة الدخول إلى الاسلام هي الايمان با لله واليوم الآخر. وبما أن ا لله هو خالق السموات والأرض، واليوم الآخر ظاهرة تخص الكون كله، وبما أنه لاشيء في الوجود إلا ويسبح بحمد ا لله سبحانه، فإن ا لله واليوم الآخر أكبر من أي دولة. فالدولة بكل بنيتها لاتعتبر شيئاً أمام ا لله واليوم الآخر، فكيف نحقق ا لله واليوم الآخر في دولة، وكيف ينعكسان على بنيتها ؟

لما كان مفهوم ا لله أزلياً سرمدياً مجرداً، وصل إليه إبراهيم فسماه فاطر السموات والأرض حنيفاً، فيجب أن نضع في الحسبان الفردي والاجتماعي أن كل شيء متغير وهالك إلا ا لله. وأن قانون التطور والهلاك وتغير الصيرورة، هو القانون الثابت الوحيد في هذا الكون. يجب أن تكون هذه الحنيفية في الوجود حاضرة في أذهاننا حين نتحدث عن بناء دولة ومجتمع واقتصاد وسياسة. وهنا تظهر أهمية أن إبراهيم لم يعرف كيف يضع لله اسماً فسماه (الذي فطر السموات والأرض حنيفاً). علينا أن نعي دائماً ونحن نتكلم عن الدولة، أن الدولة كغيرها من عناصر الكون تتغير من شكل إلى آخر، فالمجتمعات تتغير، والقوانين الوضعية تتغير، والعلوم تتقدم وتتطور، والوعي الجمعي عند الناس يتغير من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر. فلا يتوهم أحد أنه قادر على رسم هيكل لدولة تخلد في وجه هذه المتغيرات كلها. علينا أن نعلم أن مفهوم التوحيد ذاته قد تطور في وعي الناس اليوم إلى الأحسن، وأن مفهوم ا لله المجرد عن التشبيه

والمماثلة في أذهان الانسانية اليوم، أحسن بكثير من السابق، بل إنه أحسن حتى من عصر النبوة. فالتجريد يتقدم مع تقدم الانسانية إلى الأمام في السير على طريق الحنيفية (التغير والتطور).

ب ـ أما وحدانية الله، وهي أن الله لايجسد، فهي أيضاً تسير مع تقدم الانسانية في طريق التجريد ابتعاداً عن التجسيد. أي أن الانسانية تسير مبتعدة عن الوقوع في شرك التجسيد الذي لايغتفر، لكنها معرضة دائماً للوقوع في شرك التثبيت والبعد عن الحنيفية. كأن تضع لنفسها نموذجاً للاعراف أو للتشريع أو للفقه، وتزعم أنه نهائي غير قابل للتطور والحنيفية، فهذا هو الشرك الخفي، الذي يعطي الظواهر صفة الثبات والبقاء، بينما هذه من صفات الله وحده، ومن هنا، نفهم علاقة التوحيد بالدولة والمجتمع، على أنها علاقة بنيوية تدخل في الوعي الجمعي للمجتمع قبل الدولة، أي أن التغير والتطور في الفقه والقانون والتخطيط والعمارة وأدوات الانتاج، وأن تغير وتطور وسائل الانتاج والمعاش والعمل الصالح الذي ينفع الناس ويعمر الأرض، وأن تطور العلاقات الانتاجية الاقتصادية والأعراف والتقاليد، كلها من ظواهر التوحيد للألوهية والربوبية معا، ومن هنا نرى أن التوحيد يكمن في بنية المجتمع ذاتها.

جـ ـ عبادية الناس لله هي الأساس في علاقة الناس بعضهم ببعض، فكلمة الله العليا التي سبقت، هي أنه تعالى خلق الناس جميعاً ليعبدوه، أي ليكونوا عباداً له يطيعونه بملء إرادتهم ويعصونه بملء اختيارهم. وهي أنه تعالى خلقهم أحراراً في الاختيار، ثم يحاسبهم بناء على ذلك، ولهذا فالمجتمع الذي تكون فيه كلمة الله هي العليا، لاترى فيه إكراهاً. وإذا رأيت مجتمعاً المؤمنون بالله فيه مؤمنون بملء إرادتهم، والملحدون المجرمون فيه ملحدون بملء إرادتهم، فاعلم أن كلمة الله في هذا المجتمع هي العليا.

لكنك إذا رأيت مجتمعاً كل أفراده مسلمون، ليس فيه ملحد واحد، أو على العكس، كل أفراده ملحدون ليس فيهم مسلم واحد، فاعلم أنه مجتمع مستبد، يسوق الناس إلى الاسلام كرهاً وإلى إقامة الصلاة غصباً، أو يسوقهم إلى الاجرام ويكرههم على الالحاد ، و اعلم أنه مجتمع كلمة ا لله فيه هي السفلى.

لذا، فإن أساس الأسس في أي وعي جمعي، وفي أي مجتمع يريد بناء دولة، هو الحرية، كلمة ا لله العليا، وأن ا لله خلق الناس عباداً وليس عبيدا، وأن العبادية هي الحرية والعبودية هي الاستعباد. وعندما تتحقق وتتجلى فكرة عبادية الانسان لله بأنها عين الحرية، تظهر أهمية الاسلام كميثاق.

د - بما أن ا لله خلق الناس أحراراً، فقد طلب منهم، بناء على ثقتهم به، أن يتبعوا تعليمات (عبادات) تتناسب وفطرتهم الانسانية (الحنيفية)، هي تعاليم الاسلام. وهي ميثاق يتجلى، بعد الايمان با لله واليوم الآخر، في أركان الاسلام، وفي مثله العليا الانسانية. أي أن أركان الاسلام ميثاق الانسانية جمعاء، الذي وافق الناس طوعا وبدون اكراه على الالتزام ببنوده، فهو ليس بنداً في دستور ولامادة في قانون، ومع ذلك لايمكن لمجتمع إنساني أن يعيش بدونه، وإلا تحول إلى مجتمع بهيمي. هذا الميثاق هو التنازل والقبول الطوعي للحد من الحرية، انطلاقاً من الثقة با لله، وإيمانا بأنه مثل عليا إنسانية فطرية، وبناء عليه يكون الثواب ويكون العقاب. وهذا الميثاق له طرفان: الطرف الأول هو ا لله سبحانه، والطرف الثاني هو الانسان خصوصاً والخلق كله عموماً. ولما كان الميثاق مثلاً عليا، فالانسان الذي يقبل بتطبيقها طائعاً مختاراً ينال ثوابه الأخروي، إضافة إلى ثوابه الدنيوي من قبول مجتمعه به وحبه له، أما الانسان الذي يرفض بملء إرادته تطبيقها، فينال عقابه الأخروي، إضافة إلى عقابه الدنيوي بنبذ الناس له لخروجه من الدائرة

لانسانية. من هنا نرى كيف تلتحم الدنيا والآخرة في ميثاق الاسلام التحاماً لاانفصام فيه.

لقد قلنا إن الميثاق عموماً، وميثاق الاسلام خصوصاً، ليس بنداً في دستور، أو مادة في قانون، وقلنا إن أركان الاسلام وعلى رأسها الايمان با لله واليوم الآخر أكبر من الدولة، لماذا ؟ لأن الدولة عقد بين أفراد في مجموعة إنسانية، له بنود وشروط، تسري ضمن رقعة جغرافية هي الوطن، والعقد شريعة المتعاقدين، تأتي القوانين بموادها الرادعة وإجراءاتها الجزائية لتعاقب المخالفين لبنود هذا العقد، أما ميثاق الاسلام فهو ميثاق إنساني لايتغير من مكان إلى آخر، أي لاتحده رقعة جغرافية، وليس خاصاً بجماعة إنسانية دون غيرها، فهو أكبر وأوسع وأشمل من كل الدساتير والقوانين، لابل إن على الدساتير والقوانين أن تصاغ ضمن دائرته ولاتخالفه. بكلمة موجزة: الميثاق الاسلامي مثل عليا عامة إنسانية، أما الدولة فعقد اجتماعي لمجموعة معينة من الناس ضمن رقعة معينة من الأرض.

قد يسأل سائل : كيف نجعل الملحدين يقبلون بميثاق الاسلام؟ أقول : أما الايمان با لله واليوم الآخر، فهذا أمر بينهم وبين ا لله سبحانه، لست معنياً به طالما أنهم لايكرهون أحداً على الالحاد، ولايحاربون ا لله ورسله، أما المثل العليا الاسلامية فسيقبلونها بفطرتهم الانسانية لأنهم من الناس. نحن لانستطيع أن نجعل من بر الوالدين مثلا بنداً في الدستور، ولا نستطيع أن نصوغ مواد قانونية تضبط حب الوطن وإكرام الجار، إلا أن الملحد لايستطيع في الوقت نفسه أن يقتل أو أن يكذب ، ثم يقول إنني فعلت هذا لأنني ملحد، فالقتل والكذب محرمان على المسلمين وأنا لست مسلما، ولابأس بهما عندي.

دعونا نأخذ الموضوع على مستوى الدولة ونسأل: هل يستطيع أي رئيس وزراء في دولة ملحدة أو غير دينية، أن يطلب من السلطة التشريعية إصدار تشريعات تسمح

بالغش في الكيل والميزان .. أو بالكذب والزور .. أو بحنث الأيمان والعهود والعقود .. أو تسمح بضرب الوالدين ..؟ أقول : هو قطعاً لايستطيع، وإلا اتهم بالجنون وأرغم على الاستقالة، رغم أنه لاتوجد أي مادة في كل دساتير الدنيا وقوانينها مايمنع ذلك علناً، لماذا؟ لأن هذه الأمور من المثل العليا الانسانية، التي يدافع عنها المجتمع نفسه، وليس الدستور أو القانون. ومن يخالفها يتعرض إلى نبذ المجتمع وعداوته، لأنها أكبر من الدستور وأكبر من القانون.

لذا، فإن من الخطأ الفادح إخضاع الاسلام ومثل الاسلام العليا لعمليات التسييس، لأن للسياسة معنيين، المعنى الأول: هو مفهوم كلمة **Politics** وتعني "فن تدبير المصالح المتنازعة **Art of Managing Conflict of interests**" فإن تسييسنا الاسلام بالمعنى الأول فيه ضياع للاسلام والسياسة معاً. ففي المعنى الأول تصوروا معي حزباً يزعم أنه إسلامي، فماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن أعضاء هذا الحزب يؤمنون بالله واليوم الآخر وبالتوحيد والمثل العليا، وكأن أعضاء الأحزاب الأخرى لايؤمنون بهذا كله. إنه يعني تحديد الاسلام بمجموعة بعينها من الناس، وسحبه من غيرها، وهذه هي المهزلة الخطيرة. فإذا نحن نظرنا في أركان الاسلام واستعرضنا مثله العليا، كما وردت في سورة الأنعام وغيرها، رأينا أنها جميعاً غير قابلة للتسييس، بل هي للتأطير الاجتماعي الانساني كله، لايحدها وطن ولالسان ولاعرق، وهذا مالم يستطع العرب المسلمون المؤمنون استيعابه حتى اليوم. أي لم يستطيعوا التفريق بين المعنى الأول للسياسة المذكور سابقاً والمعنى الثاني للسياسة والذي هو **Policy** وتعني النهج وهو أعم من الأول بكثير، فسياسة الدولة لها منهج إسلامي التي يقال عنها أسلمة السياسة، أي أن الذي يعمل بالسياسة، يؤمن بالمثل العليا سواء أكان من هذا الطرف أو ذاك. أي أن ذوي المصالح المتضاربة الذين يمارسون السياسة بالمفهوم الأول تحدهم سياسة عامة **Policy** التي هي المثل العليا الاسلامية أو ميثاق الاسلام، والتي تعتبر حقوق الانسان جزءاً منها، فمثلاً، أي تضارب

في المصالح بين فئتين تمارسان السياسة فإن كلاهما يؤمن بأن التجسس على الناس يخالف المثل العليا. وهنا نلاحظ الفرق الدقيق بين المفهوم الأول للسياسة والمفهوم الثاني الذي هو نهج، أي أن الاسلام هو نهج للمجتمع كله ولأي إنسان سواء أكان في السلطة أو المعارضة أو لإنسان أصلاً غير مسيس.

إن كل ماحدث بعد وفاة الرسول الأعظم، كان تكتيكات سياسية (Politics) قام بها مسلمون مؤمنون (هم الصحابة) للوصول إلى الحكم، وإدارة دولة تضم مسلمين مؤمنين ونصارى ويهود وآخرين، وقد برع في هذا الفن عمر بن الخطاب و أبو بكر (ر ض) حين حدث فراغ سياسي خطير بوفاة النبي (ص) فمارس عمر السياسة بانتخاب أبي بكر و تجنيب المؤمنين أزمة سياسية خطيرة. علماً أنه بوفاة النبي (ص) لم يحدث أي فراغ ديني (إسلامي)، لأن الاسلام كان مكتملاً عند وفاته، وما زال الى الآن مكتملا و شائعا بين معظم سكان الارض. وهذا كله لاعلاقة له بالاسلام كمنهج إنساني. لكننا وقعنا في خطأ مرعب حين اعتبرنا كل خطوة قام بها الصحابة إسلاماً. بينما هي خطوات إجرائية سياسية لحل تضارب المصالح (المهاجرين ، الانصار ، الأوس ، الخزرج) ، والتي أدت إلى الحروب الأهلية ذات المنشأ السياسي البحت الذي يقوم على تنازع المصالح، أي أننا عندما سيسنا الاسلام (Politics) ضيعنا الاسلام المنهج (Policy) وضيعنا السياسة معاً (Politics) . وعندما تفاقمت الأزمة السياسية بالمعنى الأول، ابتداء من عثمان بن عفان وانتهاء بالجمل و صفين، مارس معاوية السياسة بالمفهوم الأول (تنازع المصالح) ورد عليه علي (ر ض) بممارسة السياسة بمفهومها الثاني (النهج) فانتصر الأول. لأن السياسة بمفهوم النهج، لايمكن أن تكون بديلاً للسياسة بمفهوم تنازع المصالح . و هذه القاعدة ما زالت الى الآن صحيحة . فالأحزاب التي تطلق على نفسها اسم "أحزاب اسلامية" تستعمل السياسة بالمعنى الثاني، عوضاً عن السياسة بالمعنى الأول، و النتيجة هي الفشل ، وآلاف الضحايا والقتلى.

بينما نرى النبي (ص) مارس السياسة بالمعنى الأول بكل أبعادها، وأهم دليل على ذلك هو أن مجموع القتلى في غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد لم يتجاوز ٢٠٠ قتيل من الطرفين، بينما يصل عدد القتلى الآن إلى أضعاف هذا العدد في يوم واحد بأفغانستان والبلاد الأخرى.

وأرجو من القارئ ألايفهم أنني مع النتائج التي توصل اليها معاوية، من ترسيخ الاستبداد وجعل الحكم وراثياً، فكل ما أقوله هو أنه مارس السياسة بالمفهوم الأول بكل براعة. والسياسي البارع قد يكون مستبداً، وقد يكون ديموقراطياً، لأن الكلام هنا عن السياسة كفن، بغض النظر عن الحقل الذي تمارس فيه، وعن الوظيفة التي تؤديها.

تعالوا نستعرض أركان الاسلام وأركان الايمان، لنبحث عن الركن الاسلامي أو الايماني الذي قامت عليه الخلافات والحروب ابتداء من السقيفة والجمل وصفين :

- هل كان الخلاف على الايمان با لله واليوم الآخر . . . . . ؟ .. كلا.
- هل كان الخلاف على التوحيد . . . . ؟ .. كلا.
- هل كان الخلاف على بر الوالدين . . . . ؟ .. كلا.
- هل كان الخلاف على قتل الولد . . . . ؟ .. كلا.
- هل كان الخلاف على الفواحش . . . . ؟ .. كلا.
- هل كان الخلاف على قتل النفس، أم على الارث ومحارم النكاح، أم على شهادة الزور وأكل مال اليتيم، أم على الحنث باليمين . . . .؟ .. كلا.
- فهل كان الخلاف على شهادة أن محمدا رسول ا لله . . . . ؟ .. كلا.
- وهل كان على إقام الصلاة وإخراج الزكاة والصوم والحج ؟ .. كلا.

لقد كانت الشورى والقتال كمركبات اساسية لممارسة السياسة هما لب المشكلة، ومع ذلك لم يصلانا كركن من أركان الايمان أصلاً، أي أن الشورى كعقيدة وكممارسة بشكلها التاريخي هي ركن من أركان الايمان، لأنها ليست فطرة، بل هي

تكليف. وكذلك الجهاد في سبيل الحرية، هو تكليف وليس فطرة، جاء إلى أتباع محمد (ص). فوضع على عاتقهم نشر حرية الاختيار، والقتال دفاعاً عن حرية أهل الأرض في أن يكونوا مسلمين أو ملحدين، وبأن يختاروا مايشاؤون دون إكراه. تماماً كما تم تكليف أتباع محمد (ص) بالشورى، إلا أنهم الآن أبعد الناس عنها، وعن الحرية، منذ قرون طويلة.

المشكلة فينا الآن، ونحن نعتبر كل الناس بعد وفاة الرسول الأعظم، هم من الصحابة، نحبهم لأنهم جيل الصديقين، لكننا رفعناهم فوق مستوى البشر حتى في تصرفاتهم السياسية، واعتبرنا مافعلوه تسييساً للاسلام، بينما الاسلام غير قابل للتسييس أصلا، فإذا تم تسييسه مات بموت الدولة التي سيسته لذا فان من الشائع الآن، أن الاسلام طبق في عهد الرسول الأعظم وبعد وفاته، ثم طبق في عهد الخلفاء الراشدين، ثم توقف. وهذه الخطيئة جاءت من تسييس الاسلام، ومن ربط السياسة بالاسلام بالمعنى الاول. أما حين يكون ميثاقاً إنسانياً لاتحده الجغرافيا ولا التاريخ، بقي هو وماتت الدول ديموقراطية كانت أم استبدادية.

إذا وعينا هذه النقطة، نقطة أن الاسلام بمثله العليا غير قابل للتسييس، بل هو مبادىء إنسانية اجتماعية راسخة، لاتحدها بنية سياسية محددة صحابية كانت أم غير صحابية، وإذا وعينا مفهوم استمرارية الاسلام بمثله العليا في أحلك الظروف وفي أحسنها، أدركنا أن الدولة طبقاً للتنزيل الحكيم لايمكن أن تكون إلا مدنية بحتة تأخذ شرعيتها من ميثاق إنساني اجتماعي عام، وعقد بين السلطة و الشعب الذي ينتخب السلطة بنفسه. وهل يمكن لأحد في الدنيا أن يقول إن الدولة المدنية دولة بلا مثل عليا، وإن المجتمع الذي يقبل الدولة المدنية القائمة على التعددية الحزبية وينادي بها ويدعو إليها هو مجتمع بلا مثل عليا. إلا اذا حصرنا المثل العليا في الجنس و عند المرأة حصراً، وهذا فعلا ما يحصل في مجتمعنا الذكوري.

هذا عن تسييس الاسلام، فماذا عن أسلمة السياسة ؟ نجيب : نفس النتيجة. فالقول بأسلمة السياسة يعني بأن الاسلام مثل عليا إنسانية. فهل يمكن لأي حزب سياسي أن يتخلى عنها لأنه يعمل بالسياسة؟ أي نسمح لأي حزب سياسي بأن يكذب على الناس تحت شعار أن الصدق من المثل العليا الاسلامية، وأن السياسة ليس لها علاقة بالاسلام كمثل عليا؟ وهل نسمح لحزب تحت شعار العلمانية بأن يمارس التجسس على رسائل الناس وهواتفهم، زاعماً أن مبدأ (ولاتجسسوا) هو مبدأ ديني فردي لاعلاقة له بالدولة؟ وهل نسمح لحزب بأن يقوم بتزوير الانتخابات، تحت شعار أن النزاهة من الاسلام، وهو حزب سياسي، وأن السياسة لاعلاقة لها بالنزاهة؟ أي هل نسمح تحت شعار العلمانية، بفصل مثل الاسلام عن الدولة، بأن يسود الغش والقتل والرشوة والسرقة والمحسوبية وشهادة الزور وأكل حقوق الناس، زاعمين أن هذه مثل إسلامية إنسانية عليا، لاعلاقة لنا بها لأننا علمانيين، فنحن غير ملتزمين بها وبالدفاع عنها؟ أما شعائر الايمان (صلاة ، صوم ، حج) فأمر مفروغ منه أنها مفصولة عن الدولة، التي لا علاقة لها بشعائر الايمان اطلاقاً، لا عند المؤمنين ولا عند النصارى ولا عند الذين هادوا ولا عند غيرهم كائناً من كان.

إن المثل العليا أمر لابد منه ولامناص، لكل مجتمع يريد أن يتنظم، ولكل حزب يريد أن يتشكل ولكل فرد يريد أن يعمل بالسياسة. والقانون الأخلاقي مثل عليا إنسانية، تدخل تحت ميثاق المجتمع، أي مجتمع، وهي غير قابلة للاختراق تحت أي شعار إسلامي أم إيماني أم قومي أم غير ذلك مما شئت. وإن وضع هذا القانون تحت بند التراث، كقيمة تراثية، أوصل اصحابه إلى كارثة، وأوصل المجتمع إلى كارثة أكبر، كانت محصلتها الاستبداد السياسي وبالذات حين تم استبدال أركان الاسلام بأركان الايمان.

لقد تم طرح العلم كشعار (ايديولوجيا)، لكن الأخلاق لاتتعارض مع العلم، فالعلم موضوعي ايديولوجيته التكنولوجيا وليس السياسة، والأخلاق ذاتية ايديولوجيتها

الروابط والقيم الانسانية الاجتماعية، التي تتجلى في المؤسسات العلمية والسياسية والتشريعية. أي أن الأخلاق كمثل عليا، موجودة راسخة في الوعي الجمعي، لكنها تتجلى بحسب تعقيدات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبحسب الموقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي يشغله الانسان. فإمام المسجد الذي عمله أن يؤم الناس في الصلاة، لايتعرض لأكل مال اليتيم، ولا للغش في المواصفات، ولا لأن يبخس الناس أشياءهم، رغم أنها كلها من مبادئه ومعتقداته التي يدافع عنها. أما الصناعي، فإن أهم قيم عليا يواجهها في عمله الالتزام بالمواصفات والقسط في الكيل والميزان، والوفاء بالعقود، بحكم تعرضه لها يومياً. وأما التاجر، فأهم القيم عنده هي قيمة **﴿ولاتبخسوا الناس أشياءهم﴾**، وهي القيمة التي يجب إسقاطها على كل إنسان مهما كان انتاجه، من العامل اليدوي إلى الفنان والعالم. وبالنسبة لمدير الأيتام، فأهم مايتعامل معه من القيم هو قيمة **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** أما القاضي فأهم القيم عنده هي **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**. وأهم القيم عند أمناء المستودعات والصناديق هي **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾**. أما بالنسبة لعامة الناس وخاصتهم في حياتهم اليومية مع الآخرين فهي **﴿ولاتلمزوا أنفسكم﴾** أي لاتبخسوا أنفسكم حقها، و **﴿لاتنابذوا بالألقاب﴾** أي لاتحتقروا الآخرين طبقا للموقع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي.

أما بالنسبة للسياسة، وللذين يعملون في السياسة والصحافة، فالقيم العليا ضرورية لهم جميعها بدون انقاص، لأنهم بحكم عملهم يتعرضون لمخالفتها أكثر مما يتعرض غيرهم. فالذي يعمل في السياسة ويشغل منصباً من مناصب الحكم، عليه أن يعلم أن الأعين مسلطة عليه، وأنه نموذج يحتذى، وأن الأمانة والعدالة والنزاهة والصدق واحترام الآخرين، كلها مطلوبة منه شخصياً. ومطلوب منه الدفاع عنها إذا اخترقت. فالسياسي وإن لم يكن مديراً للأيتام عليه الدفاع عن مال اليتيم، وإن لم يكن قاضياً عليه

الدفاع عن العدالة والعدل، وإن لم يكن صناعياً عليه الدفاع عن المواصفات. وهذا يعني أن القيم العليا تجد منعكسها في البنية العليا من المجتمع وهي الدولة. فكلما ارتفع المنصب في الدولة زادت المسؤولية الأخلاقية على من يشغل هذا المنصب.

لهذا فإن تبني كل الأحزاب السياسية، يمينية ويسارية قومية وغير قومية، للمثل العليا في المجتمع أمر مفروغ منه وغير قابل للنقاش وللتصويت. وإذا تم غير ذلك فالدمار للمجتمع والطغيان والاستبداد. والمثل العليا تتناسب مع درجات التطور في المجتمع، وتختلف تجلياتها وتوزعاتها بحسب تعقيدات المجتمع، ومدى التزام المجتمع والدولة بها. فالقيمة الأخلاقية في الدولة الاستبدادية قيمة ثانوية لايتم الدفاع عنها، ولهذا يؤدي الطغيان بالضرورة إلى الفساد الأخلاقي في المجتمع، الذي يؤدي بدوره إلى غياب الضمير، و هذا يؤدي آلياً إلى ظلم الناس وتخلف الانتاج وتخلف الدورة الاقتصادية.

من هنا لايجوز أبداً لحزب من الأحزاب أن يطلق على نفسه اسم "الحزب الاسلامي" كما لو أن المثل العليا ملك له، وكما لو أن باقي الناس والأحزاب بلا مثل عليا. ومن هنا نفهم تماماً مامعنى أسلمة السياسة. أي أن على الذي يعمل بالسياسة، عليه كائناً من كان أن يتقيد أكثر من غيره بالدفاع عن المثل العليا الاسلامية التي هي مثل إنسانية بحتة. أما أن نطرح شعاراً لحزب إسلامي (الاسلام هو الحل) نضع تحته حجاب المرأة، وفصل النساء عن الرجال، وإلغاء الرياضة والموسيقى في المدارس، ونطبق فقه الشافعي وفتح الباري وفتاوى ابن تيمية، فهذه مهزلة لاتؤدي إلا إلى طريق مسدود. فاذا سأل سائل: ما هي الاحزاب السياسية، وما هي مهمتها؟ اقول: الأحزاب السياسية هي بالضرورة أحزاب وطنية (تعمل ضمن رقعة جغرافية محددة هي الوطن) قومية (قوم_لسان) اقتصادية اجتماعية يشترك فيها كل أبناء الوطن ضمن ميثاق عمل سياسي ذو نزعة إنسانية (مثل عليا) ولا علاقة لشعائر الايمان ببرامج ونشاطات الأحزاب

السياسية. فهي فوق التعصب الديني والمذهبي والطائفي، فالتعصب الواعي هو للوطن والقومية والشعب.

نعود الآن لننظر كيف انطلت علينا نحن العرب المسلمين المؤمنين، خدعة استبدال أركان الاسلام بأركان الايمان، عدا الركن الأول منها وهو شهادة أن لاإله إلا الله. ونستعرض هذه الأركان كما طرحت علينا:

١ً - شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٢ً - إقام الصلاة.

٣ً - إيتاء الزكاة.

٤ً - صوم رمضان.

٥ً - حج البيت من استطاع إليه سبيلا.

فنلاحظ أنها لاتحتوي على أخلاق ولاعلى مثل عليا إطلاقاً، وتم طمس الاحسان والعمل الصالح منها نهائياً، فأصبحت لها الخواص التالية :

١ - الشهادتان لاعلاقة لهما بنظام الحكم، ولاتتعارضان مع أي حكم مهما كان طاغياً استبدادياً، لأن الحاكم نفسه ينطق بهما. وهذه الخدعة انطلت علينا عندما احتل التتر البلاد العربية ونطقوا بالشهادتين فقبلناهم على أنهم مسلمين.

٢ - إقامة الصلاة لاتتعارض أيضاً مع شكل الحكم ونظامه، فليصل الناس ماشاؤوا والمستبد مستعد لأن يؤمهم ويصلي معهم.

٣ - إيتاء الزكاة أمر لايهم الحاكم المستبد، فليزك كل الناس وليساعد بعضهم بعضاً، لابل إن في الزكاة متنفساً للناس من وطأة استبداده، فإذا اهتم بها، فهو يهتم بمعرفة دافعي الزكاة أكثر من اهتمامه بآخذيها.

٤ ـ صوم رمضان، أيضا لايتعارض مع أي حكم استبدادي، فليصم الناس رمضان وشعبان ورجب، بل إننا نجد الحاكم المستبد يشجع الناس على إتباع سيرة أيوب النبي في الصيام.

٥ ـ حج البيت من استطاع إليه سبيلا، كذلك لايتعارض مع أي حاكم مستبد، فليحج الناس ماشاؤوا، متى شاؤوا، لابل إن المستبد ينتهز الفرصة ليؤمر عليهم أميراً من طرفه يسير الحجيج تحت لوائه، وأعوانه ينتهزون الفرصة ليتقاضوا الأموال من البسطاء، تحت شعار تعليمهم وإرشادهم إلى المناسك باعتبارهم جهلة.

انطلاقاً من هذه الأركان الخمسة حكم من حكم من الطغاة المستبدين، ونتيجة لذلك قبل الناس حكم هؤلاء الطغاة، من تتار ومماليك وأتراك، ومن كل من هب ودب، طالما أنه مسلم (كذا)، وطالما أنه ينطق بالشهادتين ولايمنع أحداً من أداء الشعائر التي جعلوها أركانا للاسلام.

نشأ الطغيان وترعرع خلال قرون طويلة من عمر الأمة العربية الاسلامية المؤمنة، آخذاً شرعية استبداده من طرفين: الحديث النبوي السياسي الذي كان ضرورة لاغنى عنها للمستبد لاكتساب الشرعية وطاعة الناس، وأركان الاسلام الخمسة، التي أسندوها إلى الرسول الأعظم فيما أسندوه من أحاديث. بقوة هذين الطرفين أطبق الطغيان قبضته على رقابنا، ومازال، وسيبقى حتى نتخلص من هذه الأطروحات، ونفهم أن أركان الاسلام تؤخذ من كتاب الاسلام الإلهي، التنزيل الحكيم، وليس من كتب وأحاديث أحد.

نعود الآن إلى أسس الاسلام السياسي الانسانية العالمية التي لاتحدها حدود جغرافية، والتي يجب أن يتمثلها كل حزب سياسي، عربياً أم غير عربي:

١ - كل الناس عباد الله، خلقهم أحراراً يطيعونه بملء اختيارهم، ويعصونه بملء إرادتهم، والثواب والعقاب متلازمان مع الحرية (انظر بحث العباد والعبيد). والحرية قدس الأقداس بالنسبة لكل الناس، يتنازلون عن قسم منها بملء إرادتهم (الميثاق الاجتماعي)، مقابل أن يعيشوا ضمن مجموعة واعية عاقلة، وكلما زاد تحضر الانسان ورقيه، زاد التزامه الطوعي بالحد من حريته من أجل الآخرين.

٢ - إن بنود الحياة الدنيا هي حقل عبادة الناس لله طاعة ومعصية. وكلما زادت وتنوعت هذه البنود عبد الله أكثر. لذا فإن تطور وتنوع بنود الحياة والتفاخر والتكاثر هو من أساسيات هذه الحياة. وطموح الانسان، فرداً وجماعة، نحو حياة أفضل هو طموح مشروع، على جميع الأحزاب في سياساتها أن تعمل من أجل تحقيقه، وهذا هو الجانب الموضوعي، أي أن التقدم العلمي والصناعي والتكنولوجي يدخل تحت هذا البند.

٣ - بما أن الحياة الدنيا، بما فيها من لهو وزينة وتفاخر وتكاثر، هي البنود المباشرة التي يعيشها الانسان ويمارسها في حياته اليومية، فإن المجتمع بحاجة إلى قيم عليا (قانون أخلاقي)، لينظم العلاقات الاجتماعية على أساس إنساني، لاعلى أساس همجي بهيمي. هذه المثل العليا (القانون الأخلاقي) هي الجانب الذاتي الذي يجب على كل الأحزاب السياسية أن تلتزم به، دون أن يتغلب أي من الجانبين (الموضوعي و الذاتي) على الآخر، و إلا كانت النتيجة كارثة.

فجانب الأخلاق والمثل العليا بدون جانب مادي موضوعي، يعني أن المجتمع مجتمع ملائكة، يعيشون على المثل بلا طعام ولاشراب ولابيوت ولاسيارات، وهذا وهم.

وكذلك جانب المادة الموضوعي بدون أخلاق وقيم عليا، يعني أن المجتمع مجتمع وحشي بهيمي، الناس فيه ذئاب يأكل بعضها بعضاً.

من هنا نرى أن الدولة والمجتمع لاتقوم بدون هذين الجانبين، فهما مع الحرية العمود الفقري الأساسي لأي عمل سياسي ولأي برنامج سياسي، في جميع الأحزاب والدول. وهذه الأمور الثلاثة لاعلاقة لها بقومية ولابعرق ولابرقعة جغرافية، أي أنها إنسانية عامة. ونرى أن الاسلام غير قابل للتسييس، بل سياسة الدولة والمجتمع قابلة لأن تكون إسلامية، ونرى أن الخطوط العامة للسياسة بكل فروعها هي مايلي:

١ - قانون التطور.

٢ - البينات العلمية (مراكز البحث العلمي والجامعات ونتائج العلوم الاحصائية في العلوم الانسانية).

٣ - الأساس في الحياة الانسانية الاباحة. فكل منع يحتاج إلى بينة مادية علمية، ويحتاج إلى موافقة الناس.

٤ - الأساس في العلاقات بين الدول السلم. والحرب هي العرَض والاستثناء. وهذا ماأشار إليه قوله تعالى محذرا المسلمين المؤمنين: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل ا لله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند ا لله مغانم كثيرة ..** ﴾ النساء ٩٤. فا لله تعالى ينبه أتباع محمد (ص) ويأمرهم ألا يقاتلوا أتباع الملل الأخرى المسالمين، بحجة أنهم ليسوا مؤمنين. ونفهم من هذا أن تقسيم الدنيا إلى دار إسلام ودار كفر، إنما هو تقسيم رسخه الفقهاء أنفسهم، الذين أعطوا المستبد المبرر الشرعي لاستبداده بصياغتهم لأركان الاسلام الخمسة. فأتباع محمد (ص) المطبقون للتنزيل الحكيم لايقاتلون إلا من ظاهر عليهم وحاربهم وبدأهم بالقتال حتى ولو كان مؤمناً ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..** ﴾ ماعدا ذلك فلا. إضافة

إلى أن هذا الفهم لآيات التنزيل يلغي مفهوم الجزية كما رسخه الفقهاء، فالجزية لاتؤخذ إلا ممن ظاهر على أتباع محمد (ص) وحاربهم، ثم انهزم عند قتالهم، عند ذلك تؤخذ منه الجزية ، التي هي في وقتنا هذا عقوبات اقتصادية و تعويضات مالية تفرض على الدولة المنهزمة في الحرب.

٥ - القتال في سبيل الوطن أمر مشروع أباحه التنزيل الحكيم تحت مصطلح "الاخراج من الديار" بمعناه الواسع والضيق. فيحق للانسان أن يقاتل دفاعاً عن أرضه ونفسه وبيته ومزرعته ووطنه. وهذا ليس قتالاً في سبيل الله لذلك فهو ليس وقفا على المؤمنين أتباع محمد (ص) وانما هو قتال وطني يقوم به أصحاب الارض والديار، بغض النظر أكانوا من المؤمنين أم من غير المؤمنين، ولكنه قتال مشروع أقره التنزيل الحكيم ضمن شروط، أولها عدم البدء بالقتال، وعدم المبالغة في القصاص، وعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ الا قصاصاً، ويفضل العفو وعدم قتل الأطفال و الشيوخ و النساء . فإذا تم الالتزام بهذه الشروط سمي القتال عندها "حروباً وطنية"، وأصبحت حروباً مشروعة.

أما الجهاد في سبيل الله، الذي جاء إلى أتباع محمد (ص) تكليفاً ولم يجيء إلى غيرهم ولا يحق لهم إلزام غيرهم به الا طوعاً، فهو القتال في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، ويعني القتال ضد الاستبداد ومن احل الحرية لكل الناس قاطبة ورفع الاكراه عنهم أينما كانوا، بغض النظر عن مواقفهم العقائدية أو السياسية، وهذا ما سيأتي شرحه لاحقاً.

٦ - الأسرة والتبني واحترام الأسرة، إذ لاتوجد حياة احتماعية بدون أسرة، والأسرة هي أساس المجتمع، وهذا من الفطرة.

٧ - الإرث، إذ لايوجد مجتمع في العالم ألغى الارث كمفهوم. والخلاف على النسب والحصص خلاف ضمن حدود ا لله، ليس له علاقة بحلال وحرام، ولابكفر وإيمان.

٨ - العقوبات، إذ كل دولة في العالم عندها قانون عقوبات. والعقوبات في الاسلام هي حدود ا لله، التي يمكن النزول عنها، والوقوف عندها، إنما لايمكن تجاوزها. وهذا منسجم مع فطرة الناس في كل أنحاء الأرض.

لنبحث الآن عن النظام السياسي الذي يكفل الدفاع عن المثل العليا الاسلامية. ونبدأ بالمثال التالي :

عندما يعمل الانسان ويقبض أجره، فهو يفعل ذلك بفطرته دونما حاجة إلى تربية تعلمه كيف يقبض المال. لكن دفع قسم من هذا المال للغير وخاصة دون مقابل (فعل الخير/ الصدقة) يحتاج إلى تربية واقتناع بإيثار الآخرين. ولهذا سمي هذا النوع من الدفع (صدقات). وهو مصطلح راق جداً لأنه جاء من فعل صدق، يعني أن الانسان الذي يدفع الصدقات، إنما يقدم تصديقاً عملياً لإيمانه بإيثار الآخرين وعطفه عليهم، ولتغلبه على الأنا الفطرية في داخله . و هذا مانراه واضحاً في دول العالم التي تفرض الضرائب على الأجور. فالانسان يقبض أجره بالفطرة، ويدفع الضريبة بالتكليف ، ومن هنا جاءت تسمية "التكليف الضريبي". وهنا ينقسم المكلفون إلى قسمين:

قسم تتغلب الأنا لديه على الوعي الجمعي الراقي، فيحاول أن يقبض أكثر مايمكن ويدفع أقل مايستطيع، بل إن بعضهم يبحث عن المخارج القانونية ويتهرب ليدفع أقل مايمكن، ويسمي ذلك "فهلوة وشطارة". وقسم ارتقى الوعي الجمعي لديه، فاعتبر أن مايدفعه للدولة حق لها مقابل ماتقدمه له من خدمات، وليس مجرد أتاوة تأخذها الدولة لتصرفها على نفسها.

من هذا المنطلق نفهم لماذا كانت الشورى وكان الجهاد من أركان الايمان، أي لماذا جاءت الشورى وجاء الجهاد تكليفا، تماماً كالتكليف الضريبي، ونفهم لماذا اختلف موقف الناس منهما كتكليف. فالانسان بفطرة الأنا الفردية لديه يميل إلى الغلبة على الآخرين. ولهذا جاءت الشورى لتعديل هذا الميل الفطري لدى أصحاب السلطة الذين قد يدفعهم سحر السلطة إلى تغلب الأنا لديهم على الغير. ومن هذا المنطلق كانت الشورى ركناً من أركان الايمان، تحتاج إلى تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتحتاج إلى أن يتنازل الانسان أحياناً عن سلطته للآخرين طوعاً، وهذا هو عين التكليف. فالذي يصوم رمضان طوعاً، تغلب على فطرة الأنا لديه في تناول الطعام والشراب، والذي يؤدي الزكاة تغلب على فطرة حب المال واكتنازه. كذلك هي الشورى، تكليف يجب أن يتربى الانسان عليه ويتدرب، في البيت والمدرسة والجامعة والشارع، بحيث يصبح عنده جزءاً من سلوكه في ممارسة الشعائر كالصلاة والصوم والحج. ولكن لما كانت الشورى تكليفاً يحتاج إلى تربية ووعي فردي وجمعي، فقد وردت في أركان الايمان كعقيدة، وتركت ممارستها للتطور التاريخي ضمن إطار ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾. أي أن الشورى تمارس حسب الاستطاعة والإمكان، والتعبير عنها بشكل مباشر يأتي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا لايتم إلا وفق استطاعة الفرد، وحسب التطور التاريخي بالنسبة للمجتمع ووعيه. ولقد تم إهمال الشورى كركن من أركان الإيمان، رغم أنها تحتاج إلى جهد وتربية أكثر مما تحتاج الصلاة والصوم والزكاة والحج بكثير.

هنا نستطيع أن نفهم كيف أن الشورى هي الوسيلة الوحيدة لحماية المثل العليا الاسلامية، وعلى رأسها الحرية. ونضع أيدينا بكل دقة على مفهوم الشورى بمصطلحها المعاصر وهو الديموقراطية. ونخلص إلى أن النظام السياسي الوحيد الذي يمكن حماية المثل العليا الاسلامية من خلاله، هو النظام الديموقراطي القائم على التعددية الحزبية، ومبدأ

تداول السلطة، وحرية الرأي والرأي الآخر، وحرية الصحافة والقلم، والتعبير عن الرأي بكل الوسائل السلمية. في مثل هذا النظام الديموقراطي تكون المثل العليا الاسلامية مصونة. إذ حين يقوم مسؤول في السلطة كائناً من كان، باختراق هذه القيم الأخلاقية، تهب الصحافة والكلمة الحرة لتنبه مباشرة على هذا الاختراق وتفضح مرتكبه، وحين يعلم الجميع في مواقعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بأن هناك من يراقبهم في الصحافة والنقابات والجمعيات، فسيحسبون ألف حساب لكل اختراق قبل ارتكابه.

نحن كمسلمين مؤمنين نؤمن بالمثل العليا الاسلامية، وبأن حقوق الانسان جزء منها. لكن علينا أن نمارسها كتكاليف إسلامية وكتكليف إيماني وأن ندافع عنها بتطبيق الشورى وبممارستها حسب الاستطاعة، وحسب التطور التاريخي. والوصول إلى الشورى لايأتي دفعة واحدة بين ليلة وضحاها، بل لابد من ممارستها على كل المستويات حتى نصل إلى المستوى السياسي. أي حتى نصل إلى الديموقراطية والشورى، علينا أن نتحرر من الاستبداد العقائدي (الرزق المقسوم والعمر المحتوم) والاستبداد الفكري (تفويض الآخر بالتفكير عنا) والاستبداد المعرفي (نبذتقديس الأشخاص والأخذ بأدوات معرفية معاصرة)، بعدها نصل إلى الديموقراطية السياسية.

الاستبداد السياسي، وأنظمة الحكم الديكتاتورية، والطغيان والظلم، محصلة طبيعية لهذه الاستبدادات المذكورة، والتي تم ترسيخها عبر مئات السنين، بدءاً من استبدال أركان الاسلام بأركان الايمان، وانتهاء باستبعاد الشورى والقتال من أجلها من أركان الايمان.

الديموقراطية ضرورة لاغنى عنها لحماية مثل الاسلام العليا، والمثل العليا ضرورة لاغنى عنها لكل الناس، سواء كانوا مسلمين مؤمنين أم مسلمين فقط أم غير مسلمين وغير مؤمنين. ورغم أن الشورى الديموقراطية جاءت صمام أمان للمسلمين المؤمنين تكليفا، إلا أنهم أهملوها وتركوها فتخلفوا عن باقي الشعوب التي أخذت بها،

واستعاضوا عنها بمصطلحات ومفاهيم عجيبة مثل : إجماع الجمهور، وامام المسلمين، والخليفة، وأهل الحل والعقد، وكلها مفاهيم تاريخية فرضتها ظروف زمانية ومكانية معينة، أصبحت اليوم لامعنى لها، وبقي المعنى الذي يجب أن نعود لنتبناه وهو ولاية الأمة على نفسها. وأنه لاوصاية على الشعب، وان الشعب ينتخب سلطاته بنفسه.

حين نقول إن أركان الاسلام ميثاق بين ا لله والناس، ونقول إن الزواج ميثاق بين رجل وامرأة يرغبان بإنشاء أسرة، كذلك نقول إن هناك ميثاقاً تم الانطلاق منه والارتكاز عليه في وضع الدساتير وصياغة القوانين. وكذلك نقول إن للعمل السياسي ميثاقاً ينتظم هذا العمل ضمنه ولا يخالفه، فالمجتمع يقوم على ميثاقين، الأول الميثاق الأخلاقي (المثل العليا) والثاني الميثاق السياسي، الذي تقوم الدولة على أساسه بصياغة دستورها في عقد اجتماعي ينظم السلطات وعلاقة الناس بهذه السلطات، وبصياغة قوانينها التي تنظم حياة الناس اليومية ضمن إطار الدستور والميثاق الأخلاقي بدون فقهاء وهامانات.

من هنا نرى المجتمع والدولة في الشكل التالي:

→ تكليف ←

الميثاق الاجتماعي الانساني = الميثاق الانساني ← الشورى ← المساءلة

(حرية وقيم عليا)

↓ ↓ ↓

الدولة = الميثاق السياسي ← الدستور ← القانون

(حرية الأحزاب وتداول السلطة) (دولة مدنية) تقوم على التعددية وفصل السلطات الثلاث

↓ ↓

حالة طوعية حالة تعاقدية (تكليف)

نأتي الآن إلى البند التكليفي الثاني من تكاليف الايمان، الذي جاء إلى أتباع محمد (ص) حصراً، وهو الجهاد في سبيل الله، وهو تكليف لأنه ضد الفطرة. فالقتال في سبيل الله يعني القتال لتكون كلمة الله هي العليا. وكلمة الله العليا هي التي سبقت للناس أجمعين، مطيعين وعصاة، بأنهم عباده، أحرار في طاعته أحرار في معصيته، أحرار في أن يحدوا من حريتهم لأجله، انطلاقاً من ثقتهم به. وعلى هذا تتم المحاسبة والمساءلة يوم الحساب. فجاء الوعد بالثواب لمن اختار الطاعة، وجاء الوعيد بالعقاب لمن اختار المعصية، فيتحقق الوجه الأول من كلمة الله العليا وهو الحرية، ثم يتحقق الوجه الثاني من كلمة الله العليا وهو العدل، يوم لايظلم ربك أحداً من عباده، فيجزيهم على ما اختاروا بملء إرادتهم.

هنا نفهم أن الحرية الانسانية لجميع بني الانسان قدساً مقدساً لايجوز المساس به. ومن هنا نفهم أن الأمر بالقتال الذي تكلف به أتباع محمد (ص)، هو من أجل هذا القدس المقدس. ونفهم أن القتال في سبيل الله هو قتال في سبيل (لاإكراه) عموماً، و(لاإكراه في الدين) خصوصاً. وكل ماعدا ذلك فهو ليس في سبيل الله، كائنة ماكانت ألوان ألويته أو الأسماء التي تطلق عليه. نفهم هذا ونحن نلاحظ أن مبدأ (لاإكراه في الدين) مرتبط في التنزيل بـ (العروة الوثقى) ومرتبط بزوال الطغيان (الطاغوت).

والقتال في سبيل الله ضمن ماذكرنا، ليس قتالاً من أجل الوطن بالضرورة، فإذا كانت هناك مجموعة من الناس فقدت حريتها، وتعيش تحت حكم الطغيان والاستبداد، ولاخيارات عندها، فعلينا أن نساعدهاحتى ولو كانت في أقاصي المعمورة. وهذا ماحصل حين توافد المتطوعون من كل أنحاء العالم للقتال في إسبانيا من أجل حرية إسبانيا . و هذا أيضا من تكاليف الايمان الذي جاء لأتباع محمد (ص).

ثمة مثال عن المهازل التي تحصل من جراء تسييس الاسلام، هو أفغانستان. فقد قاتل الشعب الأفغاني ضد الغزاة الروس، وهو قتال مشروع لاغبار عليه، إلا أن هذا القتال مازال مستمراً حتى بعد جلاء الروس، رغم أن كل الأحزاب المتقاتلة هناك اسمها إسلامية. الواقع أن مايحصل هو صراع على السلطة، (أي السياسة بمعناها الأول)، بين فئات مختلفة، لها جذور قومية/ قبلية/ أسرية/ عشائرية/ مذهبية، وكل فئة تحاول أن تستحوذ على السلطة لنفسها وهذا نموذج حي معاصر لأحداث الجمل وصفين. إن وقوع الشعب الأفغاني فريسة هذا التخلف في العمل السياسي (Politics) أمر لاعلاقة له بالاسلام من قريب ولا من بعيد، ولو أن الأحزاب المتقاتلة هناك تؤمن بتداول السلطة وحرية الصحافة والانتخابات لما وقع قتيل واحد.

وإذا نحن استعرضنا أركان الاسلام وأركان الايمان كلها، لما وجدنا ركناً مختلفاً عليه، يستحق القتال من أجله، إلا الشورى (الديموقراطية). والمعارك التي اشتعلت نارها على مدى القرون الماضية تحت شعار الاسلام، بدءاً من صفين، وانتهاء بأفغانستان اليوم، هي معارك قتال على السلطة، لاعلاقة لأركان الاسلام والايمان بها من قريب أو بعيد.

بعد أن عرفنا أن الديموقراطية هي النمط العلمي للحياة الانسانية، وأنها من تكاليف الايمان، والحامية الوحيدة للمثل العليا الاسلامية، التي من ضمنها حقوق الانسان، يمكننا الآن أن نعرف المجتمع الاسلامي ، بأنه مجتمع مدني بحت. فيه حرية التعبير عن الرأي والرأي الآخر والتعددية الحزبية، وتقوم الدولة فيه على الانتخابات الدورية بمستوياتها المختلفة، ومبدأ تداول السلطة والمساءلة والمعارضة وفصل السلطات الثلاث. وأن مفهوم أهل الحل والعقد، وهكذا أجمع الجمهور، والفقهاء والهامانات الذين يعيشون على أكتاف الناس، وكل هذه الأدبيات التي ورثناها بالمئات، ليس لها إلا قيمة

تاريخية، لاتفيدنا بشيء في بناء دولة معاصرة، لأنها قامت على ظروف تاريخية مختلفة عن ظروفنا تماماً، واستعملت نظماً وأدوات معرفية تختلف عن نظمنا وأدواتنا.

مما تم ترسيخه في ثقافتنا العربية الاسلامية، قول أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار: سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها. وماعلينا إلا أن نعكس هذا القول لنضع أرجلنا في مكانها الصحيح على طريق الألف ميل.

أرجو من الله سبحانه أن يقبل هذا العمل خالصاً لوجهه، فإن أصبت فبتوفيق من الله وفضل، وإن أخطأت فمن نفسي، آملاً أن أكون قد وفقت إلى إشعال شموع متواضعة، على طريق فهم حضاري أفضل للتنزيل الحكيم، عبر قراءة معاصرة تعتمد على نظم معرفية وأدوات معرفية معاصرة. خدمة لله ورسوله ولكتابه وللعروبة والاسلام والايمان، لعل فيها مايساعد على طرح حضاري عالمي للاسلام وعلى تجاوز التعصب الديني والمذهبي والطائفي، لبناء مجتمع عربي إسلامي متحضر مدني أفضل يشق طريقه نحو الوحدة العربية. والحمد لله رب العالمين.

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .. ﴾ الرعد ١٧

صدق الله العظيم

الدكتور المهندس

محمد شحرور

الفهرس

توطئة ١٥

القسم الاول ٢٧

الاسلام و الايمان ٢٩

القسم الثاني ١٣٣

منظومة القيم ١٣٥

الفصل الاول ١٣٧

العباد و العبيد ١٣٩

الفصل الثاني ١٩١

الشهادة و الشهيد ١٩٣

الفصل الثالث ٢٦٩

الابوان و الوالدان ٢٧١

الفصل الرابع ٣٣٥

الذنب و السيئة ٣٣٧

الفصل الخامس ٣٧٩

قول في الاسلام و السياسة ٣٨١

الإسلام والإيمان

هناك دين واحد عند الله هو الإسلام، بدأ بنوح (ع)، وتنامى متطوراً متراكماً على يد النذر والنبوّات والرسالات، إلى أن خُتم متكاملاً بالرسول الأعظم محمد ﷺ. والإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو منظومة المثل العليا، وهو العروة الوثقى، وهو الصراط المستقيم.

الإسلام فطرة.. والإيمان تكليف. الإسلام يتقدم على الإيمان، إذ لا إيمان دون إسلام يسبقه ويأتي قبله. المسلمون هم معظم أهل الأرض، أما المؤمنون فهم اتباع محمد ﷺ. فإبراهيم (ع) أبو المسلمين، ومحمد ﷺ أبو المؤمنين.

من هذه الأسس ينطلق المؤلف في هذا الكتاب، لفهم الفرق بين تعاليم الإسلام وتكاليف الإيمان، بدلالة الفرق بين الكتاب والفريضة والموعظة، وما يترتب عليه فهم جديد لقوانين الإرث وأنصبته.

ومن هذه القواعد، وبدلالة الفرق بين العباد والعبيد، ينتهي المؤلف إلى أن التنزيل الحكيم لم يعترف بالرق إطلاقاً ولم يُجزه، وإن كان قد ذكره ذاماً، كوضع قائم موجود. وإلى أنّ مُلك اليمين لا يعني الرق البتة، وإلى أنّ العلاقة بين الله والناس علاقة عبادية حرة، وليست علاقة عبودية استعبادية. ثم يخلص إلى أنّ العبادات تتجلّى في كل حقول الحياة.

ومن هذه المنطلقات يخلص المؤلف إلى تعريف الكفر والشرك والإجرام والإلحاد.

ويختم المؤلف كتابه برأيٍ في الإسلام والسياسة، فيبيّن أن الإسلام، من حيث هو توحيد ومثل عليا إنسانية، غير قابل للتسييس. وأنّ محاولة البعض تسييس الإسلام، ومحاولة البعض الآخر أسلمة السياسة، أضاعت السياسة والإسلام معاً.

الناشر

السعر: ٣٠٠ ل.س